

مَجْلَدٌ

كَلِیةُ الْأَدَابِ

بِطَبْوَاقِ



المملكة المغربية

جامعة عبد الملك السعدي

\*\*\*

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية

بتطوان

\*\*\*

تصدر مرة كل سنة

\*\*\*

المدير المسؤول : قيديم الكلية د. محمد الكتاني

أعضاء هيئة التحرير الأساتذة

أحمد بن عبود الأمين بوجبزة

عبد الله الترغي رضوان العيادي

عبد المجيد واسمين محمد لعوان

مصطفى اعديلة

العنوان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

صندوق البريد 26 — مرتيل — تطوان

المغرب

تعبر المقالات والأبحاث الواردة  
على المجلة لنشرها عن آراء  
أصحابها. وعليهم وحدهم  
مسئوليتها ولا ترد إليهم هذه  
المقالات نشرت أو لم تنشر

مطبعة  الجديدة  
الشارع الرئيسي

الإيداع القانوني رقم 1/1987

جامعة عبد الملك السعدي

مجلة

كلية الآداب

بتطوان

عدد خاص بتطوان

1991/1412

السنة 5 العدد 5





## الفهرس

- تطوان بنت سبته البارة  
 7..... ذ. محمد بنتاويت
- الشيخ عبد القادر البتين القرشي العثماني  
 23 ..... ذ. محمد العربي الخطابي
- تطوان، كما وجدها ألاكون : بيضاء، بيضاء  
 35 ..... ذ. محمد العربي المساري
- جبل العلم بين الشعر والتاريخ  
 55 ..... ذ. عبد السلام شقور
- الأهمية الجيوستراتيجية والجيوستاسية لتطوان  
 91 ..... ذ. أشركي أفقير محمد
- التربية والتعليم عند الحركة الوطنية في الشمال  
 103 ..... ذ. عبد العزيز السعود
- حزب الإصلاح الوطني والاستقلال  
 115 ..... ذ. حسن الصفار
- ترجمة أبي الحسن الشاذلي في كتاب : «سبك المقال لفك العقال»  
 125 ..... ذ. جعفر ابن الحاج السلمي
- التوسع الحضري وأنشطة السكان بمرتيل  
 143 ..... ذ. أحمد الناوي

## تطوان بنت سبتة البارة

ذ. محمد بنتاويت

إذا كانت تطوان من منشآت الرومان أو من قبلهم من الفنيقيين، فإن ذلك ما كان إلا بعد إنشاء سبتة. إذ مجيء أولئك وهؤلاء ما كان إلا بحرا لا برا، بالتأكيد. وهكذا ارتبطت المدينتان برباط الاحداث التاريخية، وسارتا معا في عجلة التاريخ قديما وحديثا.

فكان الفتح الاسلامي يشملهما معا، كما يقرر ذلك ليون الافريقي<sup>(1)</sup> وما رمول<sup>(2)</sup> الاسباني.

لقد انطلق طارق بن زياد من طنجة وفتح المدينتين معا، والغالب أن البداية كانت بتطوان<sup>(3)</sup> لأنه لم يأت سبتة بحرا، بل برا، كما يشهد بذلك طابع الواقع إذ ذاك، حيث ركوب البحر كان محاطا بالخطر وكانت السرية في المداهمة مما تفرض تنكب ذلك.

حقا كان الفتح لسبتة مصالحة بين الزعيمين الغماريين، طارق ويوليان. ولكن المنطلق من سبتة إلى شبه الجزيرة، في مداهمة مباغتة، كان يفرض أن لا يقع إلا وهو في خط مستقيم، لا يثير مخاوف ولا توجسا من أصحاب شبه الجزيرة

---

(1) وصف افريقيا 318 ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر وفيها يذكر أن بانها الأفارقة القدامى...

(2) افريقيا ترجمة المذكورين ومحمد زنيير وأحمد التوفيق وأحمد بنجلون.

(3) ويذكر ليون أن المسلمين فتحوها عندما اخذوا سبتة من يد القوط. والمتبادر من العبارة أن أخذها كان بعد سبتة، وهو بعيد جدا.

المذكورة فحاكم سبته كان يدين بالطاعة لهم، ولما تغير عليهم، وتواطأ مع طارق، كان ذلك في سرية منه.

فجاءهم الاسطول من المَجاز وهم معتقدون الأمن منه والسلامة من تحركه. فلو كان الانطلاق طنجة لكان الأمر غير ذلك ولوقعت المقاومة في عرض البحر، ثم إن الاسطول الذي كان سيركب فيه أولئك المجاهدون لم يكن من طنجة وإنما كان من سبته التي كان أسطولها يبحر بجرها من لدن يوليان صاحبها.

لهذا قلنا إن فتح تطوان كان آتيا من البر، كما كانت المحاولة الأولى لموسى بن نصير أو قائده، لفتح سبته آتية من البر، الذي لم يفد شيئا في تحقيق الفتح لها. ومنذ الفتح الأول سكنت التاريخ عن سبته ولم يستيقظ على ذكرها إلا أوائل القرن الثالث، حيث كانت ضمن إمارة القاسم بن إدريس الأصغر.

ومن هذا التاريخ تواتر ذكرها، يحكمها بنو عصام الغماريون حكما مستقلا أو شبه مستقل، كما نرى، إلى أن كانت أوائل القرن الرابع حيث كانت أساطيل عبد الرحمن الناصر ترسو في مياهها وتتمكن من احتلالها، دفعا لأخطار الفاطميين التي كانت محيقة بها.

هذه الأخطار التي حركت القائد الفاطمي العظيم جوهر — بعد هذا الفتح بعشرة أعوام — ليتجه صوب سبته فيحل بعساكره الجراراة في تطوان، ولكنه لم يقو على فتح سبته بهذا الجيش الذي انطلق من تطوان وعاد خائبا، فركب الصحراء التي حل منها بسجلماسة.

في هذه الفترة الوجيزة نرى الادارسة بني محمد بن القاسم المذكور، يقتصرون على تطوان، وقد انحسر ظلهم عن سبته؛ ويرى الأمويون أن تنقطع عنهم الاطماع في سبته، هذه الأطماع التي ربما كانت ستمتد إليهم من هذه القاعدة البرية «تطوان» فحملوا — ولا شك — بني محمد هؤلاء على هدمها. وكان الادارسة في مغلبهم يدورون في فلك الأمويين. وبعضهم كان مترددا بينهم وبين الفاطميين. ولكن هؤلاء لا يحسب لهم حساب، خصوصا أنهم قد خرجت طنجة من يدهم، في نفس الفترة التي خرجت النكور من يد بني صالح أمرائها.

ولما حاول الادارسة المذكورون أن يعيدوا بناءها ضج أهل سبته من ذلك، لأنهم بعملهم هذا سيقطعون عنها ميزتها، كما يقول المؤرخون القدامى.

والواقع أن هذا الخوف كان كما قلنا، خوفا «استراتيجيا» ولم يكن خوفا مرفقيا، فأهل سبتة الآن هم في الواقع أصحاب الشأن الأموي.

ومهما يكن، فإنه بعد عشرين سنة من مجيء جوهر الصقلي إلى تطوان، في مراودة سبتة، كان زعيم عظيم من المغرب هو زيري الصنهاجي، الذي كانت انتفاضته — في الواقع — تخلصا من الهيمنة الخارجية، على بلاده، فجاء إلى تطوان وصعد جبالها، ليشرف منها على موقع سبتة، قصد تخليصها من الدخلاء الأمويين. هؤلاء الذين استعادوا سلطانهم الصوري، بفضل الباقعة الناجم، محمد بن أبي عامر العظيم؛ الذي مكن من الوجود الاسلامي في الأندلس، وكان قد تعرض للانهيار، بعد عبد الرحمن الناصر، فتسمى بالمنصور، إثر ظفره المستمر في الأندلس، وتخطى شبه الجزيرة، وحط بسبتة التي أصلح من شأنها وبنى قلعتها على ذروة جبلها، وأقام على قممتها المنار الذي يذكر به جبل المنار، ومد سلطانه على الشمال عامة وفي واجهته الكبرى العاصمة الادريسية العتيقة فاس نفسها.

وأورث ابنه العظيم هذه المملكة الواسعة الأرجاء الممتدة من برشلونة شرقا إلى سواحل المغرب الاطلسية غربا، وكان ذلك أوائل القرن الخامس الذي لم يمهل هذا الابن إلا عشر سنوات، خلفه بعدها أخوه عبد الرحمن الملقب بسنجول الذي كان من أم أميرة إسبانية ابنة أحد ملوك الاندلس المسيحية الذي كان يسمى بهذا الاسم وهو «سانشو» غرسيا، ملك نفاري Sanche Garcia de Navarra.

وفي هذا القرن بالذات نجد تطوان تدخل غمار الجغرافية إثر ما دخلت سبتة في هذا الغمار الاسلامي ويؤلف فيها.

فهذا الجغرافي الاندلسي العالم اللغوي البكري يذكرها بقوله بأنها أسفل «وادراس» أو وادي «مجكسة» الذي يتسع لدخول المراكب الصغار. الآتية من البحر الذي يفصله عنها عشرة أميال.

يذكر هذا وقد صارت تطوان يسكنها قوم بني سكين الذين بنوا بها قصبتهم كما بنوا منارا مطلا على البحر المذكور. وربما كانوا المجددين فقط، لأن المنار، كان — ولا شك — للمتقدمين عليهم. وأولهم الرومان بناء قاعدة «تمودة» التي ما زالت خرائبها ماثلة للعيان، بعيدة عن تطوان بنحو ميلين، وهي على يسار القاصد إلى



مدينة الشاون، بعد اجتياز قنطرة الوادي، ويعرف هذا الحيز «بني حزم» المعروفين بحيرهم الجير عندنا، إلى زمن قريب.

ومما تجدر ملاحظته أن الرومان في القديم كانوا مهتمين بالتجوير وقال لي باحث من البرتغال : إن أصل تسميتهم راجع إلى هذا فأصل التسمية «بورثوكال» Porte cal أي لمرفأ الجيري. وكان في معرفتي أنه بالقاف المعقودة راجع إلى «كالسيا» Galicia التي تتكلم نفس اللغة تقريبا. وفي شمال الاقليم منها يكادون لا يفهمون القشتالية التي هي اللغة الرسمية لاسبانيا. فإن صح قوله تكون كالسيا نفسها منسوبة إلى «بورثوكال».

وهذا لا يعنينا الآن بقدر ما يعنينا أن بني سكين كانوا سكان تطوان بالقرن الخامس. ويذكر البكري أن مياهها كثيرة سائحة وهي التي سميت بها تطاوين العيون بالبربرية وأن المدينة أو القصبه كانت تضم من رجالها مائة فارس.

وبالقرب منها قاعدة بني مرزوق بن عون من مصمودة وتقع بجبل الدرقه وكان هؤلاء يسكنون قرية هذينة ذات المياه السائحة — كما يقول — وما زال هذا الاسم معروفا بهذا المكان ويقع بالجانب الأيمن للقاصد من تطوان إلى طنجة على بعد نحو خمسة أميال من تطوان على قارعة الطريق المفضي إلى القصر الصغير.

ويتصل جبل الدرقه ببلاد عمارة، كما يقول، وفي آخره تسكن جماعة بني حسين ابن نصر. ولعل هؤلاء هم المعروفون ببني حسان القاطنين في منتصف الطريق بين تطوان والشاون أو شفشاون.

وعلى بعد عشرين ميلا — تقريبا — يقع جبل الحبيب، نسبة إلى الفاتح الحاكم حبيب الفهري، الذي ينتسب إليه القوم، وفيهم عائلة الفاسي، كما يزعمون، وقال لي الدكتور الحبابي، إنه منسوب إليه، كما زعم أيضا مثلهم، وبينه وبين وادراس قبيلة بني مصور، وفي الطرف الآخر تقع قبيلة بني يدر فتكون تطوان محاطة من هذه القبائل العتيدة التي كان لها شأن في الجهاد.

أما قبيلة وادراس، فإن حلفها كان مع قبيلة الاخماس، على حين كانت قبيلة أنجرة، القرية من ساحل الأبيض المتوسط والواقعة بين طنجة وسبتة غربا بشرق، ضلعها مع غمارة المؤسسين لامارة بني عصام أصحاب سبتة.

وفي قبيلة أنجرة يقع قصر الجاز، أو قصر مصمودة، وهو المعروف اليوم بالقصر الصغير، تميزا له عن القصر الكبير المنسوب إلى كتامة الغمارية كذلك، ويدعى أيضا قصر عبد الكريم.

على أنه في أوائل القرن الخامس، كان حاميم الغماري يحيط بعسكره في وادراس، فهل كانت وادراس آنذاك حليفة لغمارة، أو أنه جاءها بقصد إخضاعها له؟ لسنا متأكدين من ذلك، إلا أننا عرفنا أن حاميم كان يهدف من نزوله بهذه الجهات إلى احتلال سبتة. لهذا توجه إلى الجبل المطل على تطوان ليعاين منه موقع سبتة، قبل الاقدام على الاستيلاء عليها، لكن ذلك لم يقع منه، وانصرف عنه، كما فعل قبله جوهر الصقلي، فيما سلف القول به.

وفي أوائل القرن السادس وقد نشب القتال بين المرابطين وأصحاب محمد بن تومرت المدعويين بالموحدين، نجد القائد المرابطي القاطلاني «البربرير» Reverter يحل بتطوان وهو يواجه هؤلاء الناجمين الخطيرين الذين ارتدوا عنه<sup>(4)</sup>.

وفي أواسط هذا القرن كانت سبتة تثور على الموحدين بزعماء قاضيا عياض اليحصبي، ويتمكن عبد المومن من استرجاع سبتة ونفي قاضيا عياض. كما يتمكن من الغماريين الذين كان لهم ضلع — ولا شك — في هذه الثورة فيسجنهم بتطوان، ثم يأمر بقتل ست مائة منهم، في نفس السنة التي توفي فيها عياض مسموما، كما يقال.

وفي هذا القرن بالذات صارت رجالات من سبتة تتجه إلى تطوان بقصد الاستيطان بها. وكان أبرز هؤلاء الشيخ أبو محمد عبد القادر التبي الغرناطي الأصل الذي مازالت بعقبة الجبل المقدس «ساكرومونطي» Sacremento دار تذكّر باسم عائلته. وقد اتخذت قبل إحداث الدراسات الإسلامية بجامعة «غرناطة» مقرا لها يقوم على ذلك «سيكودي لوثينا» «Seco de Lucena» واجتمعت معه في أواسط الخمسينات الميلادية بهذه الدار.

جاء عبد القادر التبي الصوفي العالم ومعه شيعته فأقام بسفلى المدينة الحالية حيث

---

(4) عصر المرابطين والموحدين لعبد الله عنان الجزء (1) صفحة 238، نقلا عن أخبار المهدي والبيان المغرب...

بنى داره بالمكان المعروف باسم المنجرة، كما بنى مسجدا ورحى لطحن الحبوب وفرنا وحاما، لا محالة. كما أقام هناك سوقا مدنية، مازالت تعرف حتى الآن باسم السويقة، تفريقا بينها وبين السوق، نقول هذا، مستظهريين بنحو سويقة بن صافي في فاس والسويقة بالرباط فإن اسم السويقة عبارة عن المكان التجاري الذي يضم الحوانيت، وهو ما عرف في طنجة باسم السوق الداخل (أما السوق الذي يؤمه أهل البادية المجاورة للبيع والشراء فهو السوق المعروف «بالسوق دُبرّة»، كما كان ذلك في تطوان وطنجة التي مازالت محتفظة بهذا الاسم للمكان المعروف.. وعموما فإن السوق يكون خارج المدينة كسوق الحوت فيما مضى وكذلك السوق الفوقي الذي كان خارجا عن المدينة متصلا بالغرسة الكبيرة التي مازال يفصلها سور المدينة العتيق).

وهذا المكان هو المتصل بالمصداغ ثم الربض السفلي إلى باب العقلة مقابله غربا المكان المعروف حتى الآن باسم الساقية الفوقية الذي يفضي إلى الطرافين ثم باب الرواح إلى الفدان الذي كان السوق الخارجي<sup>(5)</sup> أولا، وبه سوق الزرع حيث مطامير الحبوب مازالت قائمة به. كما كان يوصل إلى سوق الحوت الملاصق لسور القصبة خارجه وفي داخله كان فندق خاص بالبهائم التي كانت تحمل الحوت إليه، ومنها انبثق المثل «حوتة تُنْتَن شواري».

نعود إلى عبد القادر التبي ورجاله فنجد منهم أبا عبد الله الفخار العالم الصوفي كذلك.

وضريح الشيخ التبي معروف بقبته التي بناها عليه السلطان مولاي اليزيد وفاء بذلك لبلده سبتة، التي كان هو يحضرها ويضيق الخناق عليها، وقد أدركنا تمثالا رخاميا له يعلو باب المستشفى الحربي الذي كان بالشارع الملكي (الشارع الرئيسي) لمدينة سبتة وفي الجانب الأيمن من الباب كان تمثال رخامي كذلك

---

(5) كان الفدان تحيط به فنادق عديدة، فندقان بالمصلي القديم والقديمة، وفندق اللبادي إلى جوار إدارة الكهرباء حاليا، وآخر بجوار زنقة الزاوية وآخر كان بالطرافين، حيث كان الاسكافيون من اليهود، وغالبا كان الطرفون قريبين من الأسواق، كما كان الصفاحون للبهائم قريبين من فندق اللبادي وبالجملة فوجود الفندق يدل على قربه من السوق فإن فندق النجار الذي ضم الزاوية الناصرية، كان قريبا من السوق السفلي وفندق الترنكات من الفدان.



لِمَدْفِعِيهِ «الطوبجي» تذكارا لهذا الحصار التاريخي. وقد اختفى هذان التمثالان باختفاء المستشفى المذكور الذي أقيم مكانه «دار السيمة».

وهذا الضريح كان مرتفعا على نشز ظاهر بين باب العقلة وباب الرموز، أما الآن فإنه ينزل إليه بدرج، وذلك قد وقع أواخر الأربعينات أول العشرينات الميلادية، حينما اتخذت طريق للسيارات بين تطوان وسبتة وإلى جوار الضريح توجد عين كانت ومازالت تدعى باسم «العوينة». وكان العوام يستشفون بها في الأمراض العقلية.

أما ضريح الفخار الذي يقع غربا لجنوب الأول، فكانت له قداسة عظيمة عند أهل تطوان وبتطوان عائلتان تدعيان بالفخار، والغالب أنهما لا علاقة لهما بالولي المذكور، بل نسبة لمهنة الفخارة.

وبعد لقد شهد القرن السابع أحداثا خطيرة كان أولها الضعف والانحلال الذي تعرضت له الدولة والانقسام في البيت المالكي، بل حتى في البقعة الجغرافية للبلاد التي كانت قبل حدودها الشرقية تتاخم الحدود المصرية، لكن الموحدين بعد المنصور، تلقوا الضربة القاصمة في «العقاب» بالاندلس. وتخففوا من هذا الحكم الثقيل الأعباء فعهدوا إلى بعض رجال الدولة الكبار أن يستبدوا بحكم المغرب الأوسط، تونس وما يليها، فكان هذا إيذانا بخروجها عن سلطانهم. واستمرت وطأة النصرانية تشتد على الحكم الموحي بالاندلس فكانت موقعة القصر، أي قصر بني دانسر في منطقة «الغرب»، وقريبا من العاصمة البرتغالية بنحو أربعين ميلا، فكانت هذه الموقعة تضاهي موقعة العقاب أو تفوقها شدة وضراوة، وفي الجانب المقابل كانت مالقة وشرش وإشبيلية وقرطبة تستعد للقاء الكوارث التي كانت تغر فاهها وتكشر عن أنيابها. فاشتدت الهجرة إلى المغرب وتركزت في سبتة، بصفة خاصة وكان من أثر هذه الهجرة المدممة، وهذا الضعف الموحي أن استقلت سبتة بنفسها، وبسبب من حكم ابن خلاص الاندلسي لها.

وبذلك لم يكن منها بعد استقلال الحفصيين بتونس إلا أن توجهت إليهم بالبيعة التي حملها القوم إلى أبي زكريا العظيم المستبد فتقبلها ومد سلطانها على غيرها في داخل المغرب حيث بايعت مكناس التي كانت قد هاجرت إليها طوائف من

الاندلسيين كذلك. وكان الذي حرر نص البيعة ابن عبدون<sup>(6)</sup>.

كل هذا كان وبنو مريم يدهمون فلول الموحدين وينتزعون منهم أقطارا شاسعة شمال المغرب أولا، حيث كانوا يذكرون بالعرب الكاسحين.

لكن سبتة بقيت في مأمن منهم، تحت سلطان الحفصيين إلى أن اشتد الخناق عليهم والظلم يأخذ بتلابيبهم، فانتفضوا انتفاضة التخلص منهم وتولى حكمها العزفيون.

وفي أواخر هذا القرن السابع وأوائل الثامن كان مهاجر آخر من سبتة يستقر بتطوان ويكون له شأن حيا وميتا، كما يكون من عقبه من الاحفاد من يعايشوننا في هذا العهد.

ذلك هو الشيخ سيدي طلحة الدريج دفين الحومة التي تعرف باسمه الآن من تطوان وصاحب الضريح الذي كان يتبرك به عند المحل وطلب الغيث. فقد ظهر صلاحه ببلدته سبتة، حيث كان آباؤه من بني الدريج الاعلام، فطلبه أهل بادية سبتة من أمرائها العزفيين ليتبركوا به ويستنصروه في جهادهم لعدوهم. فأقام معهم زمنا، ثم نرح إلى تطوان، أو نواحها آنذاك. وكان من الراسخين في العلوم مشهورا بالزهد والورع، كثير الصيام والتجهد، سباقا إلى الجهاد، ممتطيا فرسه، يقتحم ساحة الوغى ويتبعه أشياعه المجاهدون، في نحو الخمسين من الفرسان، إلى أن توفي فدفن بمكانه المعروف، خارج تطوان العتيقة.

ولم يكن في الأندلس آنذاك دولة لها اعتبارها إلا دولة بني الأحمر، التي امتدت أطماعها إلى المغرب وتركزت في سبتة التي احتلوها. وكان حكم العزفيين بها يمتد إلى طنجة ثم أصيلة. لكن المحتلين اكتفوا بسبتة فرأى بنو مريم في هذا الاحتلال خطرا على دولتهم الناشئة وبدؤوا يعملون على استرجاع سبتة وتخليصها من براثن بني نصر.

لهذا فكروا في تطوان وجعلوها بداية الخلاص من هؤلاء الغاصبين الأذنياء، بني نصر، أو بني الأحمر، فصاروا يلجأون أولا إلى الحسنى ولكنهم فيما بعد،

---

(6) انظر الجزء الثاني من «الوافي بالادب العربي في المغرب الأقصى».

صاروا بعزم، يتخذون العدة لاستخلاصها، انطلاقاً من تطوان، حيث حُصنت قصبتها وأسوارها أوائل القرن الثامن. وذلك أيام أبي ثابت، عامر بن عبد الله بن يوسف بن عبد الحق. ثم أيام أخيه، وخلفه أبي الربيع سليمان، الذي أكمل هذا التحصين فانطلقت الجيوش وشددت الحصار على سبتة، التي سرعان ما تخلصت من بني نصر، وعادت إلى الدولة التي ولت عليها أحفاد العزفيين الأول. فاستبدوا بها، وظلت خارجة عن حكم المرينيين، بعد بني نصر. ثم عادت إليهم، فحكموها، حتى كانت أواخر القرن الثامن، حيث صارت إلى بني نصر، مرة أخرى. وتكررت محاولة المرينيين لاستخلاصها من هؤلاء المتربصين بها.

وما أن أطل القرن التاسع، حتى كانت تطوان تواجه الاحتلال الإسباني فأسر رجالها وتخرب ديارها، وذلك قبيل احتلال سبتة بنحو عشرين سنة، فاحتلها البرتغاليون النصارى سنة 819 بعد تخريب إخوانهم الأسبان النصارى لتطوان<sup>(7)</sup> ولا شك أن ذلك كان حسب توجيه بابوي كاثوليكي محكم وموقت توقيتاً زمنياً. وهكذا ظلت تطوان خربة جُلّ هذا القرن تقريباً، وصارت مدينة سبتة ترزح تحت الاحتلال البرتغالي ولا صرخ لها ينتظر من المدينة الخربة التعسة. وتبودلت التهاني بين الأسبان والبرتغال اللذين قسم البابا العالم بينهما.

وفي أواخر هذا القرن كانت تطوان تعود إليها الحياة فتبنى بصفة الحواضر من المدن وذلك بفضل المهاجرين من غرناطة الذين سمح لهم المرينيون أن يقيموا مدينتهم الحديثة على أنقاض المدينة الخربة فكان ذلك عام الثمانيات 888 (بعدها كان احتلال سبتة من الاندلس المسلم أول الأمر عام 218 وآخر الأمر عام 819 من الاندلس المسيحي البرتغالي وهكذا شرع الاندلسيون في بناء أسوار المدينة، واشتبكوا مع نصارى سبتة في حرب ضروس، كانوا يرجعون كل يوم من المعركة إلى تطوان وهم يسوقون أسرى البرتغال أمامهم، فيستعملونهم في بناء هذه الأسوار، نهاراً ويحتفظون بهم ليلاً في مطاميرهم، التي ما زال بعضها على حالته في الشارع الحامل لاسم المطامير وهو الشارع الذي ينطلق من حومة القصبة التي

(7) يذكر ليون في كتابه السالف أن المحتلين لتطوان هم البرتغال. وهو واهم هذا، فإن المحتل هو «هنري» الثالث الإسباني وكان ذلك سنة 1400.



كانت بها دار الحاكم المجاهد الغرناطي أبي الحسن علي المنظري، كما كان بها مشور الحكم واقعا إلى جوار الجامع «جامع القصبه» ويواجهه المصعد إلى القصبه التي مازالت قائمة بأسوارها العتيده، وهي تمتد من هنا محاذية للغرسة الكبيرة، التي كانت، ومازالت، تقع بها القاعة يفصل بينها وبين حومة القصبه مجاز مسقوق «قوس السفاجين»، ومن ناحية أخرى يمتد هذا السور فيحاذي سوق الحوت وينحدر محاذيا الساقية الفوقية إلى أن يتصل بالحصارين.

ومنذ هذا التاريخ وحصار سبتة لم ينقطع من قبل التطوانيين لدرجة أن صار شبانهم يتداولون الرباط على تخوم المدينة من جانبهم. كما كانت قبيلة أنجرة، تتولى الحصار من جانبها، على فحص المدينة فيما بعد، وخصوصا حينما انزاح كابوس البرتغال عن القصر الصغير وبلونش، وآلت سبتة إلى الاسبان.

وفي عهد فليبي الثاني الذي صار يضيق الخناق على الموريسكوس، هاجر هؤلاء إلى تطوان وجعلوا يضيفون إلى تطوان القديمة الغرناطية إضافات تمتد من الغرسة الكبيرة وتصعد فتكون زنقة المقدم ثم السوق الفوقي وتنتهي بقوس السفاجين الجديد، وفيه الحمام المعروف بحمام السوق الفوقي. وخارجه حومة الحدادين، يواجهها حوانيت السفاجين.

وفي أيام فليبي الثالث تكون الهجرة الأخيرة لهؤلاء الموريسكوس فينبون حومة «الترنكات»، التي تتصل بالحدادين وتنتهي بباب التوت، وعلى ظهرها حومة العيون والنيارين. وهذه متصلة بالحدادين بينما العيون تنتهي بباب النوادر، وفي هذه من الاندلسيين الطريس وبيصة والسكيرج. أما الترنكات فهي مليئة بأسماء هؤلاء الموريسكوس، فكلمة الترنكات هي Traners وعائلاتها هكذا : رويز Ruez، الروكس Rocas، طوريس Torres، يايص Païs، بيصة Baisa، كندير guender، البوطي el bote، برميجو Bermijo والبورطو Puerto وفيها من الاندلسيين غيرهم الخنديسي، ودعنون، وداود والجعيدي والحجام والقطان والسراج والسكيرج أيضا المذكور بحمي العيون. وتقدم أن كان بالعيون عائلة «الطريس» وإحدى العائلتين تسمى باسم «بولو» Polo والأخرى تنسب إلى كروما garromo<sup>(8)</sup> وكانت زوجة

(8) لم تكن حرف الخاء موجودا في الاسبانية لذلك العهد، ثم حصل التحول بها من الجيم كما في الترجلة وجيان ولنجران ووادي الحجرة القريب من «مدريد» شمالا. ومن الشين، كما في لوشة وشيمنة وشريش وشاطبة وبشرات.

يايىص اللى أءركناه من عائلته وصالص Sales<sup>(9)</sup> و «موراريش» Morales.

أما اللىن أسماءهم أعجمية فكثيرون هؤلاء هم المورسكوس بصفة خاصة، كان يتصل بهم بعض الانجليز المترءءين على المدينة وهو «جون هرسون» اللى كتب كثيرا في هذا (وترجمناه في تاريخ تطوان للمرحوم محمد ءاوء)، كما نجد في الجزء الأول من تاريخه المطول وبعضه في مختصره كذلك). ويءعى أنهم كانوا نصارى في ءاخليتهم وأنهم كانوا محتفظين بأناجيلهم.

وفي ءلال هذه المءة التي قطعتها تطوان لم نجد من رجالها من سجل له أثر في ميدان العلم والأءب، إلا من كان أواخر العهد المريني وأوائل العهد الوطاسي، وهو القاضى الكراسي اللى ترك لنا منظومة عن هذه الءولة الوطاسية وصراعها للبرتغاليين وما كان لها من ظفر وانتصار على هؤلاء في مواقف كان لها صءى في الأوسط العامة قبل الخاصة. ومنظومته هذه حتى الآن تعد المرجع العربى الوحيد المعاصر لتلك الءولة، وما عءاه فليس بيءها ما نستأنس به إلا ما سطره ليون الافريقى (الحسن الوزان).

وعلى كل ءال فإن هذا ءارج عن نطاقنا المعنون، ولكن أهميته أنه كان إرهابا لما شاهدته تطوان بعءه من علم وأءب في رجالها خصوصا في القرن الءاوى عشر، اللى انتهت فيه ءولة الاشراف المءكورين بالسعءيين وبءاية ءولة الاشراف العلويين. وفيما قبل هذا كانت تطوان في شبه عزلة تعتمد فيها على نفسها مستقلة

---

(9) هناك عائلتان، إءءاهما بالترنكات صارت لها شهرة فائقة وءكر مجيء، بءأ بالنائب السلطانى في طنجة الءاج محمد اللى مازالت ءاره معروفة فيها بءومة واء أءرضان، وابنه الءاج أءمء باشا تطوان، اللى كان محبوبا بها بءبة يقبلون يءيه، ءينا يتواجهون معه أويصادفونه في الطريق، وابنه الزعيم الوطنى العظيم، اللى قل له المثل، وكان عمه من أصءاب الجنان، وغالب الانءلسيين، كانوا من أصءابه، فكان مءءل ءورهم يسمى باسم «الروا» لءوابهم تأويه (وقء عاينت ذلك بءار في المصءاع ءىء ءءلها ءمار صاءبها فكان لها بابان ءارءى وءاىلى) ويقال إن هذه كانت تءعى Polo أما الثانية وكانت بالعيون فتءعى كرومة Gorroma وبأءء أءءاءها يسمى بالمشمش اللىء «بن العربى» عءءنا وكان الورسكوس يتزوجون من بعضهم فزوجة كءءير Marchina وزوجة يايىص Salas وللطريس المااء بنتان زوج اءءاهما Aragon والثانية Medina وتزوج يايىص آءر من الرويز، وكان الطريس متزوجا من العطار وبيصة من الءنءيسى والقطان من بيصة ومنه الءءام وءاوء من ءاوء.

أو لها شبه استقلال، لها حكامها المعينون منها أو الذين فرضوا أنفسهم عليها، من زعماء اتسموا بالأهلية والمقدرة. وأهم هؤلاء عائلة النقسيس «المقدمين» عليها، والذين كانوا يقومون بالجهاد برا وبحرا على طول المضيق، فكانوا يداهمون سبتة، ويأسرون منها، وخصوصا في أوائل العهد السعدي، الذي أتوا فيه إلى فاس ليمثلوا بحضرة المنصور السعدي الذي كان بها. فقدموا إليه من جملة الأسرى جميلات من الاسبان سر بهن المنصور العظيم، وكان منهن بعض أبناؤه، ولكنه لم يحرك منه هذا ساكنا، نحو سبتة، برغم ما كان للشعراء من قصائد طنانة، قيلت في هذا الموضوع، بالمناسبة.

ومات المنصور والوباء يفتك بالمغرب الذي توزعه أبنائه وأحفاده وكان حصل من الذي كان ولي العهد أن ساورته نفسه بالقيام على أبيه إثر انتصاره على ابن عمه في الحرب التي أشعلها «فليبي الثاني» على المنصور. فتمكن منه أبوه قبل أن يعلن الخروج والعصيان فعلا، وحبسه. ولما مات كان أحد الثلاثة المبايعين بالملك ومعه ابنه عبد الله والقائد جُودر الفاتح.

ثم نجده يستنصر بفليبي الثالث على أخيه المولى زيدان الذي كان من أم إسبانية، فأمدّه فليبي بجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل مورسكي مقابل أن يتخلى له عن مدينة العرائش. واحتلت العرائش من قبل الاسبان وحمل الاسطول إلى المغرب المورسكيين الذين يعدون بالآلاف، تخلص منهم فليبي المذكور، وزج بهم في المعمة، على حين كان هذا يتردد على طنجة حيث الحكم الاسباني الذي تلا البرتغالي ثم تلاه بعد هذا، فاستاء منه مقدمو تطوان وفي مقدمتهم أبو الليف الذي تربص به الدوائر، حتى كان بفحص طنجة فأوقع به وقتله وطرح شلوه في العراء فبقي مطروحا حتى واره التراب بعض رجالات تطوان.

وفي خضم هذه الكوارث التي شهدتها المغرب، وخصوصا العاصمة فاس ومراكش نجم الزعماء على ساحة الجهاد فكان منهم الدلائي والعايشي والحضر غيلان. وكانت للدلائي والعايشي كما كانت للنقسيس قبلهما، علاقات مع إنجلترا منفردين فيها، عن الدولة، أما غيلان، فكان عدوها اللدود حينما آلت طنجة إليهم. وكان صديقا للترك حكام الجزائر آنذاك، ثم كان القضاء عليه وعلى غيره من الزعماء.



لما قامت دولة العلويين، وجدنا المولى الرشيد يتوجه إلى تطوان ويحاول أن يخضع بقية النقسيس إلى الدولة، كما يحاول ذلك في غيرهم من الزعماء المحاربين وذلك لتركيز السلطة. وتكون له مواقف اتسمت بالحزم والقساوة فقضى على هؤلاء، وهو معذور، لأن الحاملين للسلاح، حتى ولو كانوا يُخلصون به أوطانهم، فإنه يُحترز منهم بعد مرحلة الانعتاق والتخلص. وقد علمتنا الأيام المعاصرة شيئا من هذا حيث وجدنا من انحاز إلى الاسبان والفرنس، نائيا بجانبه، أو أبدي العصيان، بعدما دُعي إلى الطاعة، وعدم شق عصاها. «ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور».

لا شك أن المولى الرشيد كان يزمع أمره على تخلص سبتة وباقي البلاد المغربية الواقعة في يد الاسبان والبرتغال والانجليز. لهذا لما طلب حاكم طنجة أن يؤذن له بالقدوم على المولى الرشيد لم يؤذن له أن يأتي برا، حتى لا يطلع على الاستعدادات المتخذة، وسمح له أن يأتي بحرا إلى إحدى الموانئ القريبة من فاس.

وما توفي وخلفه أخوه المولى إسماعيل حتى أعلنها مدوية وخلص بعض الجيوب من الزعامات، وانقض رجاله على الغاصبين المحتلين، فخلصت البلاد، إلا ما كان من حصن البريج (الجديدة فيما بعد) وكان بيد البرتغال الذي تخلصوا من الاسبان، وسبتة التي بقيت في يد الاسبان، مقابل أن يستجيبوا إلى مطلب البرتغال في التخلص منهم والاستقلال بأنفسهم، ومليية التي احتلوها قديما<sup>(10)</sup>.

ويعني من هذا كله مدينة سبتة التي أقام الجيش على حصارها يصاحبه المجاهدون من تطوان الذين كان من علمائهم من يلزم الرباط على تخومها، وفي هؤلاء بعض أصدقاء العلمي صاحب الانيس المطرب، كما نجد فيه ما ينم عن هذا بنفسه، وينم عنه اليونسي الذي كان يتردد عليهم وعلى علمائهم، هو وتلميذه ابن زاكور الجزائري الأصل الفاسي القطن الذي انتقل خلفه إلى تطوان واتخذوا مقر سكنهم بحومة الطرنكات وفي درب السكيرج الاندلسي الذي كان من أسرته أول مؤرخ لتطوان.

ومات المولى إسماعيل بعد عشرين سنة من الحصار المضروب على سبتة، التي

---

(10) انظر بحثنا المسلسل والمعنون بـ «من زوايا التاريخ المغربي» في مجلة «تطوان».

بقيت النصرانية بها غصة في خلق كل مغربي إلى أن كان عهد السلطان محمد الثالث، أو محمد بن عبد الله، فراودته نفسه أن يستخلص المدينة ويطهرها من دنس غاصبها. فجاء في هذا الصدد، إلى تطوان، ومنها اتجه ليعاين عن كثب ما عليها المدينة من وضع يمكن منها ذلك فلما شاهد الحصون الحصينة، عيّن من تخليص الأسيرة، وتبع هذا عقد معاهدة السلام مع الاسبان، بحرا لا برا. ثم اتجه إلى مليلية لتخليصها وشدّد عليها الحصار، وقذفت مدافعه قذائفها. وكان نظره سديدا في هذا، حيث إن المدينة كانت بعيدة بالنسبة إلى موقعها من إسبانيا، ويسر الاحراق بها من بلاد الريف (بخلاف سبتة التي سريعا ما تأتيا النجدة وهي شبه عزلة ولكن الاسبان احتجوا بالمعاهدة المبرمة التي تشمل مليلية وغيرها، بالصدقة والسلام. فأجاب بأن ذلك كان «بحرا لا برا». فقليل له بل إنه كان «بحرا وبرا». ولما عرضت عليه وثيقة المعاهدة وجد بها ما ادعوه، فانصاع لما فيها، على أن يحمل الاسبان المدافع والعدة الحربية إلى البلاد التي هي تحت السيادة المغربية، فقبلوا ذلك، واكتفى هو بعزل الكاتب الذي سطر الوثيقة وهو ابن عثمان المكناسي.

ولما توفي وبوع ابنه المولى اليزيد كان أول عمل باشره هو الاتيان إلى تطوان ثم الاتيان إلى أسوار سبتة فحاصرها برجال الجبال، وقواته المختلفة، وفيها فاس وتطوان، فاشتد الحصار على سبتة التي لم تنس مرارته فأقامت تمثالين له، لليزيد ومرفّعيّ (الطوبجي الذي ربما كان عنيقد التطواني الماهر).

وأعاد التاريخ كثرته النصرانية الاسبانية على تطوان فجاءت جيوش الملكة «فكتوريا» ورسا أسطولها بمياه وادي مرتيل، في عهد محمد الرابع بن عبد الرحمن.

وكان هذا الاستيلاء بسبب سبتة التي مرّد الاسبان حدودها المنصوص عليها إلى داخل البلاد، وأقاموا مركز للحراسة، هناك، ولكن أهالي أنجرة أحرقوا بالحراس فقتلوه، وهدموا مكان الحراسة، فتحركت إسبانيا وطالبت بهم، لتتولى بنفسها إنزال العقوبة عليهم، في سبتة أو البلاد الاسبانية، فأبى المولى عبد الرحمن واستمر على الاباية، ابنه محمد، الذي خلفه بعد موته واستمرت إسبانيا في المطالبة. وقضت في ذلك مقابلات ومكاتبات عديدة، تربو على المائة، أشرنا إليها وإلى ظروف الحادثة، وما كان لها من مضاعفات وملابسات، ونشرنا هذا كله في العدد الأول من مجلة تطوان التي كنا نصدرها. وذلك بمناسبة نشر وثيقة معاصرة للحدث،

وكان نشرها تحت عنوان «وثيقة تاريخية من تطوان» صدر العدد الأول سنة 1956.

لقد زار تطوان جل ملوك الدولة العلوية، واهتم منهم اهتماما زائدا بقضية سبتة، المولى اسماعيل، ثم حفيده محمد الذي اهتم بتخليصها فأتى تطوان لهذه الغاية، لكن أرجأ ذلك، وبدأ بتخليص مليلية، وبعده كما تقدم — كان ابنه اليزيد يأتي إلى تطوان ويشدد الحصار على سبتة ثم جاء المولى<sup>(11)</sup> عبد الرحمن بن هشام ثم حفيده المولى الحسن، ثم حفيده المولى محمد، حاملا بيديه صك التحرير من ربقة الاستعمار، واضعا نصب عينيه رسالة تحرير باقي البلاد، وفيها سبتة — لا محالة — وها هو وارث سره ومحقق رغبته والحامل لرسالة التحرير الشامل، الحسن الثاني، الذي يزور تطوان بعد مضي مائة عام على زيارة الحسن الأول لها. حقق الله فيه آمال البلاد، وجعل تخليص باقيها من قبضة الاستعباد على يديه الكريمتين، بحوله وقوته، وما ذلك عليه بعزيز.

---

(11) انظر في هذا مقالنا بمجلة المعرفة، العدد الخاص بتطوان الصادر سنة 1950.





## الشيخ عبد القادر التَّين القرشي العثماني

ذ. محمد العربي الخطابي

وَهُمْ نُورُ تَطْوَانَ وَعَيْنُ بَهَائِهَا      بِهِم رَاقَتِ الْأَرْجَاءُ فِي كُلِّ وَجْهَةٍ  
أَوْلَئِكَ أَرْبَابُ الْمَعَارِفِ وَاهْدَى      وَأَبْوَابُ فَضْلِ اللَّهِ أَهْلُ الْفَضِيلَةِ  
أحمد الرموني

### مقدمة

لم نزل ونحن أطفال صغار نسمع باسم سيدي عبد القادر التَّين<sup>(1)</sup>، فذكره ما انفكَّ يجري على الألسنة بكثير من التوفير والتبجيل، وهو في عداد الأتقياء الصالحين.

عرفت ضريح هذا الشيخ الجليل وأنا طفل صغير، فقد كنت أسكن على بعد خطوات من «باب العقلة» — أحد الأبواب الملازمة للصور المحيط بالمدينة، وقد سمّاها الأسبانيون بباب الملكة (Puerta de la Reina) — يعنون ملكة اسبانيا — لكن أهل تطوان لم يأبهوا بهذه التسمية الدخيلة، بل بقوا يُطلقون الاسم القديم على هذه المعلمة التاريخية ؛ وضريح الشيخ التَّين قريب من «باب العقلة» ولا يبعد عن «باب الرُّمُوز» كثيراً، وهو أيضاً من أبواب تطوان الأثرية.

فمن هو صاحب هذا الضريح الذي ما يزال اسمه حياً بين الناس ولا تعرف عنه العامة أكثر من كونه ولياً صالحاً يُتبرك بزيارة ضريحه وتقام بعض الطقوس

---

(1) التين لقب لسلف الشيخ عبد القادر كما سنرى بعد، وأما عامة أهل تطوان فينطقونه التبي (بالتاء المثناة والباء المشددة مع حذف النون).

الجاهلية حول عين الماء القريبة منه اعتقاداً من السذج أن الجن يسكنونها، وهذه العين اشتهرت بين السكان بالعوينة.

لقد حافظ لنا التاريخ — من حسن الحظ — معلومات عن بعض أعلام الرجال الذين عاشوا في تطوان قبل أن يعيد بناءها القائد الأندلسي أبي الحسن علي المنظري الغرناطي في أواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، كما أن بعض المصادر الجغرافية والتاريخية تزودنا بأخبار هذه المدينة في عهدها السابق لورود الأندلسيين عليها بقيادة المنظري المذكور<sup>(2)</sup>.

وإذا كنا لا نعرف شيئاً ذا بال عن بعض رجال تطوان في القديم أمثال أبي عبد الله محمد السعيد (أو الصعيدي)، الذي قيل إنه من أهل سبتة، وقيل إنه جاء من صعيد مصر، ولا يُعرف من هو ولا متى دخل تطوان وفي أي عام كانت وفاته<sup>(3)</sup>، مع أن الجامع الذي يحمل اسمه معدود من أشهر معالم المدينة.

فإننا على العكس نجد بين أيدينا معلومات لا بأس بها عن أعلام امتلأ بذكرهم تاريخ تطوان ونخص بالذكر من هؤلاء : عبد القادر «التبين» — الذي نخصه بهذا البحث — وأبا عبد الله الفخار السبتي<sup>(4)</sup>، (المتوفى عام 586 هـ)، وكلاهما من أهل العلم الوافر والجاه العريض والصلاح المشهود به.

وسنقتصر في هذا المقال على التعريف بأول هاذين الرجلين ذكراً بحسب ما أتيح لنا من مصادر ترجع كلها — كما يبدو — إلى منبع واحد هو كتاب «نزهة الأفكار وحلة الأبرار في مناقب الشيخ عبد القادر وشيخه الفخار» تأليف أبي الحسن البياري<sup>(5)</sup>، وهو كتاب لم نظفر بالاطلاع على نسخة منه إذ أنه في حكم

---

(2) جمع أستاذنا المرحوم السيد محمد داود معلومات ضافية عن تطوان العتيقة معتمداً على عدد من المصادر التاريخية كالمسالك والممالك لأبي عبيد البكري، ونزهة المشتاق للادريسي والقرطاس لابن أبي زرع والعبير لابن خلدون (انظر تاريخ تطوان، 1 : 62 — 72).

(3) أحمد بن محمد الرهوني : «عمدة الراوين في تاريخ تطواين» المجلد الخامس، ص 59 (مخطوط الخزانة العامة بتطوان).

(4) انظر عن أبي عبد الله الفخار كتاب التشوف، تحقيق أحمد التوفيق ص 452 — 459 — 464، وانظر الاعلام للعباس بن ابراهيم : 325.

(5) ربما يكون المؤلف هو أبو الحسن علي بن محمد الشاري السبتي الغافقي المتوفى عام 642 هـ، =

المفقود، وقد ورد ذكره في مخطوطة محفوظة بالخزانة الحسنية في القصر الملكي بالرباط، لاعتوان لها<sup>(6)</sup>، ويبدو من أمرها أنها شرح لمنظومة في تراجم بعض الأعلام، وهي لذلك تبدأ كما يلي :

«قوله : وعبد القادر التبين في تطاون غيث الاله سيف مكللا (كذا) ثم يبدأ الشرح بلفظ «أقول» تليه ترجمة الشيخ التبين تستغرق تسع عشرة صفحة، وعدد أسطر كل صفحة تسعة عشر سطرا، وهي ضمن مجموع نسخها محمد بن سعيد السرغيني الشيعي، ولم يذكر فيها تاريخ الفراغ من كتابتها، لكن يظهر أن الناسخ أنجزها عام 1233 هـ، كما يتبين من الكتاب الآخر الذي يضمه المجموع، وخطهما واحد.

وقد قارنا نص هذه المخطوطة مع نص ترجمة الشيخ التبين الواردة في «عمدة الراوين في تاريخ تطاوين»<sup>(7)</sup> من تأليف شيخنا العلامة المؤرخ الوزير أحمد بن محمد الرهوني — رحمه الله — فتبين لنا أن أصلهما واحد ولا يوجد بينهما خلاف يُذكر لا في اللفظ ولا في تسلسل الفصول. وصَدَّرَ العلامة الرهوني هذه الترجمة بقوله : «وقد وقفت على أوراق عند بعض حفدته هنا — أي حفدة الشيخ التبين في تطاون — ننقل منها باختصار ما يأتي»، وختم الترجمة بقوله : «انتهى ما وجدته من التعريف به — رضي الله عنه — في كناش بعض الفضلاء نقلا عن بعض التقايد عند بعض حفدة سيدي عبد العزيز لبنته، والظاهر أنه تأليف كبير في التعريف به وبأمثاله من أهل وقته، رحم الله الجميع».

يتَّضح من هذا الكلام أن كاتب هذه الترجمة المختصرة مجهول وربما كان من أهل القرن السابع، وهو يحيل في بعض المواضع على الكتاب المطوّل المسمى «بنزهة الأفكار وحلّة الأبرار»، وهذا الكتاب هو الذي قال عنه الرهوني «والظاهر أنه

= والبياري — كما ورد في المخطوطة التي سنتحدث عنها بعد — قد يكون من وهم النساخ (انظر ترجمة أبي الحسن الشاري في جذوة الاقتباس ص 308 وفي صلة الصلة ع 300).

(6) مخطوطة الخزانة الحسنية بالقصر الملكي (الرباط) رقم 864 / مجموع.

(7) عمدة الراوين، المجلد الخامس من المخطوطة، ص 110 — 155.

(8) توفي عبد العزيز التبين عام 1192 هـ، ذكره الشيخ الرهوني في عمدة الراوين، المجلد الرابع، ص 498 — 499.



تأليف كبير» ولم يذكر اسمه، وهو — كما قلنا — في حكم المفقود، ولذلك فإننا سنقتصر على مخطوطة الخزانة الحسينية في تحرير ترجمة الشيخ عبد القادر التَّبين من غير أن نتقيّد في الجملة بلفظ كاتبها ولا بترتيبه للفصول<sup>(9)</sup>، ولا بد من التنبيه إلى أن مؤلف هذه الترجمة قد وقع في أوهام أشرنا إلى بعضها.

كنيته واسمه ونسبه :

هو أبو محمد عبد القادر بن محمد التَّبين الأندلسي إقليماً ومنشأً، القرشي نسباً، من نسل عثمان بن عفان رضي الله عنه.

### نزوح سلفه إلى الأندلس

انتقل جده الأعلى أبو عبد الله محمد القرشي العثماني إلى الأندلس سنة 126 هـ في دولة الوليد بن يزيد بن عبد الملك الأموي (125 — 126 هـ/743 — 744 م)، وسبب انتقاله إليها كثرة ظلم بني مروان وبغضهم لآل البيت مع ما ظهر من البدع في زمن الوليد، ففر بدينه ونزل قرطبة فاشترى بها رباعاً واشتغل بالعبادة وتدريس العلم، وهو أول بيت من نسل عثمان بن عفان عمّر بقرطبة.

### كيف لقّب سلفه بالتَّبين

دخل الأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان سنة 133 هـ. بعد تغلب العباسيين بالشرق — وهو أول من ولي أمر الأندلس من بني أمية — فلما استقام له الأمر قصد قرطبة فخرج أهلها للقاءه وكان من بينهم أبو عبد الله محمد العثماني، فلما رآه عبد الرحمن ضمّه إلى صدره وقال له : «أنت والله تبين<sup>(10)</sup> بني عثمان»، فلقّب بالتَّبين (بتخفيف الباء الموحدة)، ومعنى التَّبين في العربية : شديد الفهم. وإنما خاطبه الأمير عبد الرحمن بقوله : «أنت تبين بني عثمان» لكونه هرب من الفتنة أول الأمر وتفرغ لعبادة ربه.

(9) لخص أستاذنا المرحوم محمد داود ترجمة الشيخ التَّبين اعتماداً على النصّ الوارد في عمدة الراوين (انظر تاريخ تطوان 1 : 72 — 75).

(10) التَّبانة في اللغة : الفطنة ودقة النظر في الأمور، من فعل تَبَّنَ (بكسر الباء) يَتَبَّنُ فهو تَبِّنٌ.



## الانتقال إلى غرناطة.

عاش بنو التَّبِين في قرطبة في أطيب عيش وعلوّ جاه وكثرة مال وأولاد، وكان أمراء بني أمية يعظّمونهم ويستشيرونهم، وكان لهم في «فحص البلوط» من جوف قرطبة مآثر حسان من بناء وغرس، وكانت لهم زاوية عظيمة على قبر جدّهم أبي عبد الله.

ولما ولي جعفر بن عبد الرحمن أمر الأندلس بعد وفاة أبيه سنة 306 هـ، وقعت الفتنة بقرطبة فانقل بنو التَّبِين إلى غرناطة بعد أن حَبَسُوا جل عقارهم على الفقراء والمساكين الذين يأوون زاوية جدّهم أبي عبد الله، وتركوا ما بقي من العقار ينتفعون بخراجه.

وكانت دارهم وجلّ عقارهم في ساقية الذهب من غرناطة.

## محمد والد الشيخ عبد القادر

كان والد الشيخ عبد القادر عظيم الجاه في غرناطة<sup>(11)</sup> كثير المال و الولد، وكان له أربعون ولداً من صلبه، وكان إذا خرج إلى الجهاد خرج في مائة رجل أو أكثر من أولاده وأصهاره وأصحابه وأبناء عمومتهم. وكان الشيخ عبد القادر أصغر إخوته سنّاً. وكانت لوالده محمد بغرناطة وقرطبة والجزيرة الخضراء وسبّة أملاك عديدة، وكان رجلاً صالحاً عاكفاً على قراءة العلم نهاراً وعلى العبادة ليلاً.

## انتقال الشيخ عبد القادر إلى سبّة فتطوان

ولما تغلّب الموحدون على الأندلس سنة 540 هـ، جاء عبد القادر إلى أبيه وقال له : «إني أريد أن أنتقل من هذه العدوّة الأندلسية إلى العدوّة المغربية، — وكان يعتري الابن جذبٌ — فقال لأبيه : «إن هذه العدوّة — أي الأندلس —

---

(11) لم يذكر ابن الخطيب في الاحاطة أحداً من بني التبين العثمانيين الذين استوطنوا غرناطة، كما أننا لم نجد ذكراً لأسلافهم في قرطبة بعد أن رجعنا إلى ابن الفرضي والحميدي وابن حيان وابن عذاري وغيرهم ؛ إلا أن ابن بشكوال ذكر رجلاً من نسل عثمان بن عفان هو محمد بن عبد الرحمن القرشي العثماني المتوفى عام 443 هـ (الصلة 2 : 53، عدد 1159).

قد تغيرت مرتين وأصلح حالها ثم إن تغيرت ثالثة فلا أظنها إلا أحيط بها، فإن رأى سيدي الوالد في قولي صلاحاً أعانني عليه فكان الأمر ما رأيت»، فأجابه والده : «الأمر مارأيت، ولا بد لك من ذلك — إن شاء الله — لكن حين يقضي الله لك به يكون لك فيه خير».

وأذن له والده في السفر سنة أربعين وخمسمائة وكتب له كتابا وهب له فيه جميع أملاكه بسبته كي يستعين بدخلها على نفقته ؛ ورافق الشيخ عبد القادر ابنه محمد وابن اخته علي ابن السقا وابن خاله وصهره أحمد الوزير الغساني. فلما بلغوا الجزيرة الخضراء أقاموا بها شهرا، ثم جاز الشيخ عبد القادر البحر إلى سبتة حيث نزل بدار القاضي عبد الله بن عيسى التيمي<sup>(12)</sup>، ثم انتقل مع أهله إلى داره وحاز جميع الأملاك التي وهبها له والده.

ومن لازم الشيخ عبد القادر في سبتة الشيخ أبو عبد الله الفخار، وكان سكان هذه المدينة يُرغَّبون الشيخ عبد القادر في سكنى سبتة والاقامة فيها، وفي بعض الأيام كان مارا بزقاق عياض فقال له بعض الطلبة : هذه دار عياض فقال : منها فررنا، ثم عزم على الخروج من سبتة<sup>(13)</sup>. وثبت عن أبي عبد الله التودي دفين فاس<sup>(14)</sup> بسنده عن الامام أبي عبد الله الفخار عن شيخه عبد القادر لما سئل عن سبب خروجه من الجزيرة قال : «والله ما أخرجني منها إلا ما حصل في يقيني من أن النصاري سيملكونها عن آخرها وتعود دار كفر بعد أن كانت دار إسلام» ثم قال له في أمر سبتة، فقال : «هي راية الكفر».

ونقلت من خط الامام أبي عبد الله الفخار والامام أبي عبد الله الرفاعي الأندلسي راويا بسنده عن أبي عبد الله الفخار والامام أبي عبد الله محمد بن الشيخ عبد القادر التبين : «سئل الشيخ عبد القادر حين نزل بسبتة بعد خروجه من

---

(12) هو محمد بن عيسى بن حسين التيمي قاضي سبتة وفاس، توفي عام 505 هـ (انظر الصلة ع 1327).

(13) ربما يفهم من هذا الكلام أن الشيخ عبد القادر كان في نفسه شيء من القاضي عياض السبتي، وقد كانا رفيقين في الدراسة والأخذ عن بعض شيوخ قرطبة كما سيأتي.

(14) هو أبو عبد الله التاودي المعروف بالخياط، توفي عام 580 هـ (انظر التشوف لابن الزيات، تحقيق أحمد التوفيق، ص 272 — 275).

الجزيرة لما سئل أن يستوطن سبتة فقال : ما منعني من سكنائها إلا كون النصارى سيملكونها، فقليل له : أسيملكونها ؟ فقال : هيه، ويلبثون فيها عدد أدراج الفلك ثم يقع بينهم وبين المسلمين قتال كبير ثم يفتح الله على المسلمين على يد رجل قرشي من أهل البيت اسمه محمد بعد حروبهم قبله مع المسلمين ما يقرب من مائة سنة، فقليل له : ما علامة ذلك ؟ فقال : إذا أقبل الأمير بجيوشه إلى ضريحي وبنى زاويتي كما كانت أول مرة فذلك وقته. ولما دخلت تطوان حين أردت أن أولف هذا التأليف وذكرت هذه الحكاية لسيدي محمد التَّيْنِ أخرج لي كتابا بخط أبي الحسن ابن وزير عن علي بن محمد عن والده الشيخ عبد القادر وأبي عبد الله الفخَّار مثله حرفاً بحرف.

خرج الشيخ عبد القادر من سبتة هو وأبو عبد الله الفخَّار وترك أهله في داره وجعل يطوف في حوز سبتة وينظر أين ينزل بأهله فلما بلغ تطوان وجدها معمورة بالقرى من كل جهة إلا الموضع المسمى عندهم بأنجرميس فإنه لم يسكن فيه أحد، فصعد على حافة فوقه<sup>(15)</sup> فوجد الموضع في غاية الحسن، فكان يرى من الحافة الجهات الأربع، فضرب خبائه فوق الحافة فلما رآه أهل الموضع أسرعوا إليه من كل قرية فلما أقبلوا عليه عرفوا أبا عبد الله الفخار فعظموه وتآذبوا معه وسألوه عن الشيخ عبد القادر فقال : «هذا شيخي جاء يريد أن يجاوركم»، وأخبرهم بقصته ففرحوا بذلك، وقال أهل قرية : «نحن أولى به»، فقال الشيخ عبد القادر : «أنا واحد منكم وليس واحد منكم إلا وله علي حق، ولكن أردت أن أتوسط بينكم ليأتيني كل واحد منكم» فقالوا : «سمعاً وطاعة» فسألهم لمن البلاد، فأحضروا أربابها فاشتري منهم فرسخاً في الطول والعرض، ومبدأه من أعلى الحافة، فكان ثمن ذلك ألف دينار، فدفع لهم البعض وضربوا له أجلا في الباقي، ثم شرع أولاً في بناء المسجد وأرسل له أهل سبتة خمسمائة من ألواح الخشب مصنوعة لسقف المسجد وبابين له... ثم شرع في بناء الدار على رأس الحافة قبالة المسجد، وبعد الفراغ من بنائها أرسل إلى أهله بسبتة فأتوه، فلما سكن واستوطن المكان أقبل عليه الناس وبنوا حوله حتى صارت الزاوية من أكبر القرى، ثم شرع

---

(15) الظاهر أن المكان الذي يشير إليه المؤلف يوجد في الحومة التي مازالت تسمى قاع الحافة وهي مشرفة على مسجد التَّيْنِ الواقع أسفلها.



في بناء السوق تحت المسجد وعرّس الأشجار، وفجّر العيون — وهي خمسة — جمع ماءها وأقام عليه طاحونة له ولأهل القرية، ثم جاءه الخبر بمرض أبيه فاستخلف أبا عبد الله الفخار في المسجد وركب البحر يقصد الأندلس، فلما بلغ الجزيرة الخضراء أخبر بموت أبيه — رحمه الله — فرجع ولم يصل إلى غرناطة وذلك سنة 556.

### شيوخه :

أخذ الشيخ عبد القادر القرآن بالروايات عن ابن عم أبيه عليّ التبين، ثم أخذ في قراءة سائر العلوم عن والده محمد التبين، ومن أشياخه : القاضي أبو الوليد ابن رشد (ت 520 هـ) قرأ عليه المدونة والصحيحين والموطأ وكتب السنن، وقرأ على أبي عبد الله محمد الفخار القرطبي<sup>(16)</sup>، الامام المشهور، كان يحفظ المدونة ونوادير أبي زيد، وكانت له رحلة إلى المشرق، قرأ عليه الشيخ عبد القادر المدونة وغيرها من كتب الفقه وأجازته في الحديث، وقرأ على أبي علي الصدفي (ت 514 هـ) علم الحديث والتاريخ، وأخذ الطريقة والحديث عن القاضي الحافظ أبي عبد الله محمد الأموي السبتي (ت 517 هـ) وقرأ النجو والحساب والفرائض على أبي الحسين ابن أبي الربيع القرشي العثماني الاشبيلي<sup>(17)</sup>، ومن الشيوخ الذين أخذ عنهم أيضا : أبو محمد بن عتاب (ت 520 هـ) وأبو علي الغساني (ت 598 هـ) وكان من رفقاءه في طلب العلم القاضي عياض (ت 544 هـ) وأبو محمد عبد الحق ابن عطية (ت 542 هـ)، وأما تلاميذه فممنهم أبو عبد الله الفخار السبتي (شيخ أبي العباس السبتي دفين مراکش)<sup>(18)</sup>.

(16) يقصد أبا عبد الله محمد بن عمر بن يوسف ابن الفخار القرطبي المتوفى عام 419 هـ. (انظر الصلاة 2 : 51)، وهذا لا يصح للفارق الزمني الذي يفصل بين تاريخ وفاة ابن الفخار ووفاته التبين، وهو 147 سنة، وهذا يقتضي أن يكون الشيخ عبد القادر قد عاش نحو 160 سنة إذا فرضنا أنه بدأ يأخذ عن ابن الفخار الفقه والحديث وعمره 13 سنة.

(17) إذا كان المقصود هو أبو الحسين عبيد الله ابن أبي الربيع القرشي الاشبيلي فهذا أيضا لا يصح، لأن ابن أبي الربيع توفي عام 688 هـ، أي بعد أزيد من مائة وعشرين عاما على وفاة الشيخ التبين.

(18) لم نرد أن ننقل الهوامش بذكر مصادر ترجمة شيوخ التبين، إلا ماوجب التنبيه عليه لبيان =



## وفاته :

توفي الشيخ عبد القادر سنة 566 هـ، وترك ستة أبناء ذكورا أكبرهم محمد وبنتين، وأوصى على بنه أبا عبد الله الفخار.

## أحواله وبعض أقواله

كان الشيخ عبد القادر — حينما رسخت قدماه في الولاية — يفرّ إلى الله ويترك صحبة الناس، فربما كان يُدرس فيُغمى عليه حتى يظن الجالس في حلقته أنه أصابه مرض، ثم يُفيق فإذا سئل عن ذلك، قال : شيء في قلبي، ثم يقوم ويذهب لمنزله، وربما غلبه في بعض الأحيان حتى يجري على لسانه كلام غير مقصود، فإذا أفاق سئل عن ذلك فقال : «إنما هو أمر الاعماء لا يُعبأ به» ومع ذلك كان يتحفظ من أي يُنقل عنه شيء من الأمور المغيبات كما يتحفظ من المحرمات.

## ومن كلامه :

- 1 — من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به.
- 2 — سدت الطرق إلا على المقتفين آثار سيد المرسلين.
- 3 — طريق الصدق مؤيد بالكتاب والسنة، فلو رأيتم من طار في الهواء أو طوي له الثرى أو صار له الماء صلدا حجرا فلا تقتدوا به حتى يمثّل لأمر الله ونهيه.
- 4 — من أحب أن يسمع كلامه إذا تكلم فليس بزاهد.
- 5 — غيبة عدوك أنفع لك من تصنع أهل مودتك، فكلما اغتابك [ذاك] كانت لك حسناته وكلما تصنع له [هؤلاء] وجب عليك مكافأتهم.
- 6 — من طلب صاحباً سالماً بقي وحده دائماً.
- 7 — لا تجالس من فضل نفسه عليك فإنه متكبر، ولا من فضلك على نفسه فإنه لم يدم، وإنما جالس من يراك ونفسه سواء.

= وهم أو إزالة التباس، فإن هؤلاء الشيوخ كلهم من الأعلام المشهورين المذكورين في كتب التراجم كالصلة والتكملة والغنية والجدورة والدياج.

- 8 — لا تصحب من أحبك لغرض منفعة فإنه يعود بالمضرة.
- 9 — من أحب الشهرة بعلم أو عمل أو كرم أو معروف كان فيه بقية من الشرك.
- 10 — من استوطن مقاماً كان له حجاباً.
- 11 — من عُرف بالعلم ثم أثر هواه كان كمن أنصت الناس وهو يلهو.
- 12 — من تواضع لتكبر أذل نفسه من غير علم ورفع نفساً من غير حلم.
- 13 — من صاحب الأشرار فقد أساء الظن بالأخيار، ومن صاحب الأبرار لم يطلع على عيب الأشرار.
- 14 — أفضل الغنيمة غفلة الناس عنك فإن معرفة الناس خسران.
- 15 — أخيار المسلمين هم الذين لا تشغلهم آخرتهم عن الدنيا ولا تشغلهم الدنيا عن الدين.

## آثاره

من مؤلفات الشيخ عبد القادر التبين :

- 1 — حسن التبيين في اختصار الصحيحين، رتبه على مراتب اصطلاح المحدثين فكان يقدم المتواتر ثم المشهور الصحيح ثم الصحيح ثم الحسن إلى تمام اصطلاح المحدثين، وكان صنيعه في كل كتاب من كتب البخاري على ما ذكر إلى تمامه، وأما حديث صحيح مسلم فإن كان موافقاً أشار إليه بالقاف، وإن كان مخالفاً أتى بلفظه بعد حديث البخاري.
- 2 — كتاب قواعد الاسلام.
- 3 — تنقيح الأفكار في معرفة رجال الآثار.
- 4 — منهاج السلوك فيمن حل في الدنيا من الملوك.
- 5 — درة الاخساب فيمن حل بالأندلس من الأنساب.
- 6 — المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى.
- 7 — تعليق على القراءات.

## ما يحكى من كراماته

قد علمنا فيما سبق من كلام الشيخ عبد القادر التبيين وتآليفه وسيرته أنه كان من أهل الدين والخير متمسكاً بالسنة والجماعة عزوفاً عن الدنيا مقبلاً على العبادة، ولهذا فإننا نستبعد ما جاء في ترجمته من أقوال تُنسب إليه الاشتغال بما يسمى بعلم الجفر كما نستبعد ما حكى من كراماته باستثناء ما يقبله العقل من أمور لا تُعدُّ من الخوارق بل تدخل في باب ما ينشأ عن المواظبة على العبادة والدأب على تربية النفس ورياضتها من تفتُّح الحواس وتطهُّر القلب واتِّقاد الحُدى، ومن هذا القبيل ما يُحكى عنه — رحمه الله — «أنه كان لا يرى جالساً إلا مستقبل القبلة فلا يشكل عليه أمرها، وأنه كان يعلم وقت الصلاة في ليل ونهار سواء كان في فضاء أو في بيت مغلق، وقد جربه أهل صناعة الميقات فوجدوه في غاية التحقيق في ذلك من غير أن تكون معه آلة لا في صحو ولا في غيم» فهذا من الأحوال التي لا ينكرها الطبع.

وربما يكون من المفيد أن نثبت حكاية أوردها كاتب الترجمة زاعماً أنها من كرامات الشيخ عبد القادر، وإنما أحببنا ذكرها لكونها تعطينا تفسيراً لأصل ما يعتقده العامة في تطوان إلى يوم الناس هذا من أن عين الماء القرية من ضريحه التي يسمونها بالعينونة يسكنها رهط من الجن يقومون على خدمة زوارها لشفاء بعض الأمراض النفسية.

جاء في ترجمة الشيخ عبد القادر قول المؤلف : «ومن كراماته أيضاً أنه لما شرع في بناء مسجد تطوان كان يجلس خلف المسجد إلى جهة القبلة تحت شجرة من التوت وكان يخرج من تحتها ماء، وحفر بيده المباركة وحصره بحجارة فقَوِيَ الماء وصار عينا من جملة العيون، فكان يتوضأ منها في وقت الصلاة، فلما كان في بعض الأيام يتوضأ فيها إذ أقبلت عليه ملوك الجان السبعة فسلموا عليه وطلبوا منه خدمتهم إياه، فقال لهم : ليس لي بذلك حاجة، فلما أَلْحُوا عليه قال لهم : إن أردتم فعل الخير فهذه العين كل من أخذ من مائها وكان به ضرب من الجن برى منه ولا يعود إليه ذلك، فعاهدوه على ذلك وانصرفوا فهي باقية على حالها إلى الآن».

وقد استنكر شيخنا العلامة المرحوم أحمد الرهوني ما يعتقده العوام بشأن هذه «العوينة» وعدّ ذلك من الجهل ونصح بنهي الناس عن زيارة تلك العوينة وصرفهم عنها سداً للذريعة وحفظاً للشرعية<sup>(19)</sup>، وهذا يؤكد أن الحكاية التي نقلناها عن مؤلف الترجمة ليست إلا من قبيل الأساطير، على أننا لا نستبعد أن تكون العين المذكورة مما استنبطه الشيخ التبين وقت سكناه بتطوان للانتفاع بمائها في الشرب والغسل، رحمه الله وأعذق عليه المغفرة والثواب.

### خاتمة :

وبعد فهذه معلومات وافية عن سيرة أحد رجال تطوان في القرن السادس الهجري كما وردت في مخطوطة الخزانة الحسنية وفي «عمدة الراوين» رتبناها وحذفنا منها أشياء لا فائدة من ذكرها كالفصل الذي يعدد كرامات الشيخ. وقد نهينا إلى ما وقع فيه مؤلف المخطوطة من وهم كما حاولنا توثيق المعلومات بما يؤيدها في كتب التاريخ والتراجم والطبقات الأندلسية والمغربية، فلم نعثر في الغالب على مطلبنا، كما أننا لم نهتد إلى ما يدل على وجود نسخة من كتاب «نزهة الأفكار...» الذي يبدو أن مؤلف المخطوطة التي اعتمدناها قد استقى منه كثيراً من معلوماته، فلو أننا ظفرنا بنسخة من هذا الكتاب وثبت أن مؤلفه هو أبو الحسن الشاري الغافقي — كما مال بنا الظن — لازدنا ثقة بالمعلومات الواردة في مخطوطة الخزانة الحسنية، لأن أبا الحسن الشاري كان — رحمه الله — من أهل العلم والضبط والصدق، وكانت له بسببته خزانة كتب يعزّز نظيرها فضلاً عن أنه كان قريب العهد بوفاة الشيخين عبد القادر وأبي عبد الله الفخّار.

وقبل الختام أشير إلى أن السلطان مولاي يزيد بن سيدي محمد ابن عبد الله العلوي هو الذي أمر ببناء القبة المشيدة على مسجد الشيخ التبين، وذلك أثناء مقامه بتطوان في حدود عام 1204 هـ، وكان قصده — كما قال شيخنا الرهوني — «التفاؤل بمحصول البشارة التي بشر بها صاحب الترجمة»<sup>(20)</sup>، أي تحرير سببته وتخليصها من يد النصاري.

(19) عمدة الراوين، المجلد الخامس، ص 157 — 158.

(20) عمدة الراوين، المجلد الخامس، ص 156.



## تطوان، كما وجدها الأركون : بيضاء، بيضاء

ذ. محمد العربي المساري

تطوان ما كنت إلا بين البلاد حمامه  
أو خطيب تردى، من بعد لبس العمامه  
بل كنت روضا بهيجا زهرك أبدى ابتسامه  
أو كمحيا عروس، علاه في الخلد شامه

المفضل أفيال

بعد عام من الاحتلال

ألف الشاعر بيدرو أنطونيو دي ألكون، كتابا يتضمن مشاهداته وهو يرافق الجيش الإسباني الذي احتل تطوان في 1860. وسأكرس هذا الفصل عن وصفه للمدينة من الناحية العمرانية، وللحياة الاجتماعية فيها. ويحمل الكتاب عنوان «يوميات شاهد على حرب أفريقيا». والطبعة التي أعتمدها، تحمل عنوان «صفحات شاهد على حرب أفريقيا»<sup>(1)</sup> وقد حقق هذا الكتاب، في حينه نجاحا شعبيا كبيرا. وقد كتب ألكون بنفسه في «الأعمال الكاملة»<sup>(2)</sup> أن الروح الوطنية التي يصطبغ بها الموضوع، «تجاوزت كل اعتبار أدبي أو فني». وهو كتاب يقول ألكون — محفوف بالصعوبات إذ كتب بطريقة مرتجلة، تارة في الهواء الطلق، وتارة في خيمة المعسكر. ومن إمارات النجاح الذي لقيه الكتاب أن الطبعة الأولى منه صدرت في 50.000 نسخة، ووصل سعر النسخة إلى 50 ريالا. وذكر أنه أحرق 20.000 رسالة إعجاب توصل بها، لأنه عسر عليه أن يحمل معه

Paginas de un testigo de la guerra de Africa, Editoriales Andaluzas Unidas, Sevilla - 1985 (1)

Obras Completas. Aguilar 1974 (2)

صندوقين ثقلين كانا يضمنان تلك الرسائل. وقد رافق بيدرو أنطونيو دي ألكون، الجيش الأسباني المجهز للحملة على تطوان منذ الاقلاع من مالقة (11-12-1859) حتى فشل مفاوضات الصلح الأولى بين مولاي العباس والجنرال أوضونيل (28-3-1860). وكتب عن مراحل تجميع القوات ثم عن مختلف المعارك حتى الاشراف على تطوان من مرتيل (17-1-1860) ثم دخول تطوان بعد استسلامها (6-2-1860) كما كتب عن المفاوضات التي جرت قصد إجراء الصلح، ودَوّن مشاهداته في المدينة حتى مغادرتها.

وستترك جانبا وصفه للمعارك من يوم 23-12-1859 إلى 4-2-1860 أي الجزء الأول بكامله وستترك الفصل الأول من الجزء الثاني الذي يتحدث عن معركة تطوان بالذات، وسنركز على وصفه لمدينة تطوان التي تطلّع إليها بشوق، لنتعرف على أحوال المدينة كما وجدها وكما عاشت في ظل الاحتلال.

وليس كتاب ألكون إلا أشهر المصادر التي تحدثت عن تلك الحرب، بحكم أن صاحبها أديب. وهناك كتابات كثيرة غير «صفحات» ألكون. منها الفصول التي تحتل ما بين ص 187 وص 329 من كتاب تاريخ حملات المغرب<sup>(3)</sup>. وهذا المصدر يذكر بدوره كتباً أخرى منها: التاريخ النقدي لحرب افريقيا 59-1860<sup>(4)</sup> و«الحرب الأسبانية المغربية 59-1860»<sup>(5)</sup> و«الحرب الأسبانية المغربية 59-1860»<sup>(6)</sup> و«هوامش على تاريخ المغرب»<sup>(7)</sup>.

ونعرف من سرد دي ألكون للأحداث، أنه طالما شغف بالتعرف على المغرب. ويروى أنه كان قد فكر في زيارة المغرب أربع سنوات قبل أن يلتحق بركب الجيش الزاحف «لغزو افريقيا».

(3) Historia de las Campanas de Marruecos. نشرته هيئة أركان حرب الجيش الأسباني في 1947 بمadrid.

(4) Historia Critica de la guerra de Africa كتبه بالفرنسية A.Joly وترجمه إلى الأسبانية A.Huici.

(5) Der Spanish - Marokkanisches Krieg in den Jahren 1859 und 1860 كتبه Eduardo Schlagintweit.

(6) Gerra Hispano Marroqui. Estudio Critico نشره الجنرال Martin Arrue.

(7) Apuntes para la Historia de Marruecos كتبه كانوفاس ديل كاستيو.

وقد جعل بيدرو دي ألاكون كتابه، على هيئة مذكرات، تتضمن ارتساماته وتجاربه يوما بيوم تقريبا. وكتب عن الأيام والليالي التي عاشها في تطوان مذكرات تمتد من يوم 6 فبراير 1860 إلى يوم 22 مارس، أي 45 يوما عاشها بكثافة، ملاحقا الأحداث، مسجلا ارتساماته عن الأشياء والناس.

وعلى هذه الفترة سنركز ما نقله من أخبار وأوصاف وآراء دونها المؤلف عن معاشته لتجربة، كان موطنها النفس على أن يسجلها بخدافيرها. وقبل أن يدخل إلى تطوان، في ركاب الجيش الغازي، كان شديد التطلع، يلهب خياله ما قرأه عن الشرق والإسلام في فترة مليئة بالرومانسية. ويصرح مرارا بأنه اقتحم التجربة مزودا بقراءاته عن سحر الشرق وخاصة للشاعر بايرون الذي يذكره في عدة مقاطع.

وقد كتب ألاكون عن مشاهدته الأولى لتطوان قطعة لطيفة سننقلها فيما يلي، وهي تسجل افتتاحه بالمدينة.

«حتى هذه الساعة، تزودت بالصبر، ولم أنظر، ولو مرة واحدة، جهة الغرب، وذلك لكي أرى تطوان، في نظرة واحدة، مكشوفة بكاملها، في أتم بهائها. وها هو الوقت قد حل ! أستدير لتوي، وتظهر أمام بصري، المدينة بكاملها، على بعد فرسخ ونصف.

ها هي ذي هناك ! الآن لا تحجبها الجبال، ولا الضباب... ها هي ذي هناك، بلا حجاب، بأتمها، عارية فاجأتها وهي مستغرقة في حلمها !

إني لم أشاهد قط، ولا أظن أنه توجد في العالم، مدينة زاهية، لها موقع فني مثل تطوان، وذات مظهر شديد الاغراء. يمكنني القول، انها موزعة، على ربوتين خضراوين، تنحدران على مهل، وهي تجمع فيما بينهما وتربطهما بمشبك منحوت من الفضة البراقة. ليس هناك أنقى من الخطوط التي تشعها أبراجها في السماء خلال المساء ! ليس هناك ما هو أشد بياضا من منازلها التي تعلوها السطوح، ولا أبيض من أسوارها، ولا من قصبته ! تبدو وكأنها مدينة من عاج ! فلا ظل، ولا لطخة، ولا حبرا غامقا يقطع نقاوة ضياعها المتلاحقة. من هنا تُرى المدينة بطيفها المنتصب في الأفق، راسما خطا طويلا ورقيقا، يتلوى على تضاريس الأرض.



وهذا التلوي، نحيف وظريف، حتى يمكن أن يقارن بشال أبيض مرمي كما اتفق على جبل من الزمرد.

وأنا أمضي في وصفي، ستجدون المدينة الأثيرة، شاعرية، وأنتم تتخيلونها في أعلى السهل ! تحميها سلسلة مبعثرة من الصخور، وتشرف عليها القصب، ويجللها منار مرتفع وأنيق، يبرز من بين منارات أخرى كثيرة، كما يبرز السرو من بين الصفصاف؛ وتدرج في أفقها ألف ضيعة بهية، وكأنها ترنو إلى المدينة تُبايعها. تضيئها بكثافة، شمس آتلة للغروب تقبع خلفها، ويزنر صدغها أكليل وردي الوهج ؛ صامته منسية، لما تزال نائمة في غياهب القرون، مرفوعة على رأسها راية النبي محمد البيضاء، كما كان الحال منذ أربعمائة سنة في غرناطة، وكما سيستمر الحال لمدة طويلة، في مدينة فاس المنيعه، تلك البنت الأثيرة عند النبي محمد... وأسفل تطوان، كان يرى المعسكر المعادي، كأنه سرب حمام، حط على أفنان الشجر الأخضر في الضيعات. هناك استقر الأمر بذلك الجيش نهائيا، بعد أن نقل معسكره عدة مرات، أمام زحفنا...

وحينما سيجد نفسه مُجبرًا من جديد على أن يخلق، ستكون تطوان قد سقطت في أيدينا».

\* \* \*

جاء هذا المقطع في المذكرة التي كتبها عن يوم 17 يناير 1860 حينما وصل الجيش الاسباني بعد معارك دامت أسبوعين، لم تعرف فيها قوات أوضونوي إلا التقدم نحو الجنوب من سبتة بمحاذاة الساحل. ويعقب الناصري في الاستقصا بقوله : كان العدو في تنقلاته لا يفارق الساحل ليحمي ظهره بمراكبه البحرية. كان ألاكون قد وصل مع مقدمة القوات إلى وادي مرتيل. وكتب عن وصوله إلى هناك ما يلي :

«بعد التخلي مدة طويلة في المدينة والسهل، قمت بجولة، وقلمي بيدي، حوالي حصن مرتيل، متطلعا بدقة إلى كل الأماكن، والأشياء التي تثير فضولي. سعدت أولا إلى البرج، الذي طالما تردد اسمه في الشهرين الماضيين...



وحصن مرتيل، قُلَيْعة ذات ملامح دقيقة، مبني بمتانة، واختير موقعه لكي يؤمن الدفاع عن مصب النهر. ليس له باب، ويُصعد إليه بسلم قصبي معلق في نافذة ضيقة تؤدي إلى ما يمكن أن نعتبره طابقا ثانيا. هناك سبع قطع مدفعية، قديمة وشاذة، لا تشبه هياكلها مدافع أوربا. وبرميلا بارود، وبرميل زيت، وعدة صناديق ذخيرة، وعدة خراطيس للمدفعية، كل هذا يملأ الحجرات الضيقة للحصن. وفي كل مكان ترى آثار القصف الذي استهدف له المكان مؤخرا. انقراض وشظايا، قتابل وقذائف من عيار كبير، ومواد فضلت من العمليات الأخيرة، وكثير من ورق الأكياس محروق، يكسو البلاط حوالي هذا الحصن الحزين، الذي كم شكّل قراصنة تطوان المهيبون من شرفته، تهديدا للأبيض المتوسط...

وجدت أيضا قاربا في طور التركيب، راقدا في الرمل المحاذي للنهر، وذكرني بآلاف وآلاف القرصات التي قرأت عنها في التاريخ وفي الجرائد. المركب المغربي لم ينتصف تركيبه بعد، غير أن مظهره ينم عن الرشاقة والقوة التي يتميز بها فرخ النسر الذي لم يغط بعد بالريش.

وبالقرب من حصن مرتيل هناك مبنى آخر، سبق أن لحناه من بعد. وهو مخزن على ما قيل لنا أول أمس صباحا. أوري بشكله وبالمواد التي استعملت في بنائه. البناء، والنجارة، والحدادة، التي صنعت هنا الأبواب، والجدران، والنوافذ، والسقوف، والبلاط، تشبه في كل شيء ما في الأندلس العليا. وداخل هذا المخزن، وجدت، اثنتي عشر خيمة مخروطية الشكل، بزخارف زرقاء، وكذلك كمية من الحطب.

أما نهر مرتيل، أو الواد الحلو، فلنيس له شيء خاص أحكي لكم عنه، فليست به تضاريس تميزه أو تجعله جميلا. انه واسع جدا في مصبه، يجري بسكون فيما بين ضفتين ناعميتين منخفضتين، لا تكسوهما أشجار، ولا أحراج، ولا تنم عنه نائمة ولو خفيفة، وهو يغادر الأرض التي ولد منها».

\*\*\*

يقول بيدرو دي ألاكرون عن نفسه انه «شاعر وجندي، معجب بالمغاربة وعدو لهم» ص 24 ج 2. ولا يفتر عن ذكر افتتانه بالشرق، في مواضيع عديدة،

شأن معاصريه من الشعراء والروائيين<sup>(8)</sup>. وتنم عنه مبالغات في التعبير أحيانا، إذ تارة يتحدث الشاعر المعجب، وتارة يتحدث الجندي المعادي، وبصفة عامة لا يخفي ألا تكون نزعة الوطنية وهو يسرد الأعمال العسكرية للجيش الزاحف، أو يحشر عبارة تحقير للعدو وهو يصف ما يراه. ومن جهة أخرى لا تخلو أوصافه من انعدام الدقة وأحيانا من التناقض. فهو يصف تطوان الراقدة في حلمها تجلله «راية محمد البيضاء». ثم حينما يشير إلى الراية التي رآها مرفوعة فوق القصبه يذكر أنها «خضراء» ص 33 ج 2. وعند الناصري في الاستقصاء أن أحد أبطال المعركة، المعروف بأبي ريالة، «كان معلما براية صفراء». ولا نعرف نتيجة لهذا الخلط، وبحكم تعدد ألوان الأعلام عادة، أي لون كان للعلم الرسمي. وفي ص 41 ج 2، يذكر ألا تكون في معرض الكلام عن تكشف حياة المغاربة أن الواحد منهم يكتفي لأكله بشيء من الذرة المسحوقة، بينما تحدث في ص 24 ج 2 عن كميات كبيرة من الأكل وجدها الأسبان في المعسكر الذي أخلاه مولاى العباس بعد أن اشتد عليه الضغط يوم 4 فبراير 1860. ويصف ما وُجد في الثمائمات خيمة التي استولى عليها الأسبان بأنه «غنيمة مجيدة»! إذ كانت تلك الخيمات مكتظة بالمؤونة، ويصف المواد الغذائية التي وجدوها، ويذكر البرتقال والحلويات والدقيق، والشعير والتمور، وغير ذلك. وفي ص 45 ج 2 يتأفق مما وجده في المدينة قائلا «يا لهذا العالم! عالم غير متحضر! انه عالم الإسلام!» وهذا يختلف تماما عما أطلقه من أوصاف كلها تعبير عن إعجابه الكبير بالشرق، وتعلقه بالمغرب، وعجائبه ورقيه. إذن لن نركن إلا بقدر، إلى ما يأتي ذكره من تفاصيل. ولكن وصفه لمظاهر الحياة وارتساماته عن الأشياء والناس، في تطوان سنة 1860، يقدم لنا شهادة حية، تعتبر ضوءا كاشفا عن جوانب، عادة ما نجدتها تثير حساسية الملاحظ الأجنبي. وغرضنا هنا هو استقصاء المعلومات التي تتضمنها كتابات ألا تكون عن الحياة في تطوان في الوقت الذي زارها.

\*\*\*

(8) انظر عبد الله جيلو Diwan Modernista. Una vision de Oriente / Taurus. Madrid 1986 ويحلل المؤلف في مقدمة مركزة نظرة إحصيين من كتاب الاسبانية للشرق.

يورد أَلَاركون كلاماً عن الأجواء التي سبقت دخول الجيش الفاتح إلى المدينة بما يتفق عموماً، مع ما نعرفه من مصادر متواترة، منها على الخصوص «الاستقصاء»، الذي يروي أحداث حرب تطوان عن القائد الجراري الذي كلفه محمد الرابع بمهمة في المنطقة أثناء حرب تطوان.

يذكر الناصري أن مولاي العباس حين تقهقر بجيشه ونزل خلف تطاوين واستقر بالخلعة، خرج إليه أهل المدينة واستأذنوا في حمل أثاثهم وامتعهم وحریمهم إلى مداشر الجبل فأذن لهم. وكان أن امتدت أيدي الغوغاء إلى النهب وخلع الناس جلباب الحياء، وانهار من كان هنالك من أهل الجبل والأعراب والأوباش ينقبون ويكسرون أبواب الدور والخوانيت، والداخل إلى المدينة أكثر من الخارج منها. وفي الصباح التالي، انتقل الناهبون من نهب الأمتعة إلى المقاتلة عليها، فهلك داخل المدينة نحو العشرين نفساً<sup>(9)</sup> وعظمت الفتنة، وتخوف من بقي بتطاوين عاجزاً عن الفرار، فاجتمع جماعة منهم على الحاج أحمد بن علي آيبر، أصله من طنجة وسكن تطاوين. وتشاوروا فيما نزل بهم، فأجمع رأيهم على أن يكتبوا كتاباً إلى كبير محلة العدو أوضوني يطلبون منه أن يقدم عليهم لتحسم مادة الفتنة التي هم فيها. ص 90 و 91 و 92 من ج 9 الاستقصاء<sup>(10)</sup>.

\*\*\*

من جانب أَلَاركون، نجده يذكر أنه في فجر 5 فبراير 1860، قرّر عزّم أوضوني على اقتحام المدينة، فكتب رسالة إلى «حاكم تطوان» يطلب منه الاستسلام، ووجهها مع وفد، رافقه أَلَاركون عن بعد، ثم اختلط مع الوفد حينما وقع لقاء مع وفد آخر كان آتياً من جهة المدينة. وكان حاضراً أيضاً رسام فرنسي هو Iriarte. ونعلم من أَلَاركون أنه كان في ركاب الحملة صحفيون أجانب منهم صحفي فرنسي يذكره فيما بعد اسمه Chevarrier (ص 134 ج 2) ومراسل صحيفة Epoca وهو كارلوس رودريغواي نافارو، ومراسل صحيفة La Iberica، وهو غاسبار نونييث دي أرثي (الذي ألف كتاباً بدوره عن الحملة).

(9) يذكر أَلَاركون أنه بعد هذه الأحداث المريعة دفنت 70 جثة.

(10) كتب الناصري في الاستقصاء 19 صفحة عن حرب تطوان.



يذكر أأركون أن الوفد القادم من جهة تطوان، كان يحمل بدوره مكتوبا. فآثر الوفد الاسباني أن يضم أمر مكتوب أوضوني، ويتقبل مكتوب أهل تطوان، الذي حمله خمسة أشخاص، أربعة منهم كانوا راجلين والخامس يسوق بغلة دون أن يركبها. كان يتقدم الراجلين رجل يرتدي حائكا أبيض. وخلفه ثلاثة سجل أأركون أن أحدهم كان يرتدي لباسا جزائريا والآخريين كانا من العسكر. صاحب البغلة كان يرتدي سروالا واسعا أزرق، وجوارب بيضاء أوربية، وينتعل بغلة صفراء، وله جبة سوداء مطروزة بالحرير، وقفطانا فضفاضاً قماشه من لون القهوة وعمة كبيرة بيضاء، مثل الحزام الذي يلف وسطه. واسمه «الحاج بن أحمد» وكتب أأركون هكذا Hach Ben Amet. ويصفه بأنه كان قنصلا للنمسا. «وهو رجل سافر كثيرا ويتحدث شيئا من الاسبانية وكان يرافقه ابنه وهو طفل تأخر قليلا عن الركب، ثم التحق بالمجموعة حينما لمس أن الأمر سلام».

ولاحظ أأركون، انه من بين الجماعة، يستحق الذكر، صاحب اللباس الجزائري<sup>(11)</sup>. ويذكر أأركون أن اللباس الجزائري هو المعروف في اسبانيا أنثذ كلباس للمسلمين. وهو يتركب من سروال فضفاض لونه حار، وبرنس متموج، وصدرية بهية، وحزام فخم، وكل اللباس مطروز. وصاحب اللباس الجزائري كبير في السن، «يتحدث الاسبانية باتقان كبير. واشتبه في أنه أندلسي مرتد عن المسيحية أو يخفي مسيحيته».

ومما قاله قنصل النمسا (الحاج أحمد، ولعله أبعير الذي ذكره الناصري) أن مولاي العباس، عبر المدينة في اليوم السابق، وأمر بإخلائها، لكي لا يجد فيها النصارى شيئا. وبعد أن خاطب الأمير الناس بذلك في وسط ساحة المدينة، حمل المال، والجواهر على ثلاثين بغلة، وأخذ معه المسجونين ومنهم سياسيون لكي لا يفلتوا من العقوبة. وقد لحقت كثير من العائلات بركب الأمير وخاصة النساء،

(11) على عهد مولاي عبد الرحمن كان في تطوان مهاجرون جزائريون. وأورد الأستاذ داود في المجلد الثامن من تاريخ تطوان 31 رسالة مخزنة تتحدث عن أوضاع هؤلاء المهاجرين وعن توصية الملك بالإحسان إليهم وبإسقاط الخدمة العسكرية عنهم، وتقديم إسعافات مالية للمعوزين منهم. وقد فصلت ذلك في مقال شغل صفحتين من ملحق العلم الثقافي بتاريخ 1980/1/11.



والأغنياء. ومن جراء ذلك امتلأ طريق طنجة بقوافل من الجمال والخيل والبغال والحمير محملة بالأثاث واللباس والمواد الغذائية. وقد وجد الناهبون فرصتهم واتجهوا إلى الملاح حيث وجدوا العوض ثميناً.

ومما قاله هذا المتحدث أن السكان مطمئنون إلى أن جيش أوضوني لن يحرق ولن يقتل العزلاء، ولن يهين النساء، ولكن سكان المداشر يريدون الحرب ولهذا فسكان المدينة بين نارين.

ومما ذكره الناصري أنه فيما خلا تدنيس بعض الأماكن، مثل استعمال زاوية سيدي عبد الله البقال، كنيسة، ومسجد الباشا مخزناً للأرز والشعير، ومسجد القصبة مخزناً للكليط، فإن كبير النصارى، سار في المسلمين بالتوقيير والاحترام ولم يسمهم خسفاً ولا كلفهم شغلاً ولا اقتضى منهم مغرمًا. إلا أن الحال تغير بعد وقعة بوسمالل يوم 1860/2/27.



وذكر ألاكرون أنه عند الزوال (يوم 1860/2/5) زار معسكر الاسبان أربعة أفراد منهم اثنان جزائريان، ولم يكن هؤلاء مكلفين بمهمة، ولكنهم ألحوا في سرعة احتلال الجيش المدينة التي كانت تسودها حالة مأساوية. والناصري نفسه يذكر : «فرجعوا (أي مبعوثو السكان إلى أوضوني) إلى أهلهم وأعلموهم بمقالة العدو (أي أنه يؤخر الدخول إلى بعد يومين)، والحال ما حال، والقتال لازال، وأبواب الحوانيت تكسر والدور تخرب، والقوي يأكل الضعيف».

وكان أحد الأربعة اسباني الأصل، أسلم في المغرب حيث أقام 20 سنة. ويدعى روبليس. وكان ساعاتيا في قاديس. ويقول ألاكرون عن هذه الفئة من الاسبانيين الذين أسلموا أن وجودهم يفاجئهم. ويشعر بالواحد منهم أنه «يتكلم الاسبانية ويخجل كما لو كان يحس بأنه يدنس لغة الأجداد».



رأينا كيف تطلع ألاكرون إلى تطوان، من مرتيل. فكيف كان شعوره وهو يطاء أرضها، ويتجول في أعماقها؟ أول مشاعره وهو يدخل المدينة، شعور بالارتياح وهو يوجد بعد مدة طويلة، في مدينة يظله سقفها بعد أن قضى أسابيع

مرتحلا مع ركب الجيش من معسكر في العراق إلى آخر مثله. وحينما وجد نفسه في أعماق المدينة، سمع صديقه الرسام إيريارتي يهتف به : خذ قلمك وسجل ! فأجابه ألاكون : خذ ريشتك وارسم !

وفي ص 33 ج 2 كتب ما يلي :

«اكتشفنا في نهاية الأمر تطوان. من على أسوارها تظهر رؤوس تزيينها عمائم بيضاء، رأيناها تختفي كلما ازداد اقترابنا. كما رأينا مدافع، والراية النبوية الخضراء في القصبة، وأقواس أبواب المدينة، والألوان التي تزرکش المنارات، والابر التي تتوجهها، والأسطح البيضاء، التي تؤدي إلى أبواب ضيقة ومنخفضة، وآلاف التفاصيل لعمران شرقي أصيل، الناطق بالذوق العربي. آه ! يبدو الأمر وكأنه حلم.

ويا للصمت ! يا للهدوء السائد ! يا لهذا الصباح الساكن ! الورود وحدها في الأشجار المثمرة، والعصافير، هي التي تتكلم، منبئة بمقدم الربيع الذي يسكن البقاع. الجو معبق بروائح منعشة، والشمس تزين بملامستها اللطيفة الصخور والمياه وأفنان الشجر والمراعي والأبنية والجبال».

كان ألاكون ممن دخلوا المدينة من جهة باب المقابر. فيصف — وهنا يتوقف مع ما يرويه الناصري — انه حين وصل الجيش الغازي إلى الباب، لم يوجد المفتاح عند السكان، ففتح الباب عنوة، كان هو ممن انتشروا في المقبرة، وصعد إلى ربوتها يتسلق القبور، وسجل استحياءه من دوس القبور، وحرص على أن يذكر بأن رفات من هناك، هم أبناء وأحفاد أولئك الذي جاءوا من غرناطة ليموتوا في هذه البلاد وفيهم المحارب والقديس ولم يخطر ببالهم قط أنه سيأتي يوم يطرق هذه التربة أناس يحملون الصليب والسيوف التي تعبت من الانتصارات. ويذكر ألاكون أنه من أعلى ربوة المقبرة، بدت تطوان بكاملها في متناول البصر. وكأنها بأسطحها المتلاصقة، بناية واحدة. أو هي ذات سطح كبير ينقسم إلى مربعات صغيرة. وهذا السطح أو الألف سطح، مضمخ بالجير، مما يكسب لونها بياضا لامعا، حتى أنه ليؤذي العين، ويجعل تطوان وكأنها مكسوة بصفيحة من الفضة. ولا يكسر رتابة الأفق إلا الصوامع. والمجموع كأنه جبج نخل بلا نوافذ وتتميز صومعة الجامع الأعظم بأنها أكثر فخامة من غيرها. وتذكر بخير الدة اشبيلية.

ولا يفوت ألا تكون أن يسجل مشاعر سكان المدينة. ويبرز بوضوح في وصفه أن اليهود، وعددهم إذاك يتراوح ما بين 7 و 10 آلاف<sup>(12)</sup>، استقبلوا الجيش الفاتح بترحاب كبير مشفوع بالشكوى من النهب الذي تعرضوا له. وينقل عن احتك بهم أن هؤلاء تشفوا في المسلمين لهزيمتهم وحرصوا على أن يبينوا أن أصلهم اسباني، ولسانهم اسباني يدل ذلك على أنهم ممن طردوا من شبه الجزيرة الاسبانية<sup>(13)</sup>.

أما المسلمون فباستثناء الطريقة في الكلام التي تبدو على من كلفوا بدعوة الجيش للإسراع باحتلال المدينة، فإن المشاعر التي كانت تسودهم هي مشاعر الأسى. ولا يتوان ألا تكون عن التعبير عن تأثره لحال هؤلاء. ويقول في ص 61 ج 2 :

«انهم قد هُزموا، ويعرفون أننا ونحن منتصرون تصرفنا بكرم، فقد وعدنا بأن نحترم ديانتهم، وعاداتهم، ونساءهم، وممتلكاتهم... غير أنهم يفضلون كل المشاق ويقبلون الحرمان والبؤس، على الاهانة المتمثلة في تقبل الهزيمة والاستسلام. وهذه البطولة قديمة، وتقليدية، جذيرة بروما العتيقة، وبإسبارطا الخالدة. إن رفض الانتصارات التي تحصل بالقوة، ينم عن فضيلة كبيرة، لا توجد إلا أمثلة نادرة لها. فهم يرغبون في امتلاك معدنهم الأصيل، ويلوذون بعقيدتهم، وبعاداتهم البسيطة».

---

(12) Sarah Leibovici : Cronique des Juifs de Tetouan / Editions Maisonneuve & Laros Paris 1984

(13) الملاح الذي عرفه ألاكون، هو الملاح الجديد. الواقع عند باب الطرافين. وذكرت سارة ليبوفيتش أنه تم نقل يهود تطوان إلى ذلك الموقع حينما قرعزم مولاي سليمان على توسيع مسجد، فأعطى اليهود ساحة واسعة قرب مقر قائد المدينة. ونقلت سارة عن نائب قنصل فرنسا في تطوان مناحم ناهون ان عدد اليهود في تطوان وصل في 1860 إلى حوالي 10.000، بينما ذكر خوان باوطيسطا فيلار في بحثه «ملاح تطوان» أن عددهم كان 7000. ومما ذكرته سارة ان كثيرا من يهود تطوان توجهوا إلى جبل طارق حينما ارتفع نفير الحرب. وقدر ناهون عدد هؤلاء بـ 4000. وبررت المؤلفة هذا المسلك بأن اليهود اعتبروا ان الحرب لا تعنيهم خاصة وأنه كان ممنوعا عليهم استعمال السلاح. وفي صلاة عيد «يوم كيبور» الذي حل في ظل احتلال اسبانيا لتطوان، تليت صلاة تضمنت كالمعتاد دعاء «لأمراء الوقت» وهم الملكة ايسابيل الثانية، وألفونسو، وسيدي محمد (أي محمد الرابع).



ثم يمضي واصفاً أول شارع اخترقه الجيش، فيقول أنه شارع طويل، فارغ وهادئ. ومن المظهر استنتج ألاركون أنه شارع تجاري. كانت جنباته مملوءة بصناديق مبعثرة وأثاث محطم وزجاج مكسر، دلالة على آثار النهب الذي حصل هناك.

ويسجل أن المنازل المغربية ليست لها نوافذ ولا شرفات، وحينما توجد النوافذ فإنها ضيقة، يغطيها العنكبوت، ويسجل أن المغاربة لا يحفلون كثيراً بواجهة مبانيهم لأن المغربي يعيش حياته الخاصة في داخل أسوار منزله. ولاحظ أن كل الأبواب كانت مقفلة. ولم يوجد أحد في الشوارع. ولدى عبور الجيش لأحد الشوارع رأوا مغرباً مسناً ذا لحية بيضاء طويلة وعلى رأسه عمامة جلييلة، يلف جسمه بجايك من صوف، «كان قابعا عند دكانه الذي ظهر ان بابه مخلوع ودولابه مكسور مرمي في الأرض. كان الرجل المسن يشبك يديه عند ركبته وعيناه مركزتان على الأرض. وكأنه يتأمل في ما حل به من كوارث. ولم تحمله الجلبة التي أحدثها مرورنا على أن يرفع نظره لرؤيتنا، ولا حتى على جمع رجليه تلافياً لدوسه من قبل خيولنا. تأثرنا كثيراً لمنظره، ولكنه ظل ثابتاً لا حراك به وغير آبه».

وفي الشارع الموالي بدأ يظهر اليهود وكانت نساؤهم تصعدن الزفرات ويتقدمن نحو الفرسان لتقبيل أرجلهم. ولم يفت ألاركون عن التعبير عن تقززه من ذلك ووصف مخاطبة اليهود للجنود بالاسبانية بأنها مسألة مدروسة. ويأتي بعد ذلك في عدة صفحات بوصف لما حل باليهود من اعتداءات الناهيين في الليلتين السابقتين<sup>(14)</sup>.

وفهم من الوصف أن موكب أوضوني الذي دخل من باب المقابر، سار حتى الموقع المعروف بساحة الفدان، والتي يسميها ألاركون بالساحة الكبرى، أو ساحة السوق. وهناك جرت المراسيم العسكرية لإعلان استلام المدينة حيث لم يحضر

---

(14) ذكرت سارة ليبوفيتش أنه قتل 12 أو 15 يهودياً في حوادث النهب (ص 26 استناداً إلى ناهون) وعند ألاركون أن مجموع الجثث المتخلفة عن حوادث النهب كان 70 وقد تم دفنها بعد دخول جيش أوضوني وعن رواية اليهود للأحداث منذ إعلان الحرب حتى دخول الجيش الإسباني إلى تطوان ينقل ألاركون كلاماً طويلاً مليء بالمعلومات، ويتضمن بعض الانطباعات والمشاعر، عن مضيفه إبراهيم أحد أعيان الملاح. وذلك في ص 90 ج 2 وما بعدها.



من سكان المدينة إلا اليهود. ويقول في ص 72 ج 2 : «وحيثما كان يمر مسلمون قليلون، دائما على عجلة من أمرهم، فإن أحدا منهم لا ينظر، على الخصوص، نحونا. كأنه لا يريد أن يعترف بهزيمته». ويعود في ص 120 لتسجيل هذه الحالة فيقول : «كما أنه لو رفع الواحد منهم نحوك عينيه، سيصدر عنه اعتراف. إذ معنى ذلك أنه عَلم بوجودك، وأن ذلك احتل جزءا من ذاكرته. وأنه قَبِلَ ذلك ولو من باب الفضول، ومن ثم يستحيل عليه أن ينكر ذلك في اليوم التالي». ثم يقول : «انه الصمت ! صمت جليل، يدل على الاعتزاز، وعلى التجاهل بأنفة، ويدل على احتقار بطولي، آه. لكم هو سامٍ مسلك هؤلاء المتوحشين ! من كل هذا يستنتج أن المغاربة لا يمكن غزوهم بالقوة».

لكن غرام ألاكون، هو أولا بالمدينة. ونقدم فيما يلي مقطعا آخر ينطق بافتتانه بها قبل أن نقدم مقاطع أخرى يَصِفُ فيها مظاهر الحياة التي وجدها فيها. يقول في ص 72 ج 2 «هذه المدينة الشديدة الغرابة، تختلف نظرتي إليها عن نظرة باقي رفاق السلاح. وكلنا لا تعوزه الحجة. إنهم يرون أنها أسوأ من آخر مدينة في اسبانيا. شوارعها متسخة، وغير سوية، ملتوية، وضيقة. ليست مبلطة، وليست لها أرصفة، ولا مجاري، ولا أسماء لشوارعها، ومبانيها غير مرقمة. ومظهر منازلها التي لا شرفات لها، فقير جدا وبئيس. وقلما يُلحَظ مبنى يستحق هذا الاسم. كما أنه لا توجد بها مآثر، ولا شوارع للفسحة، ولا مسارح، ولا فنادق، ولا مقاهي، ولا نوادي، ولا أسواق. كما لم يُخطر على البال بعد إيجاد شرطة مَدَنِيَّة. وأثناء الليل لا توجد إنارة، ولا حراس ليل. إن هذا فظيع، وكرهه، لا يمكن العيش هنا. إن قرية في لا مانشا، توجد بها حياة مريحة وموارد أكثر من هنا بكثير».

وكل هذا صحيح — يقول ألاكون — ولكن تطوان هذه، وهي هكذا، لا يوجد أفضل منها. لو كانت لها المباهج الأوربية التي تعوزها فعلا، لكانت بالنسبة لي مثل أي واحدة من المدن التي رأيته في العالم، ولم أكن لأتجسم مشقة العبور إليها. إن قيمة تطوان تكمن في أنها لا تشبه واحدة من المدن التي أعرف. إني أنظر إليها نظرة الشاعر والفنان. تطوان مدينة عربية بكامل الأوصاف. إنها انبعاث لغرناطة. انها عيش هؤلاء المغاربة المتأقلمين فيها مع مشاغلهم وعاداتهم.

ويحاول ألاكون أن يفسر ما يراه، ويبحث به الخيال أكثر مما يعتمد إلى التحليل

العميق فيقول : «ان المغربي يجهل ويحتقر المتع الاجتماعية. فهو فردي. يعشق الوحدة في الحقل وفي البيت. ويمضي وقته مستسلما لتأملاته الخاصة، دون أن يحفل في شيء بتأملات جاره. لهذا فهو لا يزين بشرفات جميلة أو سيئة، واجهة مأواه الحبيب. بل أنه يجعل الباب صغيرا، ويجعله في مكان مستور ؛ ولهذا لا يهتم بأمر الشارع، ولا يأبه بإيجاد أماكن للقاء، مثل المسارح والمنتزهات، ولا حتى شوارع كبيرة، يهدر فيها الوقت بالحديث مع أصدقائه. إن الشارع النسبة له هو الطريق إلى منزله، ولا يخرج إلى الشارع قط إلا للانتقال من مكان إلى آخر. ويعمل على أن يكون الشارع ضيقا وملتويا، حتى يبقى باردا، وظليلا، خلال أيام الصيف الطويلة، ولهذا يحدث القباب في الشارع. والسلطات بدورها لا تفكر في الصالح العام، ولم يخطر لها أن تهتم بأمر الجماعة، فتحدث خدمات صحية، وتنظم حراسة عامة. فمن يحتاج إلى نور في الليل عليه أن يحمله معه، ومن ليس له نور عليه أن يمشي في الظلمة، كما كان يحدث في اسبانيا منذ عشرين عاما. وأما الأمن فكل يهتم بأمره، والله هو الذي يتولى أمر الجميع. باختصار أن الشارع ليس له وجود رسمي. وأما كون الناس يعيشون الواحد جنب الآخر، فهذا لا تنتج عنه دولة، والتساكن بين الناس لا ينتج عنه مجتمع، والمدينة ليست أكثر من معسكر، يعيش فيه المتعسكرون منفصلين يجهل بعضهم بعضا.

«والأماكن العمومية الوحيدة في تطوان، هي المساجد، ولهذا فهي ذات واجهات مهيبة ومواقعها في أماكن ملحوظة. إن المغربي يعتني بتزيين داخل منزله، حيث يستسلم للمذات فردية بصمت، وتزيين المظهر العام للمدينة لكي يبدو رائقا من بعيد.

«وهناك أيضا مكان عمومي آخر وهو «الفندق». وهي ساحة صغيرة مغطاة بدالية كبيرة، أحدث فيها بعض الجزائريين مقاهي جريا على العادة الذائعة في بلدهم.

«وفي هذه المدينة التي يصل تعداد سكانها إلى 50.000 هناك ساحتان فقط الساحة الكبرى أو السوق، والساحة القديمة التي تؤدي إلى القيصرية.

«والقيصرية حي مقفل يشتمل على المركز التجاري الرئيسي للمدينة إذ يوجد

فيها أكثر من 300 دكان، هي الآن عبارة عن خراب لأن جباله نهوها في بداية الأمر، ثم تلاهم اليهود. والدكاكين عبارة عن صوان محفور في جدار، داخله يجلس التاجر، وفي متناوله كل السلع. وللدكاكين ذات أبواب تتألف من دفتين، تقفلان عموديا، بأن تطبق الدفة العليا على السفلى. وأما في الملاح «حيث كانت الحياة تسير على النمط الأوربي»<sup>(15)</sup> فإن من الدكاكين ما كان على الهيئة التقليدية، ومنها ما كان له بابان ودواليب تعرض فيها المواد ومائدة يقف خلفها التاجر.

«وفي عدد من المواقع بالمدينة، هناك عيون عمومية يجري منها الماء عبر أنبوب ويحدث تساقط مياهها سحرا خاصا في الشوارع الهادئة.

«باختصار أن تطوان تتميز عن غيرها من العواصم، بأنها تخاطب روح المسافر، فتحدثه عن تاريخها، وتجعله يفهم، من النظرة الأولى، عبقرية أهلها وطبيعتهم. فليست بها أعمال ومآثر كبيرة مثل مجرى الماء في شقوبيا، أو كوليزيو روما. ليست بها أعمال تتحدث عما صنعه الغابرون، بل انها تبين ما عمله الزمن وليس ما هدمه الزمن.

«ومنازل تطوان تذكر بمنازل الأندلس، تصميمها وترتيبها متشابه تماما. إن وسط المبنى تحتله الباحة. ومن هناك تتوالد الغرف. وفي وسط الباحة حنفية تحيط بها أماكن للجلوس، مفصولة أحيانا بستائر لتتحول إلى غرفة نوم أيام الصيف. وفي الطابق العلوي، هناك أربع ممرات مكشوفة، تطل على الباحة. وتكمن فخامة بعض الدور في النقش الذي يزين الباب والنوافذ الداخلية والسقف، وكل ذلك بخشب عليه نقوش بألوان متعددة، وكذلك تُزَيَّن الدور بالزليج الذي يكسو البلاط، والسلم والجدران. كل شيء نابع من الحضارة القديمة التي لم تتغير. فكأن زيارة تطوان، هي زيارة قرطبة في القرن الثالث عشر».

بعد هذه البيانات عن تطوان العربية، يتوقف طويلا عند الملاح، حيث سكن في بيت يهودي يدعى ابراهام. وفي اليوم الأول لنزوله بالملاح لاحظ أن اليهود منغمرون في سرقة المنازل التي غادرها أصحابها.

---

(15) «النوتيسير» عدد 1960/9/19 وفي أيضا ان الملاح كان يعمه النشاط والمرح وتجارة غزيرة.



وقد رافقه اليهودي يعقوب، في جولات قام بها في داخل المدينة. وكان هذا اليهودي ينتعل بلغة صفراء سجل ألاكون أنه يمشي بها بخفة دون أن يحدث صوتا. ويصف ألاكون (ص 85 ج 2) الحي اليهودي فيقول انه يتميز بشوارعه المستقيمة، وبأن منازلها نوافذ وحتى شرفات. ورغم أن البيوت عامة فقيرة، فهناك منازل مبنية بإحكام. وهي مزينة من الداخل بفخامة، وأثاثها على النمط الأسباني القديم ولكنه مشابه في بعض ملامحه لأثاث المسلمين وعاداتهم، والأثاث العصري مجلوب من جبل طارق، مثل المقاعد الوثيرة، وموائد اللعب، والأسرة المذهبة وغير ذلك. ولاحظ آثار الائلاف في بعض المنازل كنتيجة لعمل الناهبين. ويقول انه استقر في دار ابراهام «ريتا يدبر له صديق تعرف عليه في وادي مرتيل، يدعى سانتياغو، مأوى في فندق (Fonda) أوشكت أن تفتح في السوق القديم الذي أصبح اسمه الآن «ساحة اسبانيا». ودار ابراهام مؤثث نصفها بالطريقة المغربية ونصفها بالطريقة الانجليزية».

ويزور ألاكون بصحبة صديقه الرسام ايريارتي الجامع الكبير، ويظهر أنه لم يتعد الصحن. ولا يتميز وصفه لما رأى بما يضيف إلى معلوماتنا شيئاً يستحق الذكر. كما يزور قصر الرزيني، وينقل عن مرافقه اليهودي ان صاحب القصر، كان ممن ذهبوا إلى طنجة، وحمل أمواله على متن تسع بغلات وثلاث جمال وثمانية عبيد. ويُبهر ألاكون بما رأى من مفاتن العمران التطواني ويقول (ص 126 ج 2) «إن العمران العربي هو وليد الحب، وطريقة تركيب المنازل وتزيينها تلميحاً للرغبة». ويذكر أن صاحب القصر «تجول كثيراً في العالم وهو قنصل للمغرب في جبل طارق».

وربما يكون مفيداً أن نذكر أن ألاكون تسلل إلى إحدى الغرف، تمرداً على أمر الجنرال أوضوني الذي رخص بالزيارة على ألا تشمل إلا ما سمح به حارس القصر. ومما رآه خلسة أثاث جله عربي وستائر نفيسة، وبعض الأثاث الأوربي مثل الأسرة، والمرابا. وكذلك قنينات خمر.

ويزور ألاكون قصراً تطوانياً آخر وذلك بمناسبة سهرة قضاهها مع وفد أتى من لدن مولاي العباس للتفاوض على الصلح ؛ فقد نزل الظلام وفضل الوفد أن



يقضي الليلة في تطوان، فدعاه الجنرال ريوس Rios لعشاء في مقر إقامته وهو قصر يملكه رزيني آخر، شقيق الرزيني المتقدم ذكره. ولكن هذا لم يغادر المدينة. وكان من الحاضرين في العشاء.

ووصف ألاكرون هذا اللقاء الودي، بدقة، ويذكر أن المدعوين المغاربة نزعوا بلغاتهم عند الدخول إلى الغرفة، ولم يثنهم عن ذلك كثرة إلحاح الجنرال ريوس. أما الرزيني فلم ينزع بلغته. وقام المغاربة بمصافحة مستقبلهم. ثم جرى حوار صامت وطويل بالاشارات، بشأن ترتيب الجلوس. وجلس المغاربة في المقاعد الأوربية والاسبان على المخدات المبعثرة على الأرض. ولكن أحد المغاربة فضل في النهاية الجلوس في الأرض. وتناول المغاربة كل ما قدم لهم بما في ذلك السجائر. وسجل ألاكرون أن كل الاسبان الذين كانوا طرفا في هذا اللقاء، كانوا أندلسيين. وأورد نص الحوار الذي دار بين الجانبين. وكان وديا، ولبقا، وتبادل فيه الجانبان عبارات الإعجاب كل بالآخر، بطريقة لم تخل من الصراحة. إذ أن أولئك القادة العسكريين كان كل جانب منهم يعرف الكثير عن عيوب ومزايا الآخر.

وحضر ألاكرون مأدبة أخرى في بيئة عربية، إذ دعا جزائري غني يسمى عبد القادر قريب للأمير عبد القادر محي الدين الجزائري، الجنرال Conde d'eu وهو حفيد للملك لوي فيليب. ويصف ألاكرون صاحب الدعوة بأنه شاب في 23 من عمره، يرتدي كل يوم لباسا مختلفا ويتعاطى التجارة. وحضر المأدبة صديق لعبد القادر ذكر أنه أصغر من صديقه. ويتحدث الفرنسية والإيطالية مثل صاحب الدعوة. وهما يقول ألاكرون (ص 136 ج 2) يعرفان الكثير من شؤون العالم. ويُقرآن بأن العالم الإسلامي أصبح جثة، لكنهما يرددان ذلك بشعور من يرى أنه سيدفن مع تلك الجثة. وعن المأكولات يذكر ألاكرون أنه قدم لهم طبقان من الكسكس، أحدهما أكثر حلاوة من الآخر. وبعد الطعام دخل عبد أسود يرتدي لباسا أبيض حاملا السبسي لصاحب البيت وصديقه. ولما لم تُقدّم لهم القهوة، قر رأي الجميع على التوجه إلى فندق، حيث شربوا القهوة في مقهى عمومي يدعى صاحبه بن سوس.

وبعد وصف أطوار المحادثات السياسية بين مولاي العباس وأوضوني، يأتي ألاكرون على ذلك حادث جليل شهده يوم فاتح مارس 1860. ألا وهو تحريك

أول مطبعة فوق التراب المغربي، لإصدار جريدة هي «ايكودي تطوان»<sup>(16)</sup>. فمعلوم أن أول جريدة صدرت فوق التراب المغربي كانت هي «الليبرال أفريكانو»، سنة 1826، ولكنها كانت تطبع في اسبانيا أما «الايكو» فقد طبعت في تطوان. وأورد الأركون افتتاحية أعلن فيها باعتزاز كبير، اصدار أول جريدة تطبع في تطوان، إلى جانب إدخال التلغراف وسكة الحديد.

كما تضمن العدد مقالة عن التغيرات التي دخلت على الحياة في تطوان، والتنظيم والخدمات التي أحدثت. ومن ذلك تعيين الكايدي (رئيس بلدية) مسلم هو الحاج أحمد (أبغير؟)<sup>(17)</sup>. وآخر لليهود هو ليفي كاسيس، وتنصيب مجلس بلدي يضم 6 مسلمين و 6 يهود تقاسموا المهام فيما بينهم (ونعرف عن هذا المجلس أنه ألغي قبل الجلاء بقليل). وقسمت المدينة إلى أربع مقاطعات<sup>(18)</sup>. وأعطيت أسماء للشوارع، منها أسماء العائلة المالكة الاسبانية، وأرقام الفيالق، وسميت الأبواب بأسماء، طنجة والسيد Cid، والنصر، والمملكة، والملكين الكاثوليكين، وألفونصو 12. فضلا عن إطلاق اسم اسبانيا على ساحة الفدان.

وأحدثت شرطة سياسية وأمنية، وأعطى لكل دار رقم وأحصى السكان. وعلى نفقة الجيش أحدثت الانارة في الشوارع، ثم فرض على كل عشرة من السكان أداء ثمن إيقاد مصباح حتى العاشرة ليلا. وعين حراس ليليون Serenos للأحياء يعززون الدوريات الاسبانية. كما أحدثت مستشفيات لكل من المسلمين واليهود والنصارى. وفتحت فوندات<sup>(19)</sup> (فنادق) ومقاهي، ونقلت الكورنة (المسلخ) إلى مكان أكثر ملائمة من الناحية الصحية.

---

(16) صدر منها عدد واحد وخلفتها جريدة Noticiero de Tetuan التي عمرت من 1860/4/16 إلى 1961/2/13، بوتيرة 10 إلى 12 عددا في الشهر، انظر محمد بن عزوز حكيم في محاضرة عن الصحافة المكتوبة بالاسبانية في المغرب. نشر APMEE مطبعة الأنباء 1983.

(17) جاء في «تاريخ الحملات الاسبانية في المغرب» ان اسمه فعلا هو أحمد أبغير ووصف بأنه قنصل للنمسا والدنمرك (ص 273).

(18) في نوتيسيرو (عدد 61/1/12) ان عدد المقاطعات 6 بما فيها مقاطعات الديوانة، ومرتيل، والخليج وكان في هذه المقاطعات من السكان على التوالي : 67، 74، 195. جلهم تجار.

(19) نقلت ليوفيتش عن «نوتيسيرو» أنه فتح فندق باسم «فندق فرنسا» وصفته الجريدة بأنه أنيق جدا.

وهذا ما قصده الناصري بقوله في ص 95 ج 9 ط. البيضاء : «ثم أخذ (أوضوني) في ترتيب بناء المدينة، وتبديل شكلها حسبما جرت به عادة النصارى في مدنهم. فهدم ما لم يوافق نظره، وفرز الدور عن سور البلد، وكل دار كانت ملتصقة بالسور فصلها عنه، واستمر على هذه الحال عشرين يوما».

ويضاف إلى ما تقدم في «تاريخ الحملات الاسبانية بالمغرب» ص 325 أنه انشئ كازينو، ومسرح وملعب رياضي، وممشى للتفسيح خارج المدينة، وأحدث طريق تطوان — مرتيل<sup>(20)</sup> كما تم تشجيع التجارة والصناعة بإعلان المدينة منطقة حرة.

ووردت في Noticiario de Tetuan أسماء لبعض المقاهي التي فتحت أبوابها في تطوان ومنها : مقهى سبعة أبواب، ومقهى المسرح، ومقهى النصر، والمقهى الأمريكي، ومقهى البابور. وعن المسرح تحدثت الجريدة عن ورود فرقة مسرحية من ثيوداد ريال (اسبانيا). وذكرت أن المسرح كان يستوعب 1282 مقعدا. وغالبا ما كانت تقدم فيه ألعاب سحرية. كما نظمت للتروي عن الجيش وبعض المستوطنين ألعاب نارية كانت تجري أيام الأحد، وذات مرة تم عرض لمصارعة الثيران.

ونقلت سارة ليوفيتش (ص 33) أن عدد المدنيين الاسبان الذين حلوا بتطوان وصل إلى 2358 أكثرهم رجال إذ لم يتعد عدد النساء ألف امرأة.

ومما يذكر أن راهبا يدعى غريغوريو فتح مدرسة للأطفال ضمت 18 ولدا و3 بنات. ونشرت «نوتيسيير» مقالات لحث اليهود على توجيه أبنائهم إلى تلك المدرسة. ولكن هؤلاء أبدوا تحفظا واضحا خاصة بعد حدث هز الطائفة اليهودية في المدينة وهو تمسيح فتاة يهودية كانت تدعى سلطانة.

❖ ❖ ❖

---

(20) نشر في «نوتيسييرو» إعلان عن رحلة بالسيارة من تطوان إلى مرتيل بـ 12 ريال الخمسة ركاب. الخروج في 7 صباحا والعودة بعد وصول المركب البخاري الحامل للبريد (عدد 1860/9/25).



هذه نبذة عن تطوان لدى احتلالها من لدن اسبانيا في 1860. وهي تفيدنا أن تطوان في ذلك الحين كانت ذات طبيعة غناء تحيط بها. وترتيبها كان بسيطاً ولكنه أنيق. ولم يتعد شاعرها المفضل أفيال عن تسجيل الواقع حينما وصفها بأنها حمامة، وخطيب على رأسه عمامة، وأنها روض بهيج. وأحداث الذهب التي تحدثت مصادر عديدة عن وقوعها قبيل دخول الجيش الغازي إليها، تدل على غناها وبسطة عيش أهلها. ونستفيد أيضاً أن سكان المدينة إذ ذاك هم الأندلسيون الذين جددوا حياتها في آخر العصر المريني واليهود الذين سكنوها، مثل غيرها من مدن الساحل بعد الطرد من الأندلس، وأضيف إلى هذين العنصرين، الجزائريون الذين لجأوا إليها بعد احتلال فرنسا لبلادهم.

لقد جند الاسبان للاجهاز عليها جيشاً قوياً، أسندت رئاسته إلى رجل بارز من قادة الجيش والسياسة. ويعتبر احتلال تطوان من الصفحات الخارقة للعادة في التاريخ العسكري والسياسي لاسبانيا، لقد قورن انتصار اسبانيا بانتصار بوجو في إيسلي ونابوليون في الأهرامات. واعتبر احتلال تطوان هدفاً سياسياً واستراتيجياً كبيراً. كما أن المغرب بدوره فداها بأهظ الأثمان، دماءً وذهباً.



من تاريخ بعض جهات تطوان :

## جبل العلم بين الشعر والتاريخ<sup>(1)</sup>

ذ. عبد السلام شقور

ليس فيما سنقدمه في الصفحات الآتية تاريخا «دقيقا» للتقلبات السياسية التي مر بها جبل العلم، ولا استقصاء كلياً لما صدر عن الشعراء من شعر يتصل بهذا الجبل، إن عملاً يطمح إلى تحقيق ذلك كله ربما لم يحن بعد وقته، إذ مازالت نصوص كثيرة لها صلة بهذا الموضوع غائبة عنا، ثم إنه يلزم قبل الاقدام على عمل كهذا القيام بأبحاث مونوغرافية تمهيدية تتناول هذه القضية أو تلك في فترة محدودة، أو هذا العلم أو ذاك... ولهذا السبب، فإننا سنقتصر هنا، على القيام بـ «نزهة مشتاق» نخترق فيها آفاق هذا الجبل الزمانية واقفين عند المعالم العريضة دون ملامسة للجزئيات<sup>(2)</sup>. —

وقد وصف ابن الوزان جبل العلم — ويسميه جبل بني عروس — فقال : «يمتد عبر مسافة ثمانية أميال شمالاً، وعشرين ميلاً غرباً، عرضه ستة أميال، وسكانه أشراف وفرسان».

ووصفه صاحب مرآة المحاسن واقتصر على الحديث عن قنة الجبل حيث يرقد الولي الصالح : عبد السلام بن مشيش، فقال بعد أن تحدث عن صاحب الضريح : «والعلم بفتح العين واللام بعدها ميم كلفظ واحد الاعلام التي هي الجبال، وهو

(1) يقع جبل العلم في أقصى شمال المغرب بعيداً عن تطوان بنحو ستين كيلومتراً.

(2) إن بحثنا هذا «مختصر» بحث أكثر طولاً كنا بصدد جمع مواده منذ سنوات، نأمل أن ييسر الله الأسباب لظهوره.

جبل عظيم مرتفع دفن فيه الشيخ أبو محمد عبد السلام في قفته، وآثاره هنالك كثيرة : من مغارة للخلوة والعبادة، ومسجد جدرانته نحو القامة وكثير من الاحجار مرتبة، وموضع لارتقاب الفجر وغير ذلك، وتحت ذلك فأكثر ما فيه أعين كان يتوضأ فيها، ومقتله فوقها بقريب، فيقال إنه توضأ فيها عند الفجر وقصد الصعود لمحل عبادته وارتقابه للفجر فقتلوه هنالك... وعلى هذا العين بمقربة منها مسجد عليه جدار دون القامة من أحجار دون طين، هو محط رحال زوار ضريح الشيخ، وتحت هذه العين بمسافة أخرى رسوم دار الشيخ التي كان يسكنها، ولا ساكن هناك اليوم، وإنما العمران في سفح هذا الجبل دائرا به من مداشر وعمائر كثيرة يسكنها أهل هذا النسب الكريم، ومعهم كثير من غيرهم، وهم يحفظون نسبهم...».

ومن المؤكد أن أهمية هذا الجبل آتية من وجود ضريح الولي الصالح : عبد السلام بن مشيش، وأضرحة عدد من أفراد بيته به، ومن ثم فإن تاريخ هذا الجبل هو في واقع الأمر تاريخ للشرفاء العلميين المنتسبين إلى الولي المذكور بشكل خاص، وإلى بقية آل البيت المشيشي بشكل عام.

ولم يرد فيما وقفنا عليه من كتب البلدان ذكر لهذا الجبل بهذا الاسم<sup>(3)</sup>، كما أننا لم نعثر على ذكر له بهذا الاسم فيما لدينا من كتب التاريخ والتراجم المؤلفة قبل القرن التاسع<sup>(4)</sup>، ولعل هذه التسمية حديثة، ولعلها لم توجد إلا بعد القرن

(3) رجعنا إلى كتاب الاستبصار، وإلى الروض المعطار وكذا إلى وصف إفريقيا للحسن ابن الوزان. وانظر المستدرك

(4) من المعروف أن العصر المريني هو عصر ازدهرت فيه الكتابة التاريخية وهكذا فقد خلف لها رجال العصر عددا كبيرا من المؤلفات التاريخية، وقد عدنا إلى العبر، والانس المطرب، والذخيرة وأعمال الاعلام والحلل الموشية فما وجدنا ذكرا لجبل يعرف هذا الاسم، كما أننا عدنا إلى كتب التراجم العامة والخاصة، ومنها : المنهج الواضح، والمقصد الشريف والسند الصحيح الحسن، والذيل والتكملة وغيرها وكذا إلى الجذوة والمنتقى وإلى فهارس الشيوخ، ومنها : التعلل برسوم الاسناد، وفهرت الراج، وكذا إلى الكتب المؤلفة عن سيرة ومنها : اختصار الاخبار، ولغة الامنية، وهي غير بعيدة عن الجبل فما وجدنا كذلك ذكرا للجبل بهذا الاسم، ولعل الاشارة الوحيدة إليه هي تلك التي وقعت في الدرة عند ترجمة أحمد بن محمد بن الحسن ابن أبي القاسم العلمي أو العلامي (101/1) حيث ورد الرجل، كما نرى، منسوباً إليه. ووردت الاشارة إليه في «المقصد الشريف»

التاسع، فهذا الحسن بن الوزان يسميه جبل بني عروس، ونص كتابه «وصف إفريقيا» عن هذا الجبل أقدم نص معروف يسمى الجبل بهذا الاسم، كما أنه أقدم نص معروف لدينا يرد فيه إسم «بني عروس» بهذا اللفظ<sup>(5)</sup>.

وعن تسمية الجبل بجبل العلم يقول أحدهم : «وسمي بذلك — أي جبل العلم — لأنه كان يرى علام (كذا) منار مكة من ذلك الجبل، فسمي به»<sup>(6)</sup>، وهذا تعليل لا يلتفت إليه بطبيعة الحال.

ولعله من المفيد أن نشير إلى أنه يرد في «الدوحة» لابن عسكر مرة باسم «جبل العلم، وأخرى جبل العلام» وكذلك وقعت النسبة إليه في الدرة : فليل العلمي، والعلامي. ولا يعرف على سبيل التدقيق متى وصل الشرفاء الادارسة إلى هذا الجبل وأقاموا به، وهل تم ذلك عقب زوال دولتهم الأولى أي في نهاية القرن الرابع أم إثر انقراض دولتهم الثانية، ونعني دولة بني حمود، في بداية النصف الثاني من القرن الخامس ؟

لقد انقرضت دولتهم الأولى بموت الحسين بن كنون سنة 375، «فركدت ربح العلوية بالمغرب وتفرق جمعهم، وبقي منهم جماعة بقرطبة، فكانوا في ديوان السلطان في جماعة المغاربة إلى أن ملك علي بن حمود الاندلسي فسما ذكرهم»<sup>(7)</sup>. وهكذا لم يستطع الادارسة أن يصمدوا أمام قوتين وهما الامويون بالاندلس، والعبيديون في شرق المغرب، ولكل من الدولتين صنائع في المغرب يدسون ويكيدون لصالحها، وابن أبي العافية على رأس هؤلاء، ولقد لقي من الادارسة أذى، حتى إنه آلى على نفسه أن لا يترك إدريسيا في المغرب كما قال غير واحد، وهو أمر أنكره عليه الناس في عصره وبعد عصره، فهذا ابن السكاك المكناسي بلديه يتبرأ من صنيعة في كتابه الذي خص به الشرفاء على عهده ونعني به كتاب «نصح ملوك الاسلام».

وتتفق الكتب المهمة بأنساب الادارسة على أن الشرفاء الادارسة لجأوا إلى

(5) وصف إفريقيا :

(6) كعبة الطائفين : 303.

(7) الانيس المطرب : 94.



«بني عروس» بسبب ما لقوه على يد ابن أبي العافية، وأن أول من أقام ببني عروس منهم : مزوار بن علي بن محمد بن إدريس الأصغر وإذا صح هذا فإن الشرفاء الادارسة يكونون قد انتقلوا إلى جبل العلم ودولتهم ما تزال قائمة. وتجب الاشارة إلى أن مزوار لقب لا إسم، يطلق في الاصطلاح المغربي على من يتولى الاشراف على الاشراف، استعمل أيام الموحدین للدلالة على من يتولى مهمة الاشراف على الطلبة، وللطلبة في أيام الموحدين معنى خاص، إذ يقصد بهم أولئك الذين تلقوا تكويننا مذهبيا وعسكريا خاصا ابتداء من سنينهم الأولى، ليكونوا إحدى دعائم الدولة، وأطلق لقب «مزوار» بعد ذلك على «نقيب» الاشراف كما قلنا، فكان لشرفاء فاس مزوارهم، يحظى بامتيازات خاصة. فهل هذا يعني أنه كان للشرفاء الادارسة في ذلك الوقت مزوار أي نقيب ؟ وتجب الاشارة إلى أن مزوار كما ورد في شرح الصلاة المشيشية لابن عجيبة لفظ بربري معناه : بكر أبيه وسيد قومه. ابن عجيبة ينقل ذلك عن «مرآة المحاسن». هذا وكان الادارسة اختاروا مكانا نائيا عن المدن يلجأون إليه عندما تضيق بهم الأيام، فبنوا قلعة منيعة عرفت بقلعة «حجر النسر» جعلوها عاصمة لهم في ظروفهم الحالكة، ومكانا يتحصنون به<sup>(8)</sup>. وبزوال دولتهم افترقوا «في القبائل ولاذوا بالاختفاء إلى أن خلعوا شارة ذلك النسب، واستحالت صبغتهم منه إلى البداوة»<sup>(9)</sup> وقد اختار الشرفاء العلميون جبل «العلم» لكونه حصنا طبيعيا.

ولا تتوفر على معلومات حول ما يمكن أن يكونوا قد قاموا به في صفوف دولتهم الثانية المشار إليها سابقا، فمن المعلوم أن بني حمود نجحوا في إقامة دولة مكونة من شطرين : أحدهما في المغرب والشاطر الثاني في الاندلس وولي طنجة

(8) المشهور أن مكانه قلعة قبيلة سوماتة، وهي متاخمة لقبيلة «بني عروس» غير أن في بعض إشارات ابن أبي زرع وابن خلدون ما يشي بأن موقعها غير بعيد عن سبتة، وقد اطلعت في بعض كتب المتأخرين، ولعل ذلك في الدور الضاوية ما يؤكد أنها في «بني سعيد»، وهذا ابن خلدون يذكر أن محمد بن إبراهيم بن محمد بن القاسم فيقول : واختص منهم محمد بن إبراهيم بن محمد بن القاسم قلعة حجر النسر الدانية وسبتة معقلا لهم وثغرا لعملهم 289/6. أفلا يكون هناك موضعان كل منهما يعرف «بقلعة حجر النسر» ؟

ومهما يكن فالموضوع ما يزال في حاجة إلى مزيد من البحث.

(9) العبر 295/6.



وأعمال غمارة يحيى بن علي بن حمود ثم ادريس علي بن حمود ثم الحسن بن يحيى... وغدت دولتهم مقصد الادباء والشعراء، ومن الشعراء الذين وفدوا عليهم الشاعر الكبير : ابن الدراج<sup>(10)</sup>، وكانت نهاية دولتهم على يد أحد عبيدهم، وهو الحاجب سكوت البرغواطي، الذي حكم باسمهم وظل في الحكم إلى أن قضى عليه المرابطون.

ومن المرجح أن يكون للشرفاء العلميين «دور» هام في هذه الدولة فقد كانوا لهم عوناً في بسط نفوذهم على غمارة وغيرها، وقد يكون بعضهم التحق بالاندلس لمناصرة الحموديين، بني عمومته هناك، خاصة وأن الصراع في الأندلس كان قد اتخذ صبغة عرقية، ومن المعلوم أن المغاربة عامة كانوا في صف الحموديين. وبالقضاء على دولة بني حمود يفرض من جديد، على الشرفاء العلميين أن يلودوا بجبلهم، حيث ستختفي عنا أخبارهم لقرون إلا ما كان من ومضات قليلة تمثل على الخصوص في الاخبار المتصلة بالشيخ المولى عبد السلام بن مشيش. ويظهر أن أملاً ثاب لهم في استعادة مجدهم، إثر ظهور الموحيدين، فقد وقفوا إلى جانب الدولة الموحيدين، ولعلمهم كانوا بذلك يثأرون لأنفسهم من المرابطين الذين كانوا قد قضوا على دولة بني حمود كما سبقت الإشارة إليه، ثم إن ابن تومرت كان اتخذ له نسباً هاشمياً كما هو معلوم، وهو أمر يتقرب به إلى هؤلاء الاشراف. وعن اتصال الاشراف الادارسة بالموحيدين يقول ابن خلدون : «ولما نجح المهدي بالمغرب واستفحل أمر الموحيدين بعد هلكه، تنقل خليفته عبد المومن في بلادهم — في غزاته الكبرى، ففتح المغرب سنة سبع وثلاثين (وخمسمائة) وما بعدها، قبل استيلائه على مراکش كما نذكره في أخبارهم — يعني أخبار الموحيدين — واتبعوه — أي الاشراف الحموديون — ونازلوا سبتة في عساكره»<sup>(11)</sup> إلى أن يقول : «فكانت لغمارة — وفيهم الاشراف — هؤلاء السابقة التي رعت لهم سائر أيام الدولة»<sup>(12)</sup>.

(10) ولقد فصل الكلام في هذا الموضوع : أبو العباس الحلبي في كتابه الدر النقيس، فليُنظر

(11) العبر 296/6.

(12) العبر 296/6.

ولسنا نعرف عنهم شيئا، بعد هذه الإشارة، أثناء دولة الموحدين، والظاهر أنه كانت لهم حظوة بسبب سابقتهم هذه، وهذا ما تفيد به عبارة ابن خلدون. وليس غريبا أن يدافعوا بعد ذلك عن الدولة الموحدية عندما استدعى أركانها بعد موقعة العقاب، فمع بداية القرن السابع ظهر بنو مرين، وكثر المتطوعون إلى الاستقلال بجهاتهم، بل إن بعضهم استقل فعلا بجهاته ودعا بدعوة رأى فيها دعما لشرعيته، وغير بعيد عن جبل العلم نجد أهل سبتة يقدمون على أنفسهم أحمد الينشتي الذي يلقب نفسه بالموفق<sup>(13)</sup>، وينتهي الأمر بأهل سبتة وطنجة وقصر ابن عبد الكريم (القصر الكبير) إلى أن يبعثوا ببيعتهم إلى أبي زكرياء الحفصي، ولعل شرفاء جبل العلم كانوا ضمن هؤلاء، فالحفصيون على أي حال، خلفاء الموحدين، ويمثلون أكثر من غيرهم الدعوة الموحدية، خاصة بعد أن أعلن المأمون الموحي تخليه عن أهم الأسس المذهبية التي قامت عليها الدولة الموحدية، ونعني بها مبدأ العصمة، في هذه الظروف الحالية، التي تغطي عليها التقلبات، يظهر مغامر في القصر الكبير (قصر كتامة) يسميه ابن خلدون: ابن محمد الكتامي، الملقب بأبي الطواجين، «كان أبوه من قصر كتامة، منقبضا عن الناس، وكان يتحلل الكيمياء، وتلقنه عنه ابنه محمد هذا، وكان يلقب بأبي الطواجين، فارتحل إلى سبتة، ونزل على بني سعيد وادعى صناعة الكيمياء، فاتبعه الغوغاء، ثم ادعى النبوة، وشرع شرائع، وأظهر أنواعا من الشعوذة، فكثرتابعه، ثم اطلعوا على خبثه، ونفذوا إليه عهده، وزحفت عساكر سبتة إليه ففر عنها، وقتله بعض البرابرة غيلة»<sup>(14)</sup>.

ولقد ارتبط اسم أبي الطواجين هذا في كتب المتأخرين بحادث مقتل الشيخ المولى عبد السلام بن مشيش، وليس في النص المثبت أعلاه، أي إشارة إلى مقتل المولى عبد السلام ابن مشيش، بل إن اسم ابن مشيش لا يرد مطلقا في تاريخ ابن خلدون ولا في المصادر التاريخية المعتمدة التي تتحدث عن هذه الفترة (النصف الأول من القرن السابع الهجري) وقد عدنا إلى الأنيس المطرب، وإلى البيان المغرب — قسم الموحدين — فوجدنا الكتابين يتعرضان بشكل دقيق للأحداث التي

(13) العبر 6/394.

(14) العبر 6/297.

شهدها المغرب ما بين سنتي 620 و 630 هـ<sup>(15)</sup> فَمَا وجدناها تشير إلى هذا الحادث، ولعل الخبر الدال في «الانيس المطرب» هو تسارع «أهل سبتة وطنجة» إلى الدعوة باسم المامون سنة 624، وهذا يعني أن هذه الجهة في هذا الوقت كانت مازال على صلة بالموحدين، وفي هذا التاريخ لم يكن الحفصيون بعد قد أعلنوا استقلالهم بإفريقية، وهذا ابن عذاري يفصل الاخبار عن أحداث هذه الفترة (الفترة الممتدة بين سنتي 620 و 630، سنة سنة، ولكنه لا يعرض هو أيضا إلى هذا الحادث، نعني حادث مقتل الشيخ عبد السلام بن مشيش، بل لا يذكر اسم الولي.

أفلا يكون وجود الشيخ الصوفي ابن مشيش في منزله بعيدا عن الحضر هو الذي حجب عن كثير من المؤرخين أخباره ؟ أم أن الصوفي ابن مشيش لم يكن قد أدرك بعد من الشهرة ما يلفت انتباه المؤرخين ؟

ومهما يكن فليس من الغريب في شيء أن يقدم أبو الطواجين على جريمة المتمثلة في قتله الشيخ الصوفي، فأبو الطواجين فيما يبدو من كلام ابن خلدون كانت نفسه تحدّثه بالدعوة إلى نفسه، وقد اتخذ من شعودته وسيلة إلى ذلك، وفي هذا وذاك ما يجعل المولى عبد السلام وشرفاء جبل العلم يحاربونه، بصفتهم كافرا، ودعيا، ثم لا ننسى أن هؤلاء الشرفاء كانوا على مودة كبيرة مع الموحدين، وسنرى بعد قليل كيف حاربوا المرينيين بسبب ذلك، ونرى أن نقف قليلا مع القطب الصوفي المولى عبد السلام بن مشيش :

توفي المولى عبد السلام بن مشيش في نهاية الربع الأول من القرن السابع، وقد تميز القرن بوجود عدد هام من المتصوفة، من أشهرهم أبو العباس السبتي، وأخبار هؤلاء مبثوثة في كتاب «التشوف» وغيره، غير أن اسم المولى عبد السلام بن مشيش

---

(15) يتردد في كتب المتأخرين أن مقتل الشيخ عبد السلام بن مشيش كان فيما بين سنتي 620 و 625 على اختلاف في ذلك، وقد وجدنا الصوفي الكبير أحمد بن عجيبة في شرحه للصلاة المشيشية يقول : «توفي — أي ابن مشيش رضي الله عنه — شهيدا سنة اثنتين وعشرين أو فيما بعده بقليل. قال ابن خلدون : قتل في جبل العلم قوم بعثهم لقتله أبو الطواجين الكافر...» وعدنا إلى تاريخ ابن خلدون فلم نجد لهذا الكلام أثرا، وإن كان ابن خلدون ذكر أبا الطواجين وشعودته وزندقته. وسنعود إلى الموضوع.



لا يرد ضمنهم. وكان من المتوقع أن تشير إليه كتب التراجم وغيرها التي تعرضت لأعلام سبته، ذلك أن سبته على عهده كانت من أهم المراكز العلمية في المغرب، إنها ثانيها بعد فاس، ومن حسن الحظ أننا نتوفر على قدر لا بأس به من كتب التراجم والفهارس التي يملأ فيها أشياخ سبته وطلبتها حيزا هاما فيها، ومن المظنون أن يكون ابن مشيش قصد سبته للجلوس إلى العلماء والافادة منهم، ولكننا لا نجد له أيضا أي صدى فيما كتب عن سبته خلال هذه الفترة<sup>(16)</sup>.

وقد لاحظ الدارسون قبلنا أن ابن الزيات لم يترجم به، واعتذر عن ذلك بكون ابن الزيات اشترط أن لا يترجم للاحياء، وقد كان المولى عبد السلام حيا حين تأليفه كتاب «التشوف» وكان بإمكان ابن الزيات أن يفرد ابن مشيش بكتاب كما فعل مع أبي العباس السبتي. ولكنه لم يفعل، على أن ابن الزيات لم يترجم — في حقيق الأمر — لتصوفي الشمال المغربي، وهذا ما لاحظته عليه عبد الحق البادسي، والغريب حقا هو أن لا يترجم عبد الحق البادسي للمولى عبد السلام في كتابه «المقصد الشريف» مع كونه على شرطه، ذلك أن كتاب البادسي إنما هو ذيل على «التشوف» أراد مؤلفه أن يذكر فيه أولياء الريف، والريف عنده منطقة تبدأ من سبته، وعليه يكون ابن مشيش داخلا في الرقعة الجغرافية التي عني بها البادسي.

وليس البادسي هو وحده الذي أغفل ذكر ابن مشيش، إنما عامة المؤلفين في القرنين السابع والثامن من الباحثين في التصوف وغيره، وهكذا لم يرد اسم ابن مشيش في «أنس الفقير» وإن كان ابن الخطيب القسطيني تعرض في كتابه هذا

---

(16) يستحسن الرجوع إلى المصادر الآتية فيما يخص ترجمة : ابن مشيش : شروح الصلاة المشيشية للخروني وابن عجيبة وبناني وغيرهم، ولعل أقدم شرح موجود منها هو شرح محمد بن علي الخروني المتوفى سنة 963 هـ وتوجد نسخة منه بخزانة الاسكوريال وعليه تملك السلطان المولى زيدان السعدي، ومنه نسخ بالمكتبات العامة والخاصة وطبقات الشاذلية وجامع كرامات الأولياء، ولطائف المنن، ومرآة المحاسن، والاستشفا من الالم في التلذذ بماثر صاحب العلم لابن زاكور، وهو مخطوط بالمكتبة العامة بالرباط، والبدور الضاوية للحوات العلمي، ومناقب الشيخ عبد السلام بن مشيش بالخزانة العامة بالرباط، والاشراف على الاقطار الاربعة الاشراف : نظم لابن محمد عبد السلام القادري. والروضة المقصودة للحوات أيضا، وفتح العلم الخبير في تهذيب النسب العلمي بأمر الأمير لابن ريسون. ومقصورة المناقب.



إلى طوائف عديدة من متصوفة المغرب أحياء وأمواتا على عصره، أي في القرن الثامن، كما أننا لم نجد ذكر ابن مشيش في كتب أخرى كان من المحتمل أن تأتي على ذكره، من ذلك نصح ملوك الاسلام لابن السكاك فهذا الكتاب مؤلف — كما هو معروف — بهدف الدفاع عن الشرفاء، وابن مشيش إلى جانب كونه صوفيا هو أحد الاشراف الادارسة، ولم نجد أيضا ذكرا للولي ابن مشيش في كتب أخرى عنيت بالمتصوفة : فلم ترد أي إشارة إليه في المنهاج الواضح، ولا في بهجة الناظرين... ونوجز الكلام فنقول : إن ابن مشيش لم يرد اسمه في أي مؤلف من المؤلفات الصوفية وغيرها المعروفة لدينا والتي تعود إلى القرنين السابع والثامن<sup>(16)</sup>. فكيف نفسر هذا السكوت ؟ أغلب الظن أن ذلك يرجع إلى كون القطب ابن مشيش لم يكن بعد قد ذاع اسمه وشهر أمره في تلك الأزمان المتقدمة، على أن مخطوطا ظهر أخيرا يتضمن إحصاء للشرفاء لعله الأول من نوعه يذكره. ونقصد به وثيقة إحصاء للشرفاء على عهد المرينيين.

إن لقاء أبي الحسن الشاذلي بالمولى عبد السلام بن مشيش تردد في أكثر من كتاب معني بهذا الأمر، ولكننا لا نجد أي إشارة إليه أيضا في الكتب المذكورة سابقا، ويظهر من ملابسات هذا اللقاء، أن اسم ابن مشيش كان وصل إلى الشرق، فهذا أبو الحسن يعود إلى جبل العلم وكان قد رحل إلى المشرق، ليأخذ عن المولى عبد السلام، بإشارة من أحد شيوخه كما ورد لدى المتأخرين، إن هذا الخبر وغيره قد يكون من باب «علم الأذواق» ولذلك ستتجنب الخوض فيه في هذه «الأوراق».

سجلت لنا كتب المتأخرين لقاء أبي الحسن الشاذلي بشيخه ابن مشيش ونقلت إلينا وصايا ابن مشيش لتلميذه، وكذا بعض أقوال الولي التي تدل كلها عن تمكن الولي وعلى كونه كان رضي الله عنه يغرف من بحر لا ساحل له من العلم والولاية، وثبت فيما يلي نصا ورد في أكثر من كتاب يقص علينا فيه أبو الحسن الشاذلي لحظة اللقاء بشيخه :

جاء في كتاب كعبة الطائفين : (ص : 303).

(16أ) ورد ذكره في كتاب ابن الطواح.

«رؤي أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي ذهب إلى الشرق (يبحث عن القطب) فقيل له : تطلبه بالعراق وأنت خلفته بالمغرب، في بلادك ؟! فرجع حين دُلَّ عليه (ولما) قرب من خلوة هذا الشيخ، واغتسل من عين هناك، وقال : اللهم إني اغتسلت من علمي وعملي ، وأتيت هذا فقيرا مجردا، فما أن وقف بباب الخلوة حتى وجده ساجدا، وسمعه يقول :

اللهم إن قوما طلبوا [إقبال الخلق عليهم] فأعطيتهم ما طلبوا. ورضوا منك بذلك، وأنا أعوذ بك من ذلك. اللهم إن قوما طلبوك الدنيا ورضوا منك بذلك وأنا أعوذ بك من ذلك، و [قوما] طلبوك الآخرة، فأعطيتهم، ورضوا منك بذلك وأنا أعوذ بك من ذلك !

وصار يعدد الكرامات والخوارق، فخطر ببال الشيخ أبي الحسن يفكر فيما ذا يطلب من هذا القطب : هل العلم أو العمل أو الحال أو الولاية أو غير ذلك مما تشتهي النفس، وتلد به الأعين، فدخل عليه بعد أن فرغ من صلاته فسلم عليه، وقال : ياسيدي: كيف أنت ؟ وكيف حالك ؟ فقال : يا ولدي. إني أشتكى إلى الله من برودة التسليم كما اشتكيت أنت إليه من حرارة الاختيار. فعلم أن الشيخ كشف له عن حاله، ثم أعطاه ما قسم الله له على يديه، فوصل به إليه، ودله عليه، فكان من أمر أبي الحسن ما كان».

هنا ينتهي النص، غير أن مؤلف «كعبة الطائفين» يعقبه برواية أخرى للحظة اللقاء بين القطبين، وهي لا تختلف في عمقها عن هذه.

ومن الواضح أن ما ورد في هذا النص، هو من نفس نبع الصلاة المشيشية. لقد فصل المتأخرون الكلام في التعريف بالمولى عبد السلام كما رأينا من قائمة المصادر التي تتحدث عنه، فذكروا اسمه هكذا :

«الشيخ القطب العارف بالله الداعي إليه : أبو محمد عبد السلام بن مشيش؛

(16) ب هذا ونعتقد أن إهمال ابن السكاك لابن مشيش وإخوانه وبني عمومته من الأشراف الإدارية وعدم ورودهم عنده يرجع إلى أن دولة بني مرين كانت غاضبة على هذا الفرع من الشرفاء، وسرى كيف قاوم الشرفاء العلميون دولة بني مرين، واستقلوا في نهايتها بأنفسهم.

ويقال بشين بالباء الموحدة من أسفل... وأما نسبه فهو حسني ثابت شريف...  
وأما طريقته ومعاملاته، وأحواله في منازلته، وآدابه في متعبداته، فكانت طريقة  
سنية، وأحواله سنية، وتعبداته زكية، أخذ الطريقة عن أكابر منهم الشيخ : عبد  
الرحمن المدني<sup>(16)</sup>. وفي شرح الصلاة المشيشية لابن عجيبة مزيد من التفصيل،  
وذلك حيث يقول :

«أبو محمد سيدنا ومولانا عبد السلام بن مشيش بالميم، وربما قيل بالباء، وإبدال  
الباء من الميم لغة مازنية، ومعناه الخادم الخفيف الصدق اللبيب ابن أبي بكر بن  
علي بن حرمة بن عيسى بن سلام بن مزوار، ومعناه بلغة البربر : بكر أبيه،  
واستعمل في رئيس القوم، بن علي بن حيدرة، وهو في الأصل إسم للأسد، بن  
محمد بن إدريس، بن إدريس... توفي رضي الله عنه شهيدا سنة اثنتين وعشرين  
وستمئة أو فيما بعده بقليل، قال ابن خلدون قتله في جبل العلم قوم بعثهم لقتله  
ابن أبي الطواجين...<sup>(16)</sup>».

قلت : وقد عدنا إلى «العبر» فوجدنا ابن خلدون يذكر الساحر أبا الطواجين  
ولكنه لا يشير إلى حادث مقتل المولى عبد السلام بل لا يرد اسم عبد السلام  
بن مشيش في العبر.

ولست أدري كيف وقع إسناد خبر مقتل ابن مشيش على يد الكاهن إلى ابن  
خلدون مع أنه لا أصل له فيما كتبه ابن خلدون عن الكاهن المذكور.  
لقد أجمع المتأخرون على أن أبا الطواجين قاتل ابن مشيش، وهذا نص آخر  
ورد في مرآة المحاسن :

«وتوفي الشيخ أبو محمد عبد السلام شهيدا سنة اثنتين وعشرين وستمئة فيما  
قليل، وقيل بعد ذلك، فيما قيل سنة ست وعشرين، قتله في «العلم» قوم بعثهم  
لقتله أبو الطواجين الكتامي السريفي الساحر المدعي النبوة إلى أن قال وكانت  
ثورة أبي الطواجين سنة خمس وعشرين وستمئة. قال ذلك كله ابن خلدون..»  
هكذا نرى أن جميعهم يسندون الخبر إلى ابن خلدون، وورد الخبر في أعلام

(16) جـ شرح المشيشية للخروبي.

(16) د شرح المشيشية لابن عجيبة.



المراكشي<sup>(16)</sup> هـ بنفس الصيغة. وتشير المصادر إلى أن شيوخ الولي ابن مشيش كثيرون ولكنها لا تسمى إلا واحدا وهو<sup>(16)</sup> : عبد الرحمن الحسين المدني العطار الزيات، والصلاة المشيشية، تؤكد أن كاتبها كان قد جمع بين علم الظاهر وعلم الباطن، إذ تكشف عن علم غزير وباع في التصوف كبير، وتروى عن أبي الحسن الشاذلي أقوال منسوبة للشيخ ابن مشيش. وهناك قصيدة في نحو مائة وأربعين بيتا منسوبة إليه، وموضوعها التوسل (وهي في مجموع بالمكتبة العامة بتطوان ومطلعها :

بدأت بيسم الله في أول السطر فأسمأؤه حصن منيع من الضر  
وصليت في الثاني على خير خلقه محمد المبعوث بالفتح والنصر  
لقد رأينا أن عامة المؤلفين في التصوف وغيره لم يشيروا إلى المولى عبد السلام، وسرى أن ضريحه لم يصر مقصودا من طرف الخاص والعام إلا بعد أن تمت شهرته على يد الصوفي أبي محمد عبد الله الغزواني، ونضيف الآن أن بناء الضريح لم يتم إلا سنة 1087 هـ، وذلك بناء على وثيقة هامة وقفنا عليها ضمن مجموع، ولاهمية هذه الوثيقة فإننا نثبتها فيما يلي :

«الحمد لله وحده، ومن خط الفقيه البركة، الخير، الأفضل، المقتفي آثار السادات الكرام البررة : سيدي الحاج محمد بن سيدي أحمد بن عبد الوهاب الشريف الحسيني نفعا الله به، وبصالح نسبه. آمين. مانصه :

الحمد لله، ليعلم الواقف عليه، أن كاتبه جالت أفكاره في بناء روضة القطب الكامل مولانا عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه فيما سلف عن تاريخه سنين عديدة تنيف على الخمس سنين، ووقع التراجع (كذا، ويقصد المراجعة) بين صلحاء الاشراف حفدة الشيخ (ولاحت ؟) أشواق قلوب أهل المحبة من خاصة وعامة، وحفدة الولي الصالح سيدي علي الحاج البقال رضي الله عنه، وقامت عزائم الجميع بصناعة البناء بعد الاستخارة والمشورة مع عالم الأمة : سيدي عبد القادر

(16) هـ الاعلام : 643 وهو مخطوط بالخزانة الحسنية، وغيرها وما سيرد ذكره في هذا البحث.

(16) و من بين شيوخه أيضا أبو مدين الغوث.

(16) العبر 197/6.



الفاسي، وموافقته على ذلك، ووقع الشروع في بنائها صبيحة يوم الأحد التاسع عشر من جمادى الثانية، سنة 1087 هـ. وقد كان كاتبه مع بعض أعماله قبيل صلاة الفجر أمام روضة الشيخ المذكور، وإذا بعلامة بيضاء لاحت علينا من ناحية الجنوب. وكان نورها أشرق من ضوء القمر، شاهد ذلك جميع من حضر بتاريخ اليوم المذكور والسلام.

انتهى من خط من نقله من خط السيد الحاج المذكور.

وأهم أثر مكتوب للمولى عبد السلام هو دون شك الصلاة المشيشية التي شرحها كثيرون منهم : الحروي، وابن زكري، وابن عجيبة وأبو بكر محمد بناني، وغيرهم.

ولابن عجيبة قصيدة صوفية بناها على الصلاة المشيشية، وسيرد نصها. ونعود فنتابع الحديث عن جبل العلم فنقول :

بعد أن تغلب بنو مرين « على بسائط المغرب وأمصاره سنة أربعين وستائة، واستولى على كرسي الأمر بمراكش سنة 668 » امتنع قبائل غمارة من طاعتهم واستعصوا عليهم، وأقاموا بمنجاة من الطاعة وعلى ثبج من الخلاف<sup>(17)</sup>، ولسنا نستبعد أن يكون ذلك بإيعاز من الاشراف العلميين وبتحريض منهم، وعلى أي حال، فسياق كلام ابن خلدون يؤيد هذا، ذلك أنه ساق هذا الخبر في الفصل الذي عنوانه بـ «الخبر عن دولة بن حمود ومواليهم في سبتة وطنجة وتصاريق أحوالهم وأحوال غمارة من بعدهم» من المعلوم أن تاريخ هؤلاء الأشراف ارتبط بتاريخ غمارة في كتب بعض الاقدمين، وقيام غمارة ضد بين مرين، بإيعاز من الاشراف فيما نرجحه، له ما يبرره، فالموحدون كانوا فيما رأينا. حلفاء لهم، يحظون طوال مدتهم برعايتهم كما أشار إلى ذلك ابن خلدون.

إن الاشراف العلميين في جبل العلم صاروا يكونون فئة اجتماعية متميزة، لها قوة تهاب، قال ابن الوزان : «جبل بني عروس : يجاور هذا الجبل القصر الكبير، ويمتد على مسافة ثمانية أميال شمالا، وعشرين ميلا غربا، عرضه ستة أميال، وسكانه أشراف وفرسان. كان هذا الجبل كثيف السكان، كثيرا الانتاج، لكن هؤلاء

(17) العبر 197/6.

الأشراف طغوا على السكان حتى غادروا الجبل منذ أن استولى البرتغال على أصيلا، ولم يبق فيه غير المداشر على المرتفعات، أما الباقي فغير مأهول، وكان دخل الجبل — يعني جبل بني عروس أو جبل العلم — فيما سبق يبلغ عادة ثلاثة آلاف مثقال..(18)

ومع ذلك لا يبدو لهم إلا أثر ضئيل في عصر بني مرين، وهذا غريب حقا ذلك أن عصر بني مرين عصر حظي فيه أشراف المغرب بعناية فائقة، لقد جعل بنو مرين من التقرب إلى آل الرسول (ﷺ) دعامة يستندون إليها، فأغدقوا على الشرفاء العطايا، وخصوهم بالجزايات، وأخبارهم في هذا الشأن معروفة على أي حال(19)، وقد أصاب الناصري حين قال : «كان بنو مرين أيام ولايتهم على المغرب يعظمون هؤلاء الأشراف الإدارة، ويوجبون حقهم، ويتقربون إلى الله تعالى برفع منزلتهم، وجبر خواطرهم لما فاتهم من رتبة الخلافة التي كانت تكون لهم بطرق الاستحقاق الشرعي، فكان بنو مرين لما جُبلوا عليه من الجنوح إلى مراسيم الدين وانتحالها يرون في أنفسهم كأنهم متغلبون مع وجود هؤلاء الأشراف، فلذا كانوا يخضعون لهم ويتأدبون معهم ما أمكن»(20).

(18) هذا النص الفريد على قصره بالغ الدلالة فيما نحن بصددده، فهو «يؤكد ما ذهبنا إليه من كون الأشراف أصبحوا يفرضون سلطتهم على الجهات التي أقاموا فيها بجبل العلم منذ أمد بعيد، يذكر أن مداشر فر أهلها عنها بسبب «طغيان» هؤلاء الأشراف، وإذا كنا لا نعرف شيئا عن أصحاب هذه المداشر الخربة، فإن الجبل يحتفظ إلى حد اليوم بخرائب وأسماء الأماكن، من المحتمل أن تكون هي المعنية، من ذاك : الاندلس، فألى عهد قريب كانت توجد خرائب وسط أدغال بقرب مدشر «تازية» من جبل العلم يطلق عليها اسم الاندلس، وفوق نفس المدشر توجد هضبة تحمل اسم «دوار العرب» غير أننا لا نعرف شيئا عن هؤلاء الاندلسيين والعرب الذين مروا بهذه الديار، وإن كنا نرجح أن خرائب الاندلس ترجع إلى الأندلسيين الذين خرجوا من الاندلس بعد سقوطها نهائيا، ومن أسماء المداشر بجبل «العلم» يبدو أن الجبل كان أهلا بالسكان البربر، فمن هذه الاسماء : تزية، تمزكيدة، أدرو، اغبالو أفرون، تيدة، أدياز... والاسماء العربية قليلة منها : ظهر الحائط، أبو علقمة، الحصن... أما لغة سكان العرب فهي أفصح اللهجات المغربية، فما تزال تحتضن جذورا لغوية لا توجد إلا في بطون المعاجم، وهذا الموضوع ما يزال بحاجة إلى دراسة مفصلة.

(19) ينظر في هذا، على سبيل المثال، لا الحصر، صنيع بني مرين مع الأشراف الحسنيين في سبتة في أزهار الرياض.

(20) الاستقصا 4/115.

وإذا كان الاشراف الادارسة وغيرهم ممن لم يذكرهم ابن السكاك (21) قد أصبحوا خلال عصر بني مرين ذوي امتيازات كبرى، فإن الشرفاء العلميين لا نجدهم من بين هؤلاء المستفيدين من الحكم المريني، ولعل ذلك راجع إلى الموقف الذي اتخذ هؤلاء الاشراف منهم في بداية دولتهم، فقد مر معنا أنهم قاوموهم واستعصوا عليهم وأقاموا بمناجاة من الطاعة» ولعل ذلك ما أغضب ملوك بني مرين عليهم، وكان ذلك السبب في كون المهتمين بالتأليف في موضوع الشرف والاشراف على عصر بني مرين لا يلتفتون إليهم ولا يذكرونهم، لقد كان الشرفاء في العصر المريني موضوعا لتأليف، من هذه التأليف : نصح ملوك الاسلام لابن السكاك، وللمؤلف كتاب آخر في نفس الموضوع أشار إليه في «النصح» و «إسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الام» للضرير المراكشي، وهو ما يزال مخطوطا، وحتى ابن الخطيب القسطنطيني المشتهر بابن قنفذ شارك في هذا الموضوع بكتابه : «تحفة الوارد في اختصاص الشرف من قبل الوالد» وهو ما يزال كذلك مخطوطا وشاركت نوازل العصر في الموضوع بما أفتاه بعض الفقهاء فيه. (تنظر في المعيار).

وقد رجعنا إلى «نصح ملوك الاسلام، فوجدنا مؤلفه يجعل الشرفاء طبقات، ويحصر الطبقة الأولى منهم في فرعين كبيرين هما : الصقليون والعمرانيون، ولا ذكر إطلاقا للشرفاء العلميين بينهم، ورأينا أن المؤلف ما فعل ذلك جهلا منه بالشرفاء العلميين، ولكن تمشيا مع سياسة الدولة المرينية التي تنكرت هؤلاء الشرفاء نظرا لموقفهم منها، ومهما يكن فقد رد على ابن السكاك غير واحد، وأنكروا عليه فعله، وفي هامش الطبعة الحجرية من «النصح» ردود للمسنوي، فلتنظر، ويظهر أن سياسة بني مرين عانوا من هؤلاء الاشراف وذلك ما دفعهم إلى احصائهم حسبما ورد في مخطوط يظهر أنه يتضمن تقارير وإحصاءات عن الشرفاء (21)، وحسب الدكتور محمد القبلي، فإن هذا الاحصاء كان رسميا، وقد تم سنة 709 هـ، وهناك إحصاء آخر للشرفاء الادريسيين بالمغرب ثم أيضا في هذا العصر على عهد أبي الحسن المريني، أي بعد الأول بسنوات (22). وليس

(21) انظر في موضوع الشرفاء على عهد بني مرين كتاب الدكتور محمد القبلي : Société,

Pouvoir et Religion, P. 292;

(22) نفس المصدر.



غريبا أن يقوم ملوك بني مرين بإحصاء الشرفاء فقد رأينا إلى أي حد كانوا يعتمدون عليهم في إضفاء الشرعية على حكمهم، ولكن الغريب حقا، أن يظل الشرفاء العلميون في الظل، ولكننا قدمنا تفسيراً لذلك نراه صائبا أو قريبا إلى الصواب. وكنا نتوقع أن يرد الحديث عن هؤلاء الاشراف أثناء عصر بني مرين، وهو العصر الذي بلغ فيه التصوف غايته، أثناء الكلام عن الصوفي : ابن مشيش، ولكن حتى هذا الصوفي لا تتم الإشارة إليه فيما بين أيدينا من كتب متصوفة. عصر بني مرين، وهي كثيرة<sup>(23)</sup>، ومهما يكن فإن ابن الوزان كان واضحا في حديثه عنهم، وقد أفاد، كما رأينا، بأنهم أصبحوا قادرين على فرض سيطرتهم على من جاوورهم، حتى إن مداشر خلت بسبب «طغيانهم» كما قال، ولعل هؤلاء الشرفاء، وقد رأوا تداعي أركان دولة بني مرين، وسقوط بعض المدن الشاطئية في يد الاسبان والبرتغال، فتمردوا على المرينيين<sup>(24)</sup> وجنحت أنفسهم من جديد إلى الاستقلال بجهاتهم وبما في أيديهم، فهم لا يدفعون ضرائب لآحد ولا يمثلون طاعة حاكم، وقد ساعدتهم على ذلك انشغال بني مرين عنهم ببعضهم، إذا كانوا يتقاتلون فيما بينهم على السلطان وتقلصت رقعة البلاد التي كانوا يحكمونها بحيث لم تكن تتجاوز سلطتهم في بعض الاحيان مدينة فاس، وقد استمر الاشراف العلميون على ما هم فيه من استقلال عن السلطة المركزية أثناء دولة بني وطاس فابن الوزان إذ يتحدث عنهم إنما زار ناحيتهم في بداية القرن العاشر للهجرة<sup>(25)</sup>.

ومع ظهور الاشراف السعديين<sup>(26)</sup>. تبدأ حلقة جديدة في تاريخ هؤلاء الاشراف، وذلك على المستويات السياسية والعلمية والادبية، ولعل أبرز حدث يشهدها جيل العلم في القرن العاشر هو «ظهور» ضريح المولى عبد السلام على يد الصوفي الكبير : عبد الله الغزواني تلميذ التباع ذائع الصيت<sup>(27)</sup>، لقد رحل

(23) وقد أشرنا إلى هذا فيما مضى.

(24) يفهم من كلام ابن الوزان أن الاشراف العلميين لم يكونوا في عهده يدفعون الضرائب لأحد، وهذا دليل على تمردهم، وعلى استقلالهم كما يفهم منه أيضا أنهم لم يكونوا يمثلون لسلطة معينة.

(25) وصف إفريقيا، المقدمة : 5

(26) لبعضهم كلام في شرف هؤلاء لا يهمننا.

(27) انظر عن الرجلين : تمتع الاسماع. مطبوع على الحجر وانظر أيضا ذيله، وهو مخطوط.



هذا الصوفي إلى قبائل جباله وأسس بها زوايا وزار ضريح الولي ابن مشيش، وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا بأنه إذا كانت شهرة ابن مشيش في المشرق كانت بسبب تلميذه أبي الحسن الشاذلي، فإن شهرته في المغرب إنما تمت على يد الصوفي الكبير : عبد الله الغزواني<sup>(28)</sup>، وابتداء من هذا التاريخ، تاريخ ورود الغزواني على الضريح، ستتقاطر ملوك المغرب وعلماءه وصوفيته على جبل العلم لزيارة الضريح المشيشي، وتطول قائمة هؤلاء إذا حاولنا حصر أسماء كل الزائرين<sup>(29)</sup>.

قد برز من الشرفاء العلميين على هذا العصر أعلام ترددت أسمائهم في كتب التراجم، ويبدو أن بعضهم تأقت نفسه لاستعادة أجداد الأوائل، وهكذا نجد بني راشد العلميين يؤسسون مدينة شفشاون غير بعيد من جبل العلم، ويرحل عدد من العلميين إليها وتصبح شفشاون بعد وقت قليل مركزا من مراكز العلم والجهاد<sup>(30)</sup>، وتبقى مع ذلك الصلة قوية بين الاشقاء وهكذا نجد عددا منهم يشدون الرحال إلى جبل العلم كلما أمكنهم ذلك.

وقد برز من العلماء رجال هذا القرن الاخوان : عبد الرحمن وعلي ابنا ريسون<sup>(31)</sup>، وهما من حفدة القطب ابن مشيش، غلب عليهما الزهد كما في الدوحة، ودفنا معا بتازروت بجبل العلم، ولابي الحسن منهما موقف معروف في الدفاع عن ابن عمه : ابن راشد العلمي، فلما قبض على هذا أبو حسون المريني وقف أبو الحسن الريسوني إلى جانبه حتى أطلق ورجع إلى حاله<sup>(32)</sup>.

(28) ظل ضريح المولى إدريس الاصغر لقرون «غير معروف» ولم يتم الكشف عنه إلا في أيام بني مرين، وهذا سبطه : المولى عبد السلام يظل ضريحه كذلك «غير معروف» طوال أزيد من قرنين إلى أن يتم كشفه على يد الصوفي (الغزواني)، إنها مصادفة غريبة تطرح أكثر من سؤال. وورد في شرح الصلاة المشيشية لابن عجيبة قوله : «ومن المنقول عن سيدي عبد الله الغزواني رضي الله عنه أن روضة مولانا عبد السلام مشتملة على ثلاثة قبور : الوسط منها هو قبر الشيخ والذي خلف ظهره قبر ولده سيدي محمد والذي بين يديه قبر خديمه..» بهذا نفهم أن أصحاب هذه القبور لم يكونوا معروفين قبل عصر الصوفي الكبير : عبد الله الغزواني..

(29) لنا عودة إلى هذا الموضوع كذلك.

(30) ينظر في هذا مرآة المحاسن.

(31) الدوحة : 18.

(32) الدوحة : 19.

ومنهم أبو القاسم بن عبد الله الحسني، إمام جامع تازروت<sup>(33)</sup> وهو من أشياخ ابن عسكر الحسني، ومنهم علي بن ميمون الحسني، وله كتاب «بيان غربة الاسلام...» انتصر فيه لآحياء السنة وامامته البدعة، وكشف أحوال المبتدعين من المصنفين، وبين التربية النبوية<sup>(34)</sup>، ومنهم عمر بن عيسى العلمي<sup>(35)</sup>، ومنهم أحمد بن محمد بن الحسن بن أبي القاسم بن الحسن بن محمد بن يحيى العلمي أو العلامي<sup>(36)</sup>.

لقد أصبح جبل العلم مركزا هاما من المراكز العلمية الهامة في المغرب، وتلزم الإشارة إلى أن البادية المغرب عموما، وابتداء من القرن للعاشر صارت تنافس بعلمائها كبريات العواصم العلمية التقليدية مثل فاس، وذلك كله بفضل المتصوفة وزواياهم، فقد كانت الزوايا المنتشرة في البوادي النائية بمثابة مراكز تعليمية حقيقية أخرجت فطاحل العلماء، وكفي في هذا الباب أن نشير إلى ما أخرجته الزاوية الدلائية والزاوية الناصرية.

وإذا كنا لا نعرف طبيعة العلاقة التي كانت بين أشراف جبل العلم وبين ملوك الدولة السعدية، فإننا انطلاقا من بعض الاشارات في «مناهل الصفا»<sup>(37)</sup>، يمكن القول بأنها كانت علاقة حسنة، ففي الكتاب المذكور نجد مؤرخ الدولة السعدية : عبد العزيز الفشتالي يسرد خبر قيام أحد الاشراف العلميين بمطاردة دعي متمرّد على الدولة يبغى بذلك اليد على الدولة، فيما قال الفشتالي.

ويبدو أن أحد الطامعين، على هذا العصر، لما رأى لهؤلاء الاشراف من جاه وتمكن في القلوب قصدهم وانتسب إليهم، وهو في كل ذلك يريد إضفاء الشرعية على دعوته<sup>(38)</sup>، وقد انكشف أمره ولكن بعد أن أظلم الجو به الشرفاء العلميين والسلطان أحمد المنصور الذهبي.

---

(33) الدوحة : 19.

(34) الدوحة : 29.

(35) الدوحة : 17.

(36) الدرة : 101/1.

(37) مناهل الصفا : ص 94/9.

(38) المقصود بالدعي هو ابن قراقوش. انظر : مناهل الصفا : 93.

ومهما يكن فإن مرحلة الازدهار بالنسبة لاشراف جبل العلم إنما ستحل بمجيء الاشراف العلويين<sup>(39)</sup>.

لقد قام أشراف جبل العلم بدور بارز في ظل الدولة العلوية الشريفة. بحيث لا نبالغ إذا قلنا بأن جبل العلم غدا مع مجيء العلويين عاصمة من عواصم الدولة، وسنرى أن عددا هاما من الملوك العلويين وفدوا على جبل العلم، ومنهم من أقام فيه بين أبناء الجبل من الاشراف، ولا نعرف متى تم اتصال أشراف جبل العلم بملوك الدولة العلوية، ولكننا نستطيع أن نؤكد أن ذلك كان في المراحل الأولى لتأسيس الدولة العلوية، الشريفة ففي ظهير ملكي صدر عن المولى إسماعيل، لصالح هؤلاء الاشراف، ما يؤكد ذلك، ونرى أن ندرج هنا هذه الوثيقة الهامة التي ستلقي، دون شك أضواء كاشفة على الصلة الحميمة بين ملوك الدولة العلوية وأشراف جبل العم.

وقبل ذلك نحب أن نعرض على الأسباب التي أدت إلى إصدار هذا الظهير السلطاني.

لما كان لأشراف جبل العلم تلك المكانة التي تحدثنا عنها، فقد التجأ إليهم الناس أفرادا وجماعات بقصد الاحتماء بالضريح المشيشي، وبحرم الاشراف العلميين، ومن هؤلاء الملتجئين إلى الحرم المشيشي : أبو عبد الله محمد بن عمر لوقاش<sup>(40)</sup>، وعشعاش وغيرهما<sup>(41)</sup>، ولما صدر الأمر بتمليك العبيد<sup>(42)</sup>، لجأ عدد منهم إلى جبل العلم، ولاذوا بالاشراف، فرارا من القائد سعيد الزيراري، فطلبهم الزيراري من الاشراف العلميين، فرفضوا «على جري عاداتهم في مثل هذه الأمور» فأصر، فما كان من شرفاء جبل العلم إلا أن بعثوا بأعيانهم إلى السلطان المولى إسماعيل،

---

(39) يلتقي الاشراف العلويون والعلميون في عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي ابن أبي طالب (ض). تاريخ الدولة السعيدة. للضعيف : 6

(40) الاستقصا : 6/8، وانظر تاريخ تطوان للمرحوم محمد داود 94/3.

(41) في تاريخ تطوان المذكور ذكر لجماعة لجأوا إلى الضريح المشيشي واحتما به.

(42) عن هذا الحدث وما أدى إليه، يستحسن الرجوع إلى تاريخ الدولة السعدية ص 79، 83،



وأبلغوه ما أصابهم، فكان هذا الظهير السامي الذي يؤكد «حرمة» أشرف جبل العلم، ونص الظهير :

«الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

يستقر هذا الظهير الكريم، والأمر المحتم الصميم، بيد حملته شرفاء جبل العلم أولاد مولانا عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه وغيرهم من إخوانهم وأبناء عمهم، يتعرف منه وصيفنا سعيد الزيراري وغيره من قوادنا وولاة أمرنا المطاع بالله، أنهم لما وردوا على مقامنا ساحتناهم ورددنا عليهم ما لهم وأقررناهم على حرمتهم المعهود وأجريناهم على المألوف من عوائدهم، توقيرا واحتراما، بحيث لا تقرب لهم ساحة، ولا يطوف أحد حولهم أو بجانبهم بمكروه وليس لاحد يد عليهم كائنا من كان، فمنهم إلينا ومنا إليهم في كل شيء، وكذلك فيما انحاش إلى حرم جدهم المذكور من الحراطين وغيرهم، ونامر وصيفنا سعيد الزيراري المذكور أن ينتقل عن «عزائهم»، ويتجافى عنها بعد رده لهم ما لهم عن آخره، وعليه بالمشي إلى مكة حافيا راجلا إن ضيعت لهم قلامة ظفر...، وأنت أخبر. والسلام(43).

والظهير مؤرخ بجمادى الثانية عام 1121 هـ.

وقوله — في الظهير — «وأقررناهم على حرمتهم المعهود وأجريناهم على المألوف عن عوائدهم...» يفيد أنه كان لهؤلاء الشرفاء العلميين من أبناء المولى عبد السلام وأبناء أخويه : سيدي موسى وسيدي يملاح، وهم الذين يجاورون الحرم المشيشي «حرم» معهود من زمان، ولذلك فإن الظهير إذن جاء ليؤكد تلك «الحرمة» وفي قوله «فمنهم إلينا، ومنا إليهم» دلالة على التقريب والتمكين الذي كان لهؤلاء الشرفاء عند المولى إسماعيل.

وفي الظهير تهديد ووعد لسعيد الزيراري الذي تجرأ على «الحرم المشيشي». لقد كانت عناية المولى إسماعيل بالشرفاء العلميين كبيرة دون شك، ولذلك

---

(43) أصل الظهير في الروض المنيف لمولاي عبد الله الوزاني، وفي غيره، وقد نقلناه عن تاريخ تطوان 38/2.

نجده يأمر العلماء في التأليف في أنساب الشرفاء العلميين، وكان من ثمرة ذلك كتابان أحدهما لابن ريسون<sup>(44)</sup> والثاني لابن رحمون، وكان من نتيجة هذا الاهتمام أن أخذ العلماء والأدباء يشدون الرحال إلى ضريح ابن مشيش ويكتبون عنه<sup>(45)</sup>، ولا شك في أن الشرفاء أصبحوا فئة اجتماعية ذات امتيازات اقتصادية واجتماعية وذات تأثير خاص، وليس من الغريب أن يحتمي بهم الناس من كبار الولاة والقواد، فيجدون حماية، حيث لم يكن أحد ليتجرأ على المس بهم<sup>(46)</sup>.  
هذا ولعل أول ملك علوي زار الضريح المشيشي هو المولى المستضيء، وذلك أنه قصد الضريح بعد أن شغب عليه العبيد كما قال عباس بن إبراهيم المراكشي (الاعلام 260/7).

وستزداد أهمية شرفاء الجبل مع مجيء المولى اليزيد بن سيدي محمد بن عبد الله إلى الحرم المشيشي<sup>(47)</sup>، والاقامة فيه مدة بين الشرفاء، ولما رجع المولى اليزيد من المشرق قصد الجبل وأقام بين أشrafه إلى أن توفي والده السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وكان شرفاء جبل العلم أول من بايعه، وبذلك يتحول جبل العلم إلى عاصمة ثانية للدولة، وفي ذلك يقول الناصري : «لما توفي السلطان سيدي محمد رحمه الله في التاريخ المتقدم<sup>(47)</sup> وبلغ خبر موته المولى يزيدي، وهو بالحرم المشيشي بايعه الاشراف هنالك وسائر أهل الجبل»...<sup>(48)</sup>.

ومن الطبيعي أن تنشأ صلات وثيقة بين الشرفاء والمولى اليزيد، لقد اختار المولى اليزيد من هؤلاء الشرفاء حاشيته وحرسه الخاص وأصبح الشرفاء خاصة وأهل الجبل عامة أقرب الناس إليه يسيرون في ركابه، ويحاربون معه، يقيمون معه حيث أقام ويرحلون معه حيث رحل، وهكذا نجدهم معه في حصار سبتة وكاد المولى اليزيد رحمه الله أن يحررها لولا طوارئ داخلية منعت من إتمام المهمة، وعن

(45) منهم ابن زاكور وله : التلذذ بالالم في جوار جبل العلم.

(46) قائمة هؤلاء طويلة، وينظر أسماء بعضهم في تاريخ الدولة السعيدة للضعيف، وتاريخ تطوان للمرحوم داود. .

(47) يعني سنة 1204.

(48) الاستقصا 76/8، وانظر تاريخ الدولة السعيدة 203 وما بعدها.

العلاقة الوطيدة بين المولى اليزيد وشرفاء الجبل وسكانه يقول المرحوم داود :  
«وكان أهل هذه الناحية من شمال المغرب قد عرفوا المولى اليزيد من قبل وذلك  
حينما كان متحصنا بالحرم المشيشي في جبل العلم من قبيلة بني عروس الجبلية،  
فأروا فيه من الفتوة والنخوة والشهامة والشجاعة والكرم ما حبه إليهم، فلما تولى  
وصار أمر المغرب إليه، فرح أهل هذه الناحية فرحا عظيما، وكان الشرفاء العلميون  
أكثر الناس ابتهاجا به لأنه كان لديهم، وكانوا أهم أنصاره والحامين له، لأنه التجأ  
إليهم و«احترم» بحمدهم(49).

وعن السلطان المولى اليزيد وصلاته بجبل العلم يقول الضعيف : «هو أمير  
المومنين مولانا اليزيد بن أمير المومنين مولانا محمد بن أمير المومنين مولانا عبد  
الله بن أمير المومنين مولانا إسماعيل بن الشريف علي، بويع له بالخلافة بعد دفن  
أبيه السلطان : أبي عبد الله سيدي محمد رحمه الله بحضرة رباط الفتح(50).

واتفق على بيعته العلماء والفقهاء والاشراف ورؤساء الحوز من دائرة أبيه...  
ثم يقول بعد كلام : وفي العاشر من شعبان بعث مولانا اليزيد لأهل سلا والرباط  
أن يخرجوا أباه من القبر فيحملونه ويمرون به «لدفنه بجبل العلم بضريح مولانا  
عبد السلام بن مشيش، فراجع أهل الرباط مع الرحامي وطلبوا منه أن يتركه  
بركة في بلادهم...»(51).

وأثناء إقامة المولى اليزيد بالضريح المشيشي كان يؤذن للصلاة في أوقاتها  
بنفسه(52)، ولما كان عزم على البقاء بالضريح، فإنه قد شرع في بناء سكن يليق  
بأهله، وما تزال أطلال قصره ماثلة للعيان إلى اليوم بين الضريح ومدشر :  
«الحصن»، غير بعيد من هذا الأخير. وبعد وفاته رحمه الله ترك أهله بين الشرفاء،  
وهو أمر له دلالة في بيان مدى الثقة التي كانت له في شرفاء جبل العلم من

---

(49) إن علاقات شرفاء جبل العلم الوثيقة بالسلطان المولى اليزيد وما قام به هؤلاء في دعم الدولة  
على عهده يحتاج إلى بحث خاص.

(50) هذه البيعة في حقيقة الأمر هي البيعة الثانية، أما البيعة الأولى فكانت في جبل العلم، ومن  
لدى الاشراف العلميين، وهذا ما نص عليه غير واحد.

(51) تاريخ الدولة السعيدة : 203، 206.

(52) تاريخ الدولة السعيدة : 196.



جهة وفي تأكيد إخلاص هؤلاء الشرفاء له، وعن جهاد أشراف الجبل في جيش المولى اليزيد وحصارهم سبتة يقول المرحوم داود : « كان للمولى اليزيد بن محمد بن عبد الله أصدقاء وأنصار في هذه الناحية الشمالية من المغرب، وخصوصا من الأشراف العلميين... ثم لما آل أمر المغرب إليه حاصروا معه مدينة سبتة ».

ولعله من المفيد أن نذكر أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان قد عزم على زيارة الجبل والاتصال بنجله الأمير — اذ ذاك — المولى اليزيد، وقد أدركته الوفاة بالرباط، وهو في الطريق إلى الضريح المشيشي.

ويتجلى وفاء شرفاء جبل العلم للسلطان المولى اليزيد في وفائهم لآل بيته، فلما قامت حركة «المولى إبراهيم بن اليزيد — لم يكن غريبا أن تجد تلك الحركة من هذه النواحي ترحيبا ونصرة، فإن كثيرا من رجالها وقادتها كانوا ما يزالون يذكرون صديقهم المولى اليزيد وجهاده، وكانوا يحنون إلى من يقوم مقامه في الشجاعة والجهاد، فلا عجب إذا هم رحبوا بحركة أنصار المولى إبراهيم ثم المولى سعيد ابني اليزيد...» (53).

وبعد المولى اليزيد قصد جبل العلم عدد هام من ملوك الدولة العلوية المجيدة وأمرائها ومن هؤلاء الأمراء :

— المولى مسلمة : لقد أقام المولى مسلمة مدة في الجبل بين الشرفاء العلميين، وصار العلميون بسبب ذلك من خاصته وذلك في أيام أخيه المولى هشام بن السلطان سيدي محمد بن عبد الله في بيعته الثانية، وقد ظل المولى مسلمة في جبل العلم حتى وافاه خبر موت شقيقه السلطان المولى هشام، ولما دعا المولى مسلمة إلى نفسه وقف العلميون إلى جانبه يناصرونه ويحاربون في صفه، وبمجرد ما وصله خبر موت والده السلطان المولى اليزيد، وكان إذ ذاك بجبل العلم أعلن نفسه سلطانا فبايعه الأشراف وأهل الجبل عامة واتفقت كلمتهم عليه (55)، وجاء في أرجوزة

(53) تاريخ تطوان 261/3، وانظر أخبار المولى إبراهيم وسعيد ابني اليزيد في الاستقصا 148/8 — 152.

(54) تاريخ الدولة السعيدة : 229، 239.

(55) الاستقصا 86/8، ويصف الضعيف حادث إعلان المولى مسلمة نفسه سلطانا على المغرب فيقول : «ولما وصل له خبر موت أخيه — يعني اليزيد — نزل من جبل العلم با «النوبة» =

أفيلال يذكر فيها معركة خاضها المولى مسلمة والشرفاء العلميون في جانبه فيقول :  
حدثني نقله الاخبار ذوو الفضول عن أبي عمار  
عن ابن زيد أن مولاي مسلمة جمع من لاذ به واحترم  
وجمع الاشراف من أهل الجبل<sup>(56)</sup>...

ومعلوم أن المولى مسلمة عاد في نهاية أمره إلى المشرق وهناك توفي رحمه الله.  
— المولى سليمان بن السلطان سيدي محمد بن عبد الله : قدم السلطان المولى  
سليمان إلى جبل العلم في حياة أخيه المولى اليزيد، وبعد رحيل المولى مسلمة إلى  
المشرق بعث الشرفاء ببيعتهم إلى المولى سليمان بن سيدي محمد بن عبد الله «بعد  
أن توقفوا عن بيعته مدة يسيرة لأنهم كانوا قد بايعوا المولى مسلمة كما مر»<sup>(57)</sup>.  
ويعتبر المولى سليمان شأن أخيه المولى اليزيد من كبار سلاطين الدولة العلوية،  
رغم ما عرفه عصره من حركات تمرد في الشمال والجنوب<sup>(58)</sup>، اذ استطاع أن  
يسترجع وجدة وأعمالها من يد الترك، ودخلت تلمسان على عهده، تحت بيعته  
وقد وصفه الناصري فقال :

«كان هذا السلطان رحمه الله موصوفا بالعدل، معروفا بالخير مرفوع الذكر  
عند الخاصة والعامة، وقد ألقى الله عليه من المحبة فأحبتة القلوب، ولهجت به  
الألسنة لحسن سيرته وطيب سريره واتفق له في أواسط دولته من السعادة والأمن  
والعافية ورخاء الاسعار وابتهاج الزمان وتبلغ أنوار السعد والاقبال ما جعله الناس  
تاريخا وتحديثوا به دهرا طويلا، حتى صارت أيام السلطان المولى سليمان مثلا في  
السنة العامة ولقد أدركنا — يقول الناصري — الجم الغفير ممن أدرك أواسط  
دولته، فكلهم يثني عليها بملء فيه...»<sup>(59)</sup>.

= من طبالي طنجة وطبول أهل الجبل من بني يوسف والناس ورائه وهم يقولون : «الحمد  
لله والشكر لله، ما خاب عبد نصر مولاه، وأقام بزاوية «تزروت» عند الشرفاء... وتزوج  
منهم...» ص 241.

(56) تاريخ الدولة السعيدة : 226

(57) الاستقصا 87/8.

(58) من أشهر هذه الحركات حركة عبد السلام الخمسي المعروف بزيطان.

(59) الاستقصا 112/8

— المولى الرشيد وأخوه المولى جعفر ابنا السلطان المولى سلامة :

مر معنا أن المولى سلامة أقام بجبل العلم إلى أن وافاه خبر وفاة السلطان المولى اليزيد، أخيه، إذ ذاك دعا إلى نفسه، وبايعه الاشراف ونزل إلى طنجة في موكب ملوكي<sup>(60)</sup>، وكان مع المولى مسلمة في جبل العلم في جملة أهله ابناه : الأمير الرشيد والأمير جعفر، وما كان المولى سلامة يعلن نفسه سلطانا حتى بعث ولديه الاميرين : الرشيد وجعفر المذكورين إلى تطوان بقصد إلقاء القبض على عشعاش التطواني، على أن عشعاش نجا بنفسه إذ فر إلى الضريح المشيشي، وشفع فيه الاشراف، وفي هذا دلالة بالغة على مدى «حرمة» جبل العلم ومكانة أهله، فلا يكاد الخائف يصل إليه مهما كان جرمه حتى يصير في مأمن.

— ربة الدار العالية : المولاة فاطمة بنت المولى سليمان : كان المولى سليمان كما مر، زار جبل العلم، ولعله أقام فيه هو وأهله مدة، وهذه كرمته : المولاة فاطمة يجذبها الشوق إلى الضريح المشيشي، فتشد الرحال إلى جبل العلم، وذلك في سنة 1179، ولنترك الناصري يقص رحلة الاميرة :

«وفيه<sup>(61)</sup> قدمت ربة الدار العالية المولاة فاطمة بنت سليمان من مراکش إلى فاس بقصد الزيارة، فركبت ذات ليلة إلى ضريح المولى إدريس رضي الله عنه، وضريح الشيخ أبي الحسن علي بن حرزهم وضريح الشيخ أبي عبد الله التاودي، فطافت عليهم وتبركت بتربتهم وذبحت أكثر من مائة ثور، وأخرجت صدقات كثيرة، ثم خرجت بعد ذلك إلى مدينة صفرو فزارت ضريح سيدي أبي سرغين وضريح سيدي أبي علي، وذبحت وتصدقت وعادت إلى فاس، ثم ذهبت إلى زيارة الشيخ عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه، فصحبها في ركابها أعيان فاس وأشرفها وعلمائها، ولما كانت بأثناء الطريق اعترضها قواد المغرب بهداياهم ونشاراتهم وزيتهم ووافها قواد الثغور بضريح الشيخ عبد السلام في مواكبهم وخيلهم ورجلهم، وذلك عن أمر من السلطان رحمه الله.

قال صاحب «البستان» : «وكنتم يومئذ واليا على العرائش فحضرت في

(60) تاريخ الدولة السعيدة : 241

(61) أي في سنة 1179 هـ



جملتهم، ولما قضت أرباب الزيارة فرقت الأموال على الاشراف من أهل جبل العلم، وغمرت الناس بالعطايا، ثم عادت إلى القصر... وكان فعلها هذا من الآثار العظيمة والمناقب الفخيمة رحمها الله»<sup>(62)</sup>.

— السلطان المولى الحسن الأول: <sup>(63)</sup> اشتهر السلطان المولى الحسن الأول بكثرة «حركاته»<sup>(64)</sup> في ربوع المغرب، وقد وصل إلى الضريح المشيشي في حركته الخامسة عشرة، ووصف الناصري هذه الحركة، وهو معاصر لها : فقال : «ثم دخلت سنة 1306 هـ فيها غزا السلطان جبال غمارة، فخرج من حضره فاس عاشر شوال من السنة المذكورة، فسلك تلك الجبال وأدخلها وزار تربة الشيخ الأكبر والكبير الأحمر أبا محمد عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه، ثم تقدم إلى مدينة تطوان فدخلها يوم الأربعاء ثامن المحرم من السنة التي تليها، أعلن سنة سبع وثلاثمائة وألف فأقام بها نحو الخمسة عشر يوما وزار صلحاءها وتطوف في معالمها»<sup>(65)</sup>، وقد تحدث عن هذه الحركة والزيارة أيضا ابن زيدان في الاتحاف، ووقف عندها الباحث الفرنسي: René Brunel:

فذكر أن المولى الحسن زار ضريح المولى سيدي هدى أو المهدي وقدم للقاءمين على الضريح هدية مالية برسم بناء الضريح، غير أن مقدم الضريح رأى أن يصرف هذا المال في أبواب أخرى.

تركت زيارة مولاي الحسن الأول إلى الضريح المشيشي صدى ظل يتردد إلى حدود سنوات قريبة<sup>(66)</sup>، من صداها ما ظل «هداوة» سيدي هدي أو المهدي، يرددونه، وقد جمع الباحث الفرنسي المذكور بعض حكايات هداوة عن الزيارة الحسينية إلى الضريح المشيشي، وهي في عمومها تدل على الأثر العميق الذي تركته

(62) الاستقصا : 26/25/8

(63) بويق السلطان الأكبر المولى الحسن الأول بعد وفاة والده، وكان والده قد استخلفه في حياته وألقى عليه بجميع مهماته فيما يقول الناصري، وكانت بيعته رحمه الله بمراكش.

(64) فصل القول فيها ابن زيدان في الاتحاف وعنه الأستاذ محمد أعقيف في بحث له بمجلة كلية الآداب بالرباط 7/ع

(65) الاستقصا : 201/8

(66) ولقد أدركنا أناسا عاصروا المولى الحسن الأول، وعاشوا أحداث هذه الزيارة.

زيارة المولى الحسن الأول في نفوس أهل الجبل<sup>(67)</sup>.

ولعلنا أدركنا الأهمية الكبيرة التي كانت لجبل العلم ولاشرافه على عهد الدولة العلوية الشريفة، ومن ثم جاز لنا القول إن هذا الجبل دخل التاريخ من بابه الواسع بظهور الدولة العلوية، لقد «لعب» أهله كما رأينا أدوارا هامة، وأثروا تأثيرا مباشرا في الاحداث السياسية التي عرفها المغرب خلال القرون الأربعة الاخيرة، ويقينا أن الكشف عن كل ما قام به أشرف جبل العلم خلال تلك القرون يحتاج إلى مزيد من البحث، ذلك أن غاية ما قمنا به هنا هو التمهيد لبحث مركز يكون موضوعه : **جبل العلم في ظل الدولة العلوية المجيدة**.

ولم ينحصر أثر جبل العلم وأشرافه في المجال السياسي وإنما تعدى ذلك إلى الميادين العلمية والادبية، وقبل أن نقف عند ذلك نرى من المفيد أن نذكر بعض مشاهير الأعلام الذين قصدوا جبل العلم للاجتماع بأشرافه، وقصدنا من ذلك الوقوف عند جانب آخر من جوانب الموضوع.

لقد أصبح جبل العلم وأشرافه كما أشرنا إلى ذلك، «حرما» آمنا يلوذ به العائد مهما كانت جنابته وسبب خرفه، والذين لجأوا إليه كثيرون، من أشهرهم : — أبو عبد الله محمد بن عمر لوقاش<sup>(68)</sup>، كان «من أعيان تطوان في القرن الثاني عشر وكان قد ولي الحكم بها مدة، وكانت وفاته ودفنه بجبل العلم قرب ضريح الشيخ أبي محمد عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه»<sup>(69)</sup>، وسبب خوفه ولجؤه إلى الضريح ما ذكره الناصري، إذ قال : «فلما بويع السلطان سيدي محمد (بن عبد الله) وقدم حضرة فاس، انقبض عنه الوقاش المذكور، وعاد بضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش بماله وولده خوفا على نفسه من السلطان لسوء ما قدم...»<sup>(70)</sup>.

(67) سيدي هدي أو المهدي، كما سنرى بعد قليل، ينحدر من صلب مولاي علي الشريف. ذكر ذلك مؤلف الدرر البهية : أبو الاعلى الادريسي ومؤلف الشجرات الزكية، وحلاه هذا الأخير بالعالم الشهير والقطب الكبير.

(68) الاستقصا 6/8، تاريخ تطوان 94/3

(69) تاريخ تطوان 94/3

(70) استقصا 6/3

— ومن المحتمين بالضريح المشيشي محمد بن العروسي الدكالي<sup>(71)</sup>، وقد ورد على الضريح من دكالة بعدما صدر منه ما يوجب خوفه من السلطان المولى اليزيد، فلم يجد وسيلة للخلاص غير الاحتفاء بالضريح المشيشي وبالشرفاء العلميين.

ومنهم محمد بن عياد الدغمي<sup>(72)</sup>، وكان من خاصة السلطان سيدي محمد بن عبد الله<sup>(73)</sup>، وهو من أسرة ارتبطت ببعض الاحداث التي عاشها المغرب على عهد الدولة العلوية، اشتهر منهم بوشعيب بن عياد الدغمي، وعياد الدغمي، وهذان قبض عليهما وهما في طريقهما إلى الضريح المشيشي للاحتفاء به إلى جانب أخيه محمد بن عياد الدغمي المذكور<sup>(74)</sup>.

— ومن الوافدين على جبل العلم بقصد الاحتفاء بشرفاء جبل العلم عشعاش<sup>(75)</sup>، وكان السلطان المولى مسلمة بعث ولده الرشيد إلى تطوان من جبل العلم ليقبض عليه. فأنزله هذ عنده وأكرمه وفي الليل هرب إلى جبل العلم، وكان ذلك في بداية دولة المولى مسلمة، إثر مبايعته بالخلافة بجبل العلم من قبل الشرفاء لما وصل الخبر بموت السلطان المولى اليزيد.

ومن اللاجئين إلى شرفاء جبل العلم الباشا أحمد بن علي بن عبد الله الريفي<sup>(76)</sup>، وهو أحمد بن علي بن عبد الله بن حدو الريفي من أولاد حمامة، «ثار ببلاد الفحص وكان يحكم مائة قبيلة»<sup>(77)</sup>، «وكان شديد الوطأة على الضعفاء المساكين واليتامى ويحب العنان والطغاة والظلماء»<sup>(78)</sup>، كان يعد نفسه للملك، فصنع لنفسه سريرا مموها بالذهب أنفق عليه مالا عريضا في أوربا ثم ادعى الشرف «وقال إنه من أولاد مولانا عبد السلام بن مشيش نفع الله به» يحكى عنه مؤلف

---

(71) تاريخ الدولة السعيدة 220، الاستقصا : 97/8

(72) تاريخ الدولة السعيدة 221

(73) تاريخ الدولة السعيدة 201

(74) تاريخ الدولة السعيدة 224

(75) تاريخ الدولة السعيدة 239، وانظر تاريخ تطوان.

(76) تاريخ الدولة السعيدة 143، الاستقصا

(77) تاريخ الدولة السعيدة 143

(78) تاريخ الدولة السعيدة 143



تاريخ الدولة السعيدة حكاية غريبة تدل عن طغيانيه، تنظر عنده<sup>(79)</sup>، وكان مصيره القتل بعد حروب ضارية<sup>(80)</sup>.

هذا وليس غرضنا استقصاء أسماء كل من لاذ بجبل العلم وشرفائه، ولذلك نكتفي بالأسماء المذكورة فهي وحدها كافية لاضاءة هذا الجانب من تاريخ جبل العلم، وبذا يتأكد لنا مرة أخرى أن تاريخ جبل العلم يكون حلقة هامة في سلسلة حلقات التاريخ المغربي، وخصوصا في القرون الأخيرة. وليس غريبا بعد هذا كله أن يثير جبل العلم فضول الأوروبي، فيوفدون بعثات سرية إليه، وتكثر هذه البعثات في القرن التاسع عشر أي في الفترة التي كان فيها الاسبان والفرنسيون على الخصوص يستعدون للانقضاض على أطراف المغرب، ومن أجل التعرف على البلد وتاريخه وعوائده وطرقه ومسالكه تكلف عدد من الباحثين، وتحت غطاء البحث العلمي أو التجارة أو غير ذلك، بهذه المهمة، وكان من ثمار ذلك كله عدد وافر من المؤلفات الأوروبية التي تنصب كلها على دراسة منطقة جباله تاريخا وعادات وتقاليد، ولم يكن بطبيعة الحال حب الولي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه، هو الذي دفع عددا من الأوروبيين إلى الكتابة عنه<sup>(81)</sup> لقد أدرك هؤلاء الأوروبيون أن ما يحظى به شرفاء جبل العلم إنما مرده إلى هذا القطب الصوفي، ومن الاسبان الذين دفعهم «الفضول» إلى رؤية ضريح ابن مشيش في القرن التاسع عشر، فنصل إسبانيا بالعرائش : تيودورو دي كويباس... Teodoro De Cuevas، وسجل حفيده رحلته إلى جبل العلم، وقد تمت سنة 1880 م، وفيما يلي ترجمة مقدمتها :

«في سنوات 1880 م كان هناك اعتقاد سائد، على الأقل بين الجالية الأوروبية بأنه يستحيل على أي أوروبي أن يصعد إلى جبل العلم ثم يعود حيا من هذه المغامرة.

#### (79) تاريخ الدولة السعيدة 143

(80) انظر أخباره في الاستقصا : 150/7، 183 وقال عنه الناصري : «وقد خلف هذا الريفي آثارا كثيرة بطنجة وتطاوين وأعمالها من أبنية وغيرها تشهد بعلو همته، رحمه الله»، وقد ولي الريفي رئاسة المجاهدين في أيام المولى إسماعيل.

(81) انظر ما كتب عنه في الموسوعة الإسلامية الجديدة (بالفرنسية) وما كتبه عنه بروكلمان في ذيل كتابه عن تاريخ الأدب العربي، ومن الكتب المؤلفة حول جباله كتاب حول طرق جباله

يحتفظ هذا الجبل بجثمان مولاي عبد السلام بن مشيش، وهو أحد أقطاب الاسلام، وبين ضريحه والعالم الخارجي يقف السكان كحاجز لا يمكن اختراقه. في ذلك الزمن القديم شعر القنصل الاسباني، وكان قد مر على وصوله إلى المغرب عشرون سنة، برغبة لا تقاوم نحو القيام بمغامرة (لزيرة الضريح) فقرر القيام برحلة إلى الضريح برفقة بعض أفراد عائلته وأصحابه...» (82).

وقد زار ضريح ابن مشيش عدد كبير من علماء المغرب وصلحائه، ونظم بعضهم شعرا في مدحه والتوسل به، وما نظم في هذا الباب يملاً ديوانا شعريا كبير الحجم (83).

وسنكتفي هنا بذكر بعض الأعلام البارزين الذين زاروا الضريح، مع إثبات بعض ما صدر لهم في باب التوسل بالولي الصالح : المولى عبد السلام بن مشيش. — أبو علي اليوسي : خرج اليوسي من فاس قاصدا ضريح الولي ابن مشيش سنة 1083، فزار الزوايا التي صادفته في طريقه، ونقتطف من كتابه «المحاضرات» هذا النص الشيق الذي يتحدث فيه اليوسي عن زيارته ويورد فيه فوائد هامة عن لغة أهل الجبل :

«من جملة ما اتفق لي في هذه السفرة لزيارة الشيخ عبد السلام ابن مشيش، رضي الله عنه، أني سمعت لغة لأهل تلك الجبال، يكسرون آخر الموقوف عليه فتتبعها استقراء فوجدتها لها ضابط، وقد رأيت غيرهم من أهل الآفاق يسمعون عنهم ذلك فيحكونه على غير وجه، وينسبون إليهم ما لا يقولون جهلا منهم بضوابطها، فإنهم لا يكسرون إلا الفتحة بعدها ألف، أما الألف المقصورة كالدينيا، أو الممدودة كالسمااء والطلباء والشرفاء، أو الاصلية كالياء، أو المقلوبة عن هاء التأنيث في مجرى العرف كالبقرة والشجرة، والصفحة، فإن العوام من غيرهم يقولون في الوقف على هذه : البقرا، والشجرا، بألف، وهؤلاء يكسرون، فيقولون : البقري، والشجري، وتنقلب الالف ياء، وهذا كله في الوقف، فإن

(82) Recuerdo de Viejo Marruecos Una Exursión al Yebel Alam Ceudadaronos de la Bib. Espanole de Tétuán) Por : Teodoro Ruiz de Cuenes

(83) جمعنا منذ مدة مجموعا شعريا عنوانه بـ «المدائح المشيشية» نسأل الله أن ييسر الأسباب لظهوره.

وصلوا نطقوا بالالف كغيرهم وإن لم يكن الفتح، ولا الألف، كالشجرة والبقر، مراداً به الجنس وقفوا بالسكون كغيرهم، وإني لما تأملت ذلك من كلامهم وحقيقته في أقرب مدة، اتضح عندي معنى الاستقراء في نحو هذا بالمشاهدة، وعلمت كيف كان أئمة العربية القدماء يستقرون النحو واللغة من أفواه العرب، ويضبطون هذه القمة، فلا يقل جاهل : مالنا ولهذه اللغة ؟ فلتعرف أو لا تعرف...»

والشيخ اليوسي كان شأن معاصريه كثير الاعتقاد في الأولياء، يحرص أشد الحرص على زيارتهم، ومدحهم وفي ذلك يقول : «وكان يحدثنا — والذي يحدثه هو أبو عبد الله محمد الحاج محمد بن أبي بكر الدلائلي — عن أسلافه أن ثلاثة من صلحاء المغرب قد جرب عندهم قضاء الحاجات :

الشيخ عبد السلام بن مشيش، والشيخ أبو يعزى يلنور، والشيخ أبو سلهم، غير أنهم اختلفوا، فالأول في أمور الآخرة والثالث في أمور الدنيا، وأبو يعزى في الكل، نفعننا الله بهم وبأمثالهم...» ثم يقول : «وقد شاهدت المولى إدريس بن إدريس رضي الله عنه أيام مقامي بفاس ترياقاً مجرباً في كل ما أنزل به من حاجة».

وقال اليوسي في مدح ابن مشيش :

|                               |                         |
|-------------------------------|-------------------------|
| يا قطب هذا القطر يا قطب الورى | وفواصل الادلاج والاسعاد |
| ومسابق الورد حتى بزها         | لمنافع تبو عن الرواد    |
| ومغادي الغيث المجلل فارتقى    | بخمائل خطرت عن الرواد   |

إلخ

ابن زاكور : زار ابن زاكور الضريح المشيشي، وكان من ثمرات زيارته له تأليف كتاب : «التلذذ بالآلم في جوار جبل العلم» ومدحه ومن هذا المدح قوله :

|                    |                  |
|--------------------|------------------|
| بحر المفاخر طام    | بقبر عبد السلام  |
| شمس الهدى ابن مشيش | من جل عن كل رام  |
| من قد قطعنا إليه   | شم الربا والاكام |
| لكي تنال جوارا     | معه بدار السلام  |

ومن شعره كذلك في مدح الولي ابن مشيش :

قصدت دارك يا نجل الكرام أمقتبس العلى عبد السلام



قصدتك يا إمام الناس فذا  
 فهل في الكأس كأس الفضل فضل  
 وتنسي الفكر سؤرته فيقبي  
 مدام ما حواها الدهر دن  
 يحوز من انتشى منها ثناء  
 لعمر ك واليمن به عظيم  
 عليه صلاة الله ربي مع سلام  
 ولو أن الهامدين تدب فيهم  
 على مثواكم مثوى المعالي  
 لأكرم في نذاك بلا زحام  
 تعل النفس من تلك المدام  
 مدى الدنيا منيرا في الظلام  
 ولم يغلف عليها بالقدام  
 ويوسم من صحا منها بدام  
 ومخرج نور نورك من لجام  
 يعلن ثراه إلى القيام  
 لقام الهامدون من الزحام  
 رياحين التحية والسلام

— أبو العباس الحلبي : كانت محبة هذا الرجل لآل البيت عظيمة، ولذلك  
 فقد خصَّ المولى إدريس بكتابه الذي أبدى فيه وأعاد وأحسن كل الاحسان وأجاد،  
 ونعني به كتابه : « الدر النفيس » واشتهر الحلبي أيضا بمدح الأولياء وقد مدح ابن  
 مشيش بقصيدة منها :

دعنتي دواعي الشوق والقلب أكمد ونفرة تبريح الغرام تزيد  
 — أبو عبد الله محمد بن علي الرافي التطواني : للرافي أكثر من قصيدة في  
 مدح القطب ابن مشيش، ونكتفي هنا بإيراد أبيات من مدائحه :

إلهي إلهي، أمحيي العظام أغثني، أغثني فهذا الامام  
 إمام له رتبة قد علت على كل قطب وكل مقام  
 همام زكي حوى رفعة فيا له من ماجد وهمام

— ومن هؤلاء الزائرين سيدي هدي أو المهدي، وينحدر من صلب المولى  
 علي الشريف<sup>(84)</sup> على ما في الشجرة الزكية للشريف العلوي سيدي محمد بن  
 الزكي السجلماسي، لقد أقام سيدي هدي ببني عروس بعد ما زار الضريح  
 المشيشي وارتبط بالشرفاء، ولما عزم على الرحيل عنهم تمسكوا به<sup>(85)</sup> وقد  
 حيكت عن الولي الصالح سيدي هدي أساطير، وكتب عنه الفرنسيون والاسبان،

(84) الشجرة الزكية. نقلا عن

(85) تحكى في هذا المجال قصص ما تزال يتردد صداها إلى اليوم في بني عروس.

وكل ذلك يدل على ما كان للرجل من وزن وخاصة في القرن التاسع عشر والنصف الأول من هذا القرن..

وتجب الإشارة إلى أن الولي سيدي هدي عاش في القرن الثالث عشر، حيث إن وفاته كانت بتاريخ تسعة وعشرين من ذي الحجة عام تسعة عشر ومائتين وألف، حسب وثيقة خطية. إلا أن حياة الصوفي اتخذت عند «هداوة» طابعا أسطوريا وهكذا نجد في بعض ما يرددونه : «سيدي هدي عاش مدة طويلة في جبل العلم، قبل كل الأولياء : قبل مولاي بوشعيب (ت : 1174 م) ومولاي بوعزة (ت : 1176) وسيدي أبي مدين الغوث بتلمسان. (ت 1198 م) وقبل سيدي أبي محمد صالح بآسفي. (ت : 1231 م...)»<sup>(86)</sup>.

## مصادر البحث

- |                        |                                      |
|------------------------|--------------------------------------|
| لابن خلدون             | كتاب العبر                           |
| لابن أبي زرع           | الأنيس المطرب                        |
| — قسم الموحدين —       | البيان المغرب                        |
| لابن قنفوذ             | أنس الفقير                           |
| عبد الحق البادسي       | المقصد الشريف                        |
| لابن عبد العظيم        | بهجة الناظرين                        |
| 353                    | مجموع بالمكتبة العامة بتطوان         |
| 609                    | مجموع بالمكتبة العامة بتطوان         |
| لأبي بكر محمد البناني  | شرح الصلاة المشيشية                  |
| محمد الخروبي           | شرح الصلاة المشيشية                  |
| لابن عجيبة             | شرح الصلاة المشيشية                  |
| محمد الفاسي            | مرآة المحاسن                         |
| محمد الفاسي            | ممتع الاسماع                         |
|                        | الاعلام للمراكشي                     |
|                        | تاريخ الدولة السعيدة                 |
| أحمد الطريق            | أدب التستاوئي في ثلاثة أجزاء للأستاذ |
| محمد داود              | تاريخ تطوان                          |
| د. محمد حجي            | الحركة الفكرية على عهد السعديين      |
| لابن القاضي            | درة الحجال                           |
| محمد بن جعفر الكتاني   | سلوة الانفاس                         |
|                        | الاستقصا للناصرى                     |
|                        | الدر النفيس للحلبى                   |
| عبد العزيز بن عبد الله | موسوعة الاعلام المغربية              |



|                         |                                   |
|-------------------------|-----------------------------------|
| عبد العزيز الفشتالي     | مناهل الصفا                       |
| فاطمة القبلي            | رسائل أبي علي اليوسي              |
|                         | المحاضرات لليوسي                  |
| للأستاذ العياشي المريني | عمود نسب الادارسة                 |
| للأستاذ التليدي         | المطرب في صلحاء المغرب            |
| لابن عسكر الشفشاوني     | دوحة الناشر                       |
| أحمد بن محمد الشافعي    | المفاخر العلية في المآثر الشاذلية |
| لابن زيدان              | اتحاف أعلام الناس                 |
|                         | مجلة كلية الآداب بالرباط ع/7      |
|                         | الحياة الفكرية على عهد المرينيين  |
| د. محمد بن شقرون        | والوطاسيين (بالفرنسية)            |
| الروض الأريض. مخ        | ديوان ابن زاكور                   |
|                         | الرحلة الورتيلانية                |
| للسنوسي                 | الدرر السنية                      |
| لابن الطوان. مخ.        | سبك المقال                        |

Le Monachisme Errant dans l'Islam Sidi Heddi et les Heddawa par :  
René Brunel. Ub. Larousse Paris 1955.  
Société, Pouvoir et Religion :  
Mohamed Kably

#### استدراك :

- 1 — أقدم إشارة إلى جبل العلم وقفنا عليها ما ورد في المقصد الشريف وهو يسميه بجبل بني عيسى، وبنو عيسى من الشرفاء العلميين، وما يزالون إلى اليوم يقيمون بجبل العلم.
- 2 — وأقدم مصدر مغربي يرد فيه ذكر المولى عبد السلام بن مشيش كتاب ابن الطواح، وعاش ابن الطواح في القرن السابع وبداية الثامن.



## الأهمية الجيوستراتيجية والجيوسياسية لتطوان

ذ. أشركي أفكير محمد

تعتبر مدينة تطوان من المدن المغربية العريقة في القدم، حيث أنها تتوفر على تاريخ زاهر بالأحداث، وقد أفرد لها المؤرخون والباحثون والكتاب دراسات مستفيضة، فمنهم من يتحدث عن رونقها وجمالها ومنهم من يتحدث عن سكانها وأصلهم ومنهم...<sup>(1)</sup>

لكن ما يثير الانتباه قلة الدراسات العلمية الممنهجة حول هذه المدينة، وبالأخص تلك الدراسات التي تتناول العلاقة الجدلية أو بالأصح التداخلية بين الموقع الاستراتيجي لهذه المدينة وسكانها، ونوعية العلاقة المتواجدة بين هذين العنصرين. وسنقوم في هذا البحث بدراسة أهمية تطوان من زاويتين :

الزاوية الجيوستراتيجية — والزاوية الجيوسياسية، لكن قبل الشروع في ذلك لا بأس من تحديد بعض التعريفات للمصطلحات التي سيتم توظيفها في هذا البحث.

### الاطار المفاهيمي :

**الجيوسياسية :** تعني الجيوسياسية حسب مجلة العلوم السياسية الألمانية، العلم الذي يبحث عن العلاقة بين الأحداث السياسية والأرض أي العلم الذي يربط السياسة بالأرض<sup>(2)</sup>. وإذا أردنا أن نوضح ذلك بعبارة أخرى فالجيوسياسية هو

(1) على سبيل المثال : محمد داود في تاريخ تطوان — و Joly (A) Tetouan in Les archives marocaines vol. 5. 1905 page 378 et suiv.

وليون الافريقي : وصف افريقيا — دار الغرب الاسلامي. بيروت ط 2 ص 318.

(2) عبد الغني سعودي : الجغرافية والمشكلات الدولية — دار النهضة 1971 — ص 14.



العلم الذي يمزج في ما بين السياسة والموقع الجغرافي بهدف تحويل المعطيات الجغرافية المتوفرة إلى ذخيرة علمية يمكن ان يستفيد منها قادة الدول<sup>(3)</sup>.

أما معجم روبير فيعرف الجيوسياسية géopolitique بأنها دراسة العلاقات أو الروابط الموجودة بين المعطيات الطبيعية للجغرافية وسياسة الدولة<sup>(4)</sup>.

**الاستراتيجية :** الاستراتيجية كلمة يونانية تفيد فن قيادة الحرب<sup>(5)</sup>، أو فن قيادة القوات<sup>(6)</sup>. وقد عرفها كلاوزفيتز : بأنها نظرية استخدام المعارك كوسيلة من أجل تحقيق هدف الحرب<sup>(7)</sup>. وهناك من يعتبرها جزء من العلم العسكري الذي يهتم بالسلوك العام للحرب وتنظيم الدفاع للبلد<sup>(8)</sup>. وهناك من ذهب الى تفصيل هذا المفهوم فاعتبر الاستراتيجية هو فن استخدام القوة L'art d'utiliser la force في الحرب بأجمعها<sup>(9)</sup>. وميز بينها وبين التكتيك التي تعني التهيء للحرب.

أما الاستراتيجيون المعاصرون<sup>(10)</sup> فقد ذهبوا إلى حد تقسيم هذا المفهوم إلى عدة فروع : الاستراتيجية القومية، الاستراتيجية العسكرية الاستراتيجية العملياتية<sup>(11)</sup>.

لكن رغم ذلك فلا زال هناك من يعتبر الاستراتيجية كمرادف لكلمة

---

(3) نفس المرجع : ص 14.

(4) Petit Robert : dictionnaire de la Langue française page : 863.

(5) أحمد عطية الله : القاموس السياسي — القاهرة ص 55

(6) مجلة الفكر الاستراتيجي العربي عدد 1 سنة يوليو 1981 — ليبيا ص : 6.

(7) نفس المرجع.

(8) Petit Robert op. cit. page 1867

(9)

(10) من ضمنهم يمكن ذكر :

Saheb Zada Yacub Ali Khan : Le cadre Structurel des niveaux de la strategie, observations  
Liminaire - in annales de centre d'études stratégiques 1987 - 1988 Rabat, page 6 - 7.

(11) نفس المصدر.

السياسة<sup>(12)</sup> دون البحث في الخلافات الموجودة بين كلا المفهومين.

لذلك أصبح من الضروري في المرحلة الراهنة إرفاق كلمة إستراتيجية بالصفة العسكرية أو السياسية أو الاقتصادية أو الجغرافية لكي ينطبق المفهوم على المعنى المقصود منه دون إحداث أي لبس أو غموض، هكذا نقول مثلاً جيواستراتيجية هذا الموقع ونقصد بذلك أن هذا الموقع يكتسي أهمية إستراتيجية تجعله يتحكم في واجهات الدولة الخصم ويكون صالحاً للقيام بالهجوم وقت الحرب أو الدفاع والتجارة وقت السلم<sup>(13)</sup>. أو نقول مثلاً المراكز الاستراتيجية ونقصد بها المواقع ذات الأهمية العسكرية في كسب المعارك سواء في الحرب الدفاعية أو الهجومية<sup>(14)</sup>.

### هل تتصف تطوان بأحدى الخصائص السالفة الذكر ؟

في الحقيقة لا تظهر لنا أهمية تطوان سواء من الوجهة الجيوسياسية أو الاستراتيجية إلا إذا استقرأنا التاريخ العسكري والسياسي لهذه المدينة عبر فترات زمنية مختلفة. وبعد ذلك سيتضح أن الأهمية التي تكتسبها لا زالت قائمة، ولا تؤثر فيها العوامل الظرفية، أو تغيير البنيات السكانية.

### لماذا أسست تطوان ؟

إذا بحثنا في السبب الحقيقي وراء تأسيس هذه المدينة، فإننا نتوصل إلى أن السبب راجع إلى أهميتها الاستراتيجية — الجغرافية [الجيواستراتيجية] ويقول ابن خلدون فيها «وانحجز أبي العلاء بسبته مع أوليائه، وسرح السلطان عساكره، فاستنفرت نواحي سبته بالأكتساح والغارة، وأمر بتخطيط بلدة تيطاوين لنزول عساكره، ولأختناق سبته وذلك في غرة 708 هـ»<sup>(15)</sup>.

(12) هنري باريس : الاستراتيجيتان السوفياتية والأمريكية : ترجمة أحمد عبد الكريم — دمشق — الطبعة الأولى مارس 1984 ص 25.

(13) عبد الغني سعودي — المرجع السابق ص 25.

(14) أحمد عطية الله : المرجع السابق.

(15) عبد الرحمن بن خلدون : تاريخ ابن خلدون المجلد 7 ج 13 — دار الكتاب اللبانية — 1983 ص 494.

وفي نفس الاتجاه يذهب مؤرخ آخر فيقول<sup>(16)</sup> : «سار أبو تابت إلى محاصرة سبتة وأمر ببناء مدينة تطوان لنزول عساكره، ولكنه مرض أثناء ذلك وتوفي في سنة 1308 م». وقد ذكرها ليون الأفريقي دون الإشارة إلى مؤسسها، كل ما ذكره أن هذه المدينة بناها الأفارقة القدامى على بعد نحو 18 ميلا من المضيق و 6 أميال من البحر<sup>(17)</sup>.

ونجد اختلافا بين البكري وابن خلدون وأحمد الناصري ومحمد داود حول تاريخ تأسيس هذه المدينة. غير أن ذلك ليس بأمر مهم بالنسبة لنا، لأن شأن ذلك يعود للمؤرخين والمحققين، كل ما يهمنا هو أن أغلب من سبق ذكرهم اتفقوا على أن سبب إنشاء هذه المدينة راجع إلى أهميتها الجيوستراتيجية.

### الأهمية الجيوستراتيجية لتطوان

#### 1 - الواجهة البحرية

مدينة تطوان قريبة من البحر وعبرة عن خليج هادئ يمكن بواسطتها محاصرة العدو أو على الأقل تموين واصلاح السفن بها، وتعتبر فترة السعديين فترة نشاط الحركة البحرية، وظهر ما عرف في التاريخ باسم الجهاد البحري وكانت تطوان من المدن المغربية التي نشطت فيها هذه الحركة.

هكذا ففي 1625 م وصل إليها المبعوث الانجليزي هاريسون قصد التحالف مع الموريسكيين، والتعاون معهم للهجوم على سبتة<sup>(18)</sup>. ولما اندلعت شرارة الحرب بين الاسبان والانجليز في شهر فبراير 1656 م تعطلت بعض السفن الانجليزية واصبحت في حاجة إلى ميناء لاصلاحها، أمام ذلك لجأ الانجليز إلى إيفاد مبعوث لهم يدعى روبرت بليك ليعقد اتفاقا مع قائد تطوان السيد عبد الكريم النقسيس بغية السماح لهم باستخدام ميناء تطوان لاصلاح سفنهم<sup>(19)</sup> ونظرا

(16) هذا المؤرخ هو محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين الطبعة 2 - 1958 - القاهرة ص 104.

(17) ليون الأفريقي : المرجع السابق ص 318.

(18) وليام روبرت : تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية - ترجمة محمد مزين 1989 - ص 60.

(19) نفس المرجع : ص 75

للأهمية البالغة لميناء هذه المدينة بعث الانجليز بقنصل لهم إلى تطوان ليكون صلة وصل بينهم وبين تطوان<sup>(20)</sup>.

وبدأت تقصد الميناء عدة سفن انجليزية. ففي 26 ماي 1700 رست بالميناء السفينة «وينشستر» بقيادة الكابتن جون موندن<sup>(21)</sup> ثم لحقتها السفينة الحربية «دنكرك» وذلك في يناير 1747<sup>(22)</sup> ولما بدأت بعض الخلافات تظهر بين السلاطين السعديين. فإن مهمة تطوان أصبحت تتمثل في استقبال الأسرى الذين يتم فك أسرهم من فاس، ويصلون إلى تطوان لينقلوا عبر البحر نحو جبل طارق أو أحد الموانئ الانجليزية الأخرى<sup>(23)</sup> وحين تنشأ خلافات مجددة حول هؤلاء الأسرى، يذهب القواد المكلفون بتطوان بإصدار الأوامر للمجاهدين بالقاء القبض على السفن الحربية الانجليزية الموجودة في عرض حوض البحر الأبيض المتوسط. فعلى سبيل المثال قام القائد محمد تميم قائد تطوان في 1449 بأسر سفينة انجليزية ثم في عام 1754 أسر كذلك سفينتين والأسباب غالبا ما ترجع إلى الخلاف حول الأسرى والفدية<sup>(24)</sup>.

يتضح من ما سلف الأهمية التي تكتسبها خليج تطوان وميناءها من الناحية العسكرية. فنظرا لقربها من سبتة من جهة ولبعدها عن جبل طارق من جهة ثانية، ولتمكنها من مراقبة حركة مرور السفن الموجودة في داخل البحر الأبيض المتوسط. إن كان هذا عن الموقع البحري فماذا يمكن قوله عن الموقع الأرضي ؟

## 2 — الواجهة البرية

لتوضيح الأهمية الاستراتيجية للموقع البري لتطوان سوف نعود إلى دراسة بعض الجوانب من حرب تطوان لسنة 1860، ليس للبحث في أسبابها أو ظروفها وحيثياتها بل لتوضيح مكانة تطوان ليس إلا. فبعد أن أقدمت فرنسا على احتلال

(20) نفس المرجع : ص 75

(21) نفس المرجع : ص 107.

(22) نفس المرجع : ص 134.

(23) نفس المرجع : ص 135.

(24) نفس المرجع : ص 138.



الجزائر، بدأت إسبانيا بدورها تفكر في احتلال بعض المواقع المغربية فقامت باحتلال الجزر الجعفرية<sup>(25)</sup> وكنتيجة مباشرة لهذا الاحتلال، بدأ الفتور والتوتر يسود العلاقات المغربية الاسبانية. فبدأت القبائل المغربية بالرد على هذا الاحتلال بالضغط على مدينة سبتة فنشأت مناوشات بين قبائل أنجرة المجاورة لتطوان والاسبان المقيمين في سبتة، وأمام تزايد حجم هذه المناوشات بدأ أدونيل، بإعداد خطة عسكرية لاحتلال مدينة تطوان<sup>(26)</sup>. ووافق على خطة أ. بيل كل من الكورطيس والأحزاب السياسية بل حتى الملكة إيزابيل الثانية دخلت بكل ثقلها في هذه الخطة فتبرعت بجواهرها لفائدة تنفيذ المشروع وذلك تحت غطاء غسل شرف إسبانيا من العار<sup>(27)</sup>.

لكن هل تمكن الأسبان من تنفيذ خطتهم بنفس السهولة التي كانوا يتصورونها ؟

نشير في البداية إلى أن مدينة تطوان كانت محاطة بمناطق جبلية وعرة المسالك تساعد الأهالي على نصب الكمائن وشن حرب العصابات، وهي تبعد عن سبتة بنحو عشرين ميلا، وبنحو أربعة أميال من الساحل وتحاط بها كذلك وديان وأشواك وأحراش إضافة إلى انعدام الطرق فيها وقربها يوجد أسيراي أو السراي الذي يسميه المغاربة بالدار البيضاء<sup>(28)</sup> وهو عبارة عن قصر بني في عهد السلطان مولاي إسماعيل حينما قام بمحاصرة سبتة<sup>(29)</sup>. على رهوة تطل مباشرة على مدينة سبتة، ومن هذا القصر يمكن حراسة الشواطئ والممرات التي تصل إسبانيا بالمغرب<sup>(30)</sup>.

---

(25) ميكيل مرتين : الاستعمار الاسباني في المغرب من 1860 — 1956. منشورات التل — الطبعة الأولى — 1988 ص 12.

(26) نفس المرجع : ص 12.

(27) نفس المرجع : ص 13.

(28) عبد الله ساعف : كتابات ماركسية حول المغرب — دار توبقال للنشر 1987 — الطبعة الأولى — ص 47.

(29) رضا الله إبراهيم الالقي : تطوان في كتاب «يوميات شاهد عن حرب افريقيا» دعوة الحق عدد مارس 1980 — ص 102.

(30) نفس المرجع.

وأول خطأ ارتكبه مجاهدوا تطوان في هذه الفترة المدروسة هو عدم تمكنهم من الاحتفاظ بموقع «السراي» الذي حولته إسبانيا بعد سقوطه في يدها يوم 13 نوفمبر 1859 إلى قاعدة للعمليات العسكرية في ما بعد<sup>(31)</sup> وفي الثاني والعشرين حاول سكان أنجرة استرجاع هذا الموقع الهام فهاجموا الخطوط الأسبانية المتوقعة في السراي، معتمدين في خططهم على عنصر المفاجئة والمباغتة والحيلة غير أن غياب المدفعية اضطرهم إلى التراجع عن أهدافهم<sup>(32)</sup>.

وكانت الفرق المجاهدة المكونة من معظم القبائل الجبلية المجاورة لتطوان، تفاجئ العدو بحيث أصبح لا يعلم متى يأتون ومن أين ولا متى ينسحبون، قد يكون ذلك في الليل كما قد يكون ذلك في النهار. وحتى إذا ظهرُوا وبدأوا المعركة فسرعان ما تنتهي باختفائهم، وقد كان هذا الأسلوب من القتال من الأمور الهامة التي اتعبت الجيوش النظامية التي دربت على الحرب النظامية والمقاتلة بالصف<sup>(33)</sup>.

ولتسهيل سير العمليات العسكرية بدأ الأسبان بشق الطريق التي ستسلكها المدفعية والعربات لمحاصرة تطوان، وبعث أدونيل بالفرقة الثانية والفرقة الاحتياطية لتعزيز الحصار على تطوان، لكن الوضعية إلى غاية يوم 20 دجنبر 1959 لم تتغير قيد أنملة حسب تعبير فريديريك إنجلز<sup>(34)</sup>.

كما أن معسكر تطوان الذي كان تحت قيادة الحاج عبد السلام والذي يبلغ تعدادُه حوالي 10.000 رجل كان يتلقى مساعدة من معسكر طنجة وحامية المدينة مما جعل أدونيل يرى في المغاربة خصوما أكثر مما كان يتوقعه لذلك عمد إلى طلب الدعم من الأسطول البحري الأسباني كما طلب الحصول على أسلحة جديدة من المدفعية والسفن المروحية... ويقول دي الاركون في وصف الجيش التطواني: هناك فوق الجبال نرى اشكالا غريبة، وكأنهم نسور طائرة، عليهم

---

(31) عبد الله ساعف، المرجع السابق ص 47.

(32) نفس المرجع ص 13.

(33) رضا الله ابراهيم الانفي: المرجع السابق ص 102.

(34) عبد الله ساعف، المرجع السابق ص 48.

جلايب بيض تتطاير من جنباتهم كأنها أجنحة تدفع بهم إلى الأمام وأسلحتهم تلمع كالبرق في واضحة النهار... يشكلون استعراضا كلاسيكيا وتكتيكا عسكريا فريدا. فمن هؤلاء، ومن أين أتوا؟ (35)».

وقام إنجلز بتحليل الميزان العسكري وطرق تنظيم القوات والتكتيكات المختلفة المستعملة وعدد الجنود ونوعية العتاد فتوصل إلى نتيجة أن كل شيء كان لصالح الأسبان (36).

خصوصا بعد أن تم إرسال سرب من السفن الشراعية والسفن الحربية المروحية وبعض البواخر للتوغل في وادي تطوان لقصف تحصينات المدينة، ودك أسوارها للزحف نحو جميع التحصينات. وكانت المدفعية من الأمور المستجدة في فنون الحرب، فقد اعتبرت رمز الحداثة في تلك الفترة، كما أن تعداد القوات الاسبانية التي كانت تصل إلى نحو 40.000 رجل منظمة في شكل جهاز عسكري عصري مدربة على تقنيات الحرب المنظمة كان من الأمور التي تسهل الانتصار في الحرب على قوات غير نظامية وغير متوفرة على عتاد عسكري كبير.

لكن المفاجئة التي حصلت أن حرب تطوان وضحت أن لجوء الأسبان إلى التحديث في الجهاز العسكري لم يأت ثماره على المستوى العملي (37). بحيث أن المغاربة استفادوا من معرفتهم للميدان، ولجئوا إلى حرب العصابات والاستنزاف واستغلوا أحوال الطقس ونصبوا الكمائن فسرّبوا العياء في القوات الاسبانية.

ويعبر دي الاركون عن ذلك قائلا : «إن سر قوات المغاربة أننا نجهل عنهم كل شيء. لا نعرف عددهم ولا متى يأتون ولا من أين يجيئون وان الأرض هي التي تنشعهم وحضورنا هو الذي يوقظهم من جحورهم لا يعرفون إلا عندما يظهرون.. فالحسائر لا تنقص من عددهم. عددهم يزداد بكيفية مدهشة كل حجرة وكل شجرة ترمي بأحد من تلك الكائنات العجيبة. تمتلئ بهم الغابات وتسيل بهم الوديان (38)».

(35) رضا الله إبراهيم الالفي : المرجع السابق ص 102.

(36) عبد الله ساعف : المرجع السابق ص 12.

(37) نفس المرجع ص 14.

(38) رضا الله إبراهيم الالفي : المرجع السابق ص 103.



فأمام بسالة سكان تطوان واستغلالهم للبيئة والمحيط فإن القوات الأسبانية لم تتمكن طيلة ستة أشهر من حملتها الهجومية التي استعملت فيها جميع الوسائل المتوفرة لديها إلا بشق الأنفس. والخطأ الهام الذي ارتكبه المجاهدون في هذه الحرب هو تخليهم عن حرب العصابات وقبولهم بحرب المواجهة في الميدان المكشوف مما سهل للأسبان الاستفادة من مدفيعتهم<sup>(39)</sup>.

لكن هل سقطت أهمية تطوان أو فقدت جزءا من أهميتها في القرن الحالي ؟ لا يمكن اعطاء جواب عن ذلك إلا بإلقاء ولو نظرة سريعة على أحداث هذه المدينة في عهد الحماية.

نشير في البداية إلى أن السلطات الأسبانية لم تتمكن من احتلال تطوان إلا في 19 فبراير 1913، وكنتيجة لهذا الاحتلال أصدر الريسوني نداءه القاضي بحمل السلاح، وبدأ التمرد ينتشر ويتصاعد وبدأ المجاهدون يعلنون الحرب المقدسة. فقاموا في شهر يونيو بقطع كافة أشكال المواصلات بين سبتة وتطوان، واندلعت معارك استمرت مدة طويلة. وفي 19 نوفمبر 1918 بالقرب من تطوان تم إسقاط أول طائرة إسبانية وهي من نوع «ح ف 1»<sup>(40)</sup>.

وأثناء اندلاع حرب الريف ركز عبد الكريم هجوماته على شفشاون للتوجه نحو تطوان وتحريرها، أمام هذا قررت الحكومة الأسبانية عقد مؤتمر صلح يكون مركز اللقاء هو تطوان<sup>(41)</sup>. ونظرا لعدم توصل الطرفين إلى إتفاق، تصاعد الضغط الريفي بالهجوم على المراكز الاستراتيجية للأسبان، فسارعت تطوان وأنجرة وعياشة ووادي اللوه بالانضمام إلى المجاهدين وكبدوا الأسبان الخسائر الفادحة<sup>(42)</sup> وفي الثلاثينات اندلعت في تطوان مظاهرات تأييد للجمهوريين في إسبانيا، فقامت المندوبية السامية باطلاق النار عليهم مما جعل السكان يلجئون إلى مقر المندوبية ومحاصرتها. وذلك في 14 أبريل 1936. وبمناسبة عيد العمال قام

---

(39) عبد الله ساعف : المرجع السابق ص 54.

(40) ميكل مرتين المرجع السابق ص 47.

(41) علال الفاسي : الحركات الاستقلالية في المغرب العربي — دار العلم للملايين [دت] ص 112.

(42) ميكل مرتين : المرجع السابق ص 76 — انظر كذلك علال الفاسي ص 113.



العمال بمظاهرة يطالبون فيها بالمساواة وحقوقهم في العمل والأجر العادل، ويعتبر تدخل الجيش الجمهوري في تطوان أول اضطراب واجه الجمهوريين الجدد فقاموا أمام تزايد هذه الاضطرابات بقصف المدينة من طرف الطيران<sup>(43)</sup>.

وفي الخمسينات أصبحت تطوان قلعة لتدريب جيش التحرير المغربي ومخزن للأسلحة التي تبعت إلى المنطقة الجنوبية، خصوصا بعد إنشاء القيادة العامة لأركان جيش التحرير بهذه المدينة وتولى الخطيب إدارة أعمالها.

هذا جزء من كثير من تاريخ تطوان العسكري الذي يمكن تناوله في عدة أسفار ومجلدات، لكن هل مساهمة تطوان تقتصر على الجانب العسكري فحسب ؟

### مساهمات تطوان السياسية

من الصعب جدا حصر مساهمات تطوان في المجال السياسي المغربي، والصعوبة تنبع من وجود اسهامات كثيرة لا يتسع لها بحث أو دراسة لذلك فما نقوم به الآن ليس إلا إشارة إلى بعض تلك الاسهامات في فترة الحماية، باعتبار أن المغرب كان يعيش في هذه الفترة نوعا من الرقابة السياسية فرضتها الادارة المحمية سواء في الشمال أو في الجنوب. لكن رغم ذلك فان تطوان شهدت إنتعاشا سياسيا، هكذا فمباشرة بعد تأسيس «جمعية الرابطة المغربية»<sup>(44)</sup> سارع عبد السلام بنونة إلى تأسيس فرع لهذه الجمعية في تطوان وذلك في أواخر العشرينات. وبعدها بقليل أسس محمد داود «المدرسة الأهلية» بالتعاون مع السيد عبد السلام بنونة، وقد تطورت هذه المدرسة وأصبحت تحمل في ما بعد إسم «المعهد الحر» أي سنة 1933<sup>(45)</sup> كما إنتعشت في تطوان كذلك الصحافة الوطنية فقد تأسست فيها مجلة «السلام» لصاحبها محمد داود<sup>(46)</sup>، وجريدة «الحياة» التي كان يترأس تحريرها السيد عبد الخالق الطريس<sup>(47)</sup>، وجريدة «الريف» التي خلفت جريدة

(43) ميكل مرتين : نفس المرجع ص 148.

(44) عبد الكريم غلاب : تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب ج 1 ص 39.

(45) نفس المصدر ص 41.

(46) صدر أول عدد من مجلة السلام في أكتوبر من عام 1933.

(47) صدر أول عدد من جريدة الحياة في مارس من عام 1934.

«الحياة» وكان يديرها السيد التهامي الوزاني<sup>(48)</sup>، وجريدة «الحرية» لسان حزب الإصلاح بعد تأسيسه<sup>(49)</sup>.

وتأسس في تطوان أهم حزب سياسي في الشمال وهو حزب الإصلاح الوطني، وقد خاض هذا الحزب معارك سياسية على واجهات مختلفة سياسية، اقتصادية، عسكرية<sup>(50)</sup> ووضع برنامجا إصلاحيا مشابها لبرنامج 1933، غير أن ما ميز برنامج حزب الإصلاح هو مراعاته لخصائص منطقة الشمال والجو السياسي الذي كان يسودها<sup>(51)</sup>.

ولا يمكن أن نغفل كذلك إلى أن تطوان كانت عاصمة لشمال المغرب ومقرا لأقامة خليفة ملك المغرب طيلة فترة الحماية، وفيها انطلق أول وفد مغربي لتمثيل المغرب في لجان الجامعة العربية بمصر، ذلك الوفد المكون من السيد محمد أحمد بن عبود ومحمد الفاسي الحلفاوي<sup>(52)</sup>.

هذه لمحة مختصرة عن مدينة تطوان التي تكتسي أهمية بالغة تلك الأهمية التي ظلت مستمرة عبر فترات زمنية طويلة لم تنل منها الزوابع السياسية شيئا.

---

(48) صدر العدد الأول من جريدة الريف في عشت 1936.

(49) صدر العدد الأول من جريدة الحرية في عام 1937.

(50) أنظر حول حزب الإصلاح الوطني دراسة الأستاذ حسن الصفار : حزب الإصلاح الوطني 1936 — 1956 مذكرة لنيل دبلوم الدراسات العليا في القانون — كلية الحقوق — الرباط سنة 1988 وهي تمثل وثائق هامة حول تطوان.

(51) علال الفاسي : المرجع السابق ص 226.

(52) أنظر الظهير الذي أصدره الخليفة السلطاني مولاي الحسن بن المهدي بتاريخ 25 ذي الحجة 1364 بقصر المشور بتطوان.





## التربية والتعليم عند الحركة الوطنية في الشمال

ذ. عبد العزيز السعود

كان لتعاقب الأحداث الاجتماعية والسياسية وتناقضاتها منذ العقد الثاني من القرن العشرين بمدينة تطوان السمة البارزة في تبلور حركة «نهضوية» مست ميادين التربية والتعليم.

لقد كان التعليم الأولي قبل هذه الفترة يعرف بالتدريس، كما كان يعرف في القديم بالتأديب ويقوم به طلبة جلهم من البوادي المجاورة للمدينة. أما تدريس العلوم (من نحو وفقه وأصول) فكان من اختصاص العلماء، وكان محتواه تقليدياً راسخاً<sup>(1)</sup>.

ولما كان تحصيل العلوم من أهم الأولويات لدى طبقة النابيين من رجال الوطنية فإنه وقع التفكير في تأسيس جمعية ثقافية برزت إلى حيز الوجود تحت اسم «المجمع العلمي والأدبي المغربي» في أواخر سنة 1916. وقد بين الفصل الأول من نظامها الأساسي هدف الجمعية «... انتشار الحقائق العلمية وتكثير دروس اللغة وغيرها بكل الوسائل الممكنة من مدارس وجرائد ومجلات وإيجاد مكتبة عالية تكون ملجأ لطلاب العلوم»<sup>(2)</sup>.

ولقد كانت الغاية الأساسية هي استغلال هذا المجمع لمنح الحركة الإصلاحية منبرا للتعبير يكون في نفس الوقت لسان حال المجمع المذكور، فتقرر إصدار جريدة

---

(1) أحمد الرهوني، «عمدة الراوين في تاريخ تطاوين»، مخطوط بالمكتبة العامة بتطوان، ج 1، ص. 729.

(2) محمد بن عزوز حكيم، «أب الحركة الوطنية المغربية الحاج عبد السلام بنونة»، الرباط 1978، ج 1، ص. 147.

«الإصلاح» التي صدر العدد الأول منها في 29 يناير 1917<sup>(3)</sup>. وكان الاهتمام في هذه السنوات بتنظيم بعثة علمية إلى فاس، فتألفت بعثة هي أولى البعثات من تطوان إلى فاس بعد الاحتلال الأجنبي، وكان جامع القرويين في هذه الأثناء يعج بالطلبة ويصطخب من أثر التطور والانقلاب الذي يحدث في شبه الجزيرة العربية من جراء انتصار الحركة الوهابية. وفي نفس الوقت كانت الحركة الوطنية المصرية بقيادة سعد زغلول قد بلغت أعلى درجاتها فكانت الصحف والأخبار ترد على المغرب بهاتين الحركتين المصطخبتين في المشرق<sup>(4)</sup>.

ولما تبين للجماعة المستنيرة بالمنطقة عدم جدوى الاستمرار في المقاومة المسلحة بعد فشلها وتغلب عمليات الاحتلال العسكري، وتبين كذلك أن المقاومة السياسية التي بدأت إرهاباتها تلوح في الأفق تتطلب وجود رأي عام مساند، وأطر قادرة على التوعية والتعبئة الجماعية والتسيير المنظم، والتيقن من أن مفتاح هذه الحركة سيكون لا شك هو التعليم. ومن ثم ستحتل مسألة التربية والتعليم مركزا محوريا في فكر رجالات الحركة الوطنية بالمنطقة.

وكان جل الوطنيين الأول من المخضرمين ممن عاشوا في العهد الذي سبق وقوع الحماية الأجنبية ثم شاهدوا بلدهم وهو يخضع للاستعمار، فأقبلوا على هذا الميدان وهم يدركون بأنهم يقومون بعمل مرادف للمقاومة العسكرية، ذلك أن المغاربة رأوا كيف وقعت هزيمة حركة محمد بن عبد الكريم وشعروا بالنقص في الرجال المكونين والمسلحين بتربية وطنية متينة، فكان التهييء واعداد رجال يتحملون العبء الوطني. والواقع أن ماكانت تحتاجه تطوان ومعها باقي المنطقة الخليفية إنما هو عهد من التربية الوطنية الحقيقية، وعلى ضوء هذه المسألة يجب النظر إلى كل قضية اجتماعية وسياسية فإذا كانت سلطة الحماية تساعد على تحقيق ذلك فيجب تحمله، إذ ليس هناك من سبيل سياسي محض إلى النضوج السياسي والاستقلال الفعلي. فالتربية سلاح فعال في تمثيل الأهداف السياسية إلى واقع عملي وممارسة فعلية. ومكانة التربية وأهميتها في التوجيه السياسي من المسائل المهمة التي دفعت

(3) نفس المصدر ص 175.

(4) الشيخ التهامي الوزاني «الزاوية»، مطبعة الريف، تطوان 1942، ص. 131.

سلطات الحماية إلى السيطرة على إدارة التربية والتعليم ورسم خطوطها بما لا يتعارض مع مصالحها. لأجل ذلك ارتبطت قضية التربية والتعليم بالعمل الوطني السياسي عند رجال الحركة الوطنية في تطوان ارتباطاً وثيقاً حرصاً منهم على تكوين جيل يقوم بناؤه على الحفاظ على مقوماته الثقافية ونسيجه القومي.

ولقد كان لدعوات الإصلاح السلفية تأثير ملموس في تقدم هذه الحركة وتطورها. وهذا ليس بالأمر الغريب، فالفةة المستنيرة من الجماعة الوطنية كانت تقبّس الأفكار النيرة والمبادئ من مطالعة ما يكتبه المصلحون والسياسيون في المشرق العربي. وكان من المؤلف في مدرسة الشيخ محمد عبده القول بأن الوسيلة الفعالة الوحيدة للنضج القومي والاستقلال الحقيقي إنما هي التربية<sup>(5)</sup>. ولهذا خصص معظم وقته للتربية الوطنية وللإصلاح كما كان يفهمه.

وكانت دعوة مجلة «المنار» التي حلت محل «العروة الوثقى» في التجديد نحو إصلاح إسلامي بجميع أنواعه، ولاسيما الديني بإصلاح التربية والتعليم<sup>(6)</sup>.

وكان شكيب أرسلان وهو أبرز مرشدي الحركة الوطنية بالمغرب يرى أن الأزمة الحقيقية الحاضرة في الاسلام هي أزمة التعليم، ولقد أجمل أسباب التخلف الاجتماعي عند العرب والمسلمين في كتابه «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟» فاعتبر الجهل والعلم الناقص أشد خطراً من الجهل البسيط<sup>(7)</sup>.

وهكذا اقترن سبيل النهوض بأحوال هذه الأمة عند الجماعة الوطنية بالتعليم. فيقول الأستاذ عبد الخالق الطريس «قلنا دائماً إن التعليم وحده هو الكفيل بإصلاح حال هذه الأمة، ولقد برهنت الأيام على أن العمل الذي قمنا به من أجل انتشار المعرفة ساعدنا بشكل فعال على بث روح الوطنية بين الجماهير»<sup>(8)</sup>. وهكذا لم تتردد الجماعة الوطنية في الاقتناع بأنه يجب البدء بتعليم الأمة وتربيتها، وأنذاك

---

(5) ألبرت حوراني، «الفكر العربي في عصر النهضة (1798 — 1939)»، بيروت ط 3، سنة 1977، ص. 222.

(6) أنظر مجلة «المنار» العدد الأول، بتاريخ 22 شوال 1315 هـ الموافق 15 مارس 1898.

(7) شكيب أرسلان، «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟»، الطبعة الثالثة، القاهرة 1358 هـ، ص. 58.

(8) ابن عزوز حكيم، «أب الحركة الوطنية...»، ص. 141، ج. 1.



فقط يمكن التفكير في وسائل النضال السياسي. فإبراز دور التعليم ومنحه الأولوية والأهمية هو خاصية جديدة يقدمها مشروع الكتلة الوطنية الاصلاحية الشامل. وفي هذا المعنى كتب الأستاذ عبد السلام بنونة إلى ابنه الطيب عام 1930 «اعلم يا بني ان التعليم هو أساس الاصلاح فعندما تتقدم المعرفة تتقدم معها جميع وسائل الاصلاح»<sup>(9)</sup>.

وبذلك ستفتح الجماعة الوطنية آفاقا جديدة في وجه الناشئة المغربية، وتمثلت تجليات هذا التفتح في إنشاء المدرسة الأهلية — إرسال البعثات الطلابية إلى المشرق — تأسيس المعهد الحر.

### المدرسة الأهلية :

نشأ التعليم الحر الأهلي كبديل وطني للتعليم الرسمي، ولم يكن الأمر قاصرا على المغرب فحسب، فالشيخ محمد عبده اقتنع — وهو في باريس — بأن معركة التعليم معركة أساسية. وكان يرى أن المسلمين لا ينقصهم الرجال ولا العلم ولا المال. وإنما تنقصهم التربية. ومناهج التعليم المنقولة عن الغرب لا توصل إلى هذه الغاية أي تلقين التربية المتينة. ومن هذا المنطلق اقتبس الوطنيون فكرة التعليم الحر. فجاءت فكرة إنشاء المدرسة الأهلية كتعبير عن نضج الوعي القومي لدى جماعة من الوطنيين، وعن رغبتهم في التحرر في صورة مقاومة «الرجعية» وأثرها في الأفكار والعقول. فهي أول مدرسة تحطمت فيها القيود واستطاع فيها التلميذ أن يجلس مطلق اليدين يكتب في الدفتر<sup>(10)</sup> وأول مدرسة عربية إسلامية حرة أسست بشمال المغرب في عهد الحماية في أوائل عام 1925، وهي أيضا بدون شك الأولى في استعمال الكتب المدرسية التي جلبها من المشرق الأستاذ محمد داود وهو من أبرز مؤسسيها. وأول من تولى إدارتها والتدريس بها. كما كان المنهج التربوي والتعليمي وجدول الحصص وتوزيعها مستوحيا من النظام المتبع في المشرق العربي. فكانت بذلك كواجهة نضالية. فتبين أن المسألة التعليمية أساسية

(9) نفس المصدر والصفحة.

(10) التهامي الوزاني، «المقاومة المسلحة والحركة الوطنية في شمال المغرب»، مطبعة الساحل، الرباط 1980، ص. 110.



وسياسية، وكان ذلك دليلاً على انفراد الحركة الوطنية في الشمال بميزة الاتجاه العملي في تخطيط المهام<sup>(11)</sup>. فشكّلت النواة الأولى للحركة العلمية الحديثة بتطوان وبداية الانطلاقة الأولى للحركة الوطنية بهذه المدينة، فتلامذتها هم مؤسسو حزب الإصلاح الوطني وقادته، فقد كان ضمن الفوج الأول الذي التحق بصفوفها عند افتتاحها عبد الخالق الطريس ومحمد الخطيب.. وبذلك فإن إنشاءها يعد بحق من أهم المراحل في تاريخ الحركة الوطنية بالشمال. ولم تشأ إدارة الحماية أن تعترف بوجود هذا النوع من التعليم العربي ومنحه الصبغة القانونية رغم مجهودات بعض الوطنيين، فالظهير الخليفة الذي صدر في يناير 1927 والخاص بتنظيم التعليم الحر لم يشمل التعليم العربي بل اقتصر على التعليم الاسباني فقط<sup>(12)</sup>. ولعل هذا الموقف السلبي للإدارة من المدرسة الأهلية ومستقبل تلامذتها المظلم وشهاداتها غير المعتمدة جعل الطريس لا يعطيها القيمة التي كان يراود أن تجعل لها<sup>(13)</sup>.

### إرسال البعثات الطلابية إلى المشرق العربي.

طرحَت مسألة التعليم الوطني الحر على المستوى العملي مشكلة نادرة الكتب التعليمية التي كان يجلب جلها من مصر ولبنان وسوريا قبل بزوغ المطبعة الوطنية، بالإضافة إلى ذلك النقص في أطر التدريس. فالتعليم الثانوي العربي لن يتأسس إلا بعد إيجاد الأساتذة المقتردين لتكوين حاملي شهادة التعليم الابتدائي من المدرسة الأهلية. وكان الاقتناع بأن الدراسة في القرويين لا تتوفر على الشروط الكفيلة بتمكين الشباب المغربي من تعليم عصري مساير للوقت الراهن لما ينقصها من منهج تعليمي قائم على هذا الأساس. فكان التفكير في إرسال شباب إلى المشرق العربي للتعليم، فاتجهت أول بعثة طلابية إلى مدرسة النجاح بنابلس سنة 1928، وذهب البعض إلى القاهرة لاستكمال دراستهم.

وقد تأثر أفراد هذه البعثات بالجو القومي والثوري الذي كان سائداً بالمشرق

(11) نفس المصدر، ص. 116.

(12) ابن عزوز حكيم، «أب الحركة الوطنية...»، ج. 1، ص. 248.

(13) التهامي الوزاني، «المقاومة المسلحة...»، ص. 110.

العربي حينذاك والذي ترك بصماته واضحة في أذهان كثير من الناس، فتلک الأجواء الثقافية والسياسية المائجة ببلاد المشرق هیأت للطلبة المغاربة الموجودین هناك أفقا أوسع مما كانوا فيه. فكانت هذه البعثات بذلك نواة للحركة الفكرية والسياسية الوطنية لدى عودتها إلى موطنها، فمنها من ولج میدان التربية والتعليم، ومنها من دخل حقل السياسة. والفئة الأولى هي التي ستأخذ على عاتقها مهمة النهوض بالتربية والتعليم مکملة بذلك عمل الفئة الثانية في میدان المطالبة بالاصلاح الاجتماعي والسياسي.

### مؤسسة المعهد الحر

كان من بین أفراد الجماعة الوطنية رجال علم وفکر ودعاة للتجديد ومسايرة العصر، قد تعثرت جهودهم في سبيل تطوير التعليم الابتدائي وتكوين التعليم الثانوي والعالي، فراحوا يرسلون البعثات إلى الخارج، ولكن الدراسة في الخارج آنذاك كانت تلکف تضحيات وأتعباً وإمكانات لا یقدرون علیها. ثم إن البعثات لا یمكن الاعتماد علیها وحدها في تكوين أبناء الأمة. فبدأت الرغبة في إحداث مؤسسة للتعليم الثانوي تتبلور لدى أفراد الكتلة الوطنية منذ سنة 1934 خصوصاً بعد أن توفرت النواة الأولى لأطر التدريس بعد عودة البعثات من المشرق العربي. وتبلورت الفكرة في تشکيل «لجنة التعليم الخاص» تقوم بمهمة جمع المال للتعليم نشرت بياناً في جريدة «الحياة»<sup>(14)</sup> تحت عنوان «الاهتمام بالتعليم الخاص» جاء فيه : (ليست حالة التعليم في هذه البلاد حالة یسر بها أو یطمأن إليها، فإذا راعينا قلة المدارس وفساد البرامج وكثرة الأطفال الذين يتجولون في الشوارع من غير أن یجدوا مكاناً یهرعون له لترى فيه أرواحهم تربية صالحة تجعلهم عنصراً نافعا للدين والبلاد، تجد أن الاهتمام بالتعليم الخاص الذي يقوم على أكتاف الشعب شيء أساسي لا یحید عنه لبلادنا... إن الشعب الذي یريد لنفسه الحياة والسيادة يعتمد قبل كل شيء على نفسه، ولا يستطيع أن یرى ناحية ضعيفة فيه دون أن يقوم لتقويتها، وأي ناحية أضعف في بلادنا اليوم من التعليم ؟ إننا مفرطون في أقوى أساس تبني علیه صروح النهضة، وإن استمررنا في تفریطنا فسوف لا ننجح في أي مسعى وأية غاية نقصدها،

(14) جريدة «الحياة»، لسان حال الكتلة الوطنية، ع. 12، السنة 1 ماي 1934.

فواجب المعرفة اليوم أكبر من كل واجب، ومسؤولية إهماله أقسى من كل مسؤولية...).

وكانت حقيقة مرة أمام الجماعة الوطنية، وهي أن التضحية المادية في الأوساط البرجوازية لا تزال ضعيفة لم تشجع على النهوض بالمشروع<sup>(15)</sup>. وبالرغم من ذلك فقد قررت الجماعة الوطنية إنشاء تعليم يكون ثانويا في بعض موادها وجامعيا في مواد الأخرى. فتم تأسيس المعهد الحر وتكوينه منذ نوفمبر 1935، وانضم إلى صفوفه مجموعة من الشباب الناهض وأساتذة تلقى جلهم دراسته في المشرق، فاعتبر بذلك ابن البعثة الأولى التي تلقى أفرادها دراستهم في مدارس التعليم الحديثة<sup>(16)</sup>. وكان الأستاذ عبد الخالق الطريس هو المؤسس المدير لهذا المعهد.

وكان نجاح الحركة الفرنكوية الاسبانية التي قامت سنة 1936 قد دفعها إلى محاولة التقرب من الحركة الوطنية لأسباب منها أنها ظلت معزولة دوليا، وقد استغلت هذه الأخيرة الفرصة فطلبت إدارة المعهد الحر من الحكومة تسليمها أهم بناية جديدة شيدتها للتعليم الحر لجعلها مركزا للمعهد.

والواقع أن تأسيس المعهد الحر لم يكن التفكير من خلاله الوصول إلى التعليم الثانوي بقدر ما كانت النية في خلق جيل من الشباب المفعم بالروح الوطنية، وعلى هذا الأساس وضع برنامجه الدراسي، وكان ذلك هو حجر الزاوية التي جعلت أساسا للمشروع.

ولقد أدرك الاستعمار فاعلية التعليم في تدعيم الوحدة الوطنية، وأن هذه الوحدة تيسر جمع الجهود لتحقيق الإصلاح والكفاح في سبيل الاستقلال وإن آجلاً، ومن ثم عمل على استغلال بعض الوطنيين في محاولة إبراز اهتمام الإدارة بإصلاح التعليم بالمنطقة. ففي سنة 1929 طلب المقيم العام الاسباني من السيد عبد السلام بنونة إعطاء رأيه في مسألة التعليم، فوضع هذا الأخير شبه مشروع يتضمن الخطوط العامة لإنشاء كلية غربية عصرية بتطوان، ومن أبرز نقاط هذا المشروع<sup>(17)</sup>.

(15) الطيب بنونة، «كيف نشأ المعهد الحر؟»، سلسلة رجالات المعهد الحر، المطبعة المهدية، تطوان، ص. 16.

(16) أمين الريحاني، «المغرب الأقصى»، مؤسسة دار الريحاني، بيروت، ط. 2، 1975، ص. 194.

(17) ابن عزوز حكيم، «أب الحركة الوطنية...»، ج. 1، ص. 344.



- جعل اللغة العربية هي أساس التعليم فيها.
- يختص القسم الأول من الكلية بالباكالوريا العربية على الشكل الذي يوجد عليه التعليم الثانوي بمعاهد مصر وسوريا.
- تكون الدراسة في الأقسام المتخصصة ثلاث سنوات للحصول على الدبلوم العالي.
- إنشاء الشهادات الخاصة بكل قسم وإصدار ظهير تحدد بمقتضاه الوظائف والمهن الحرة التي يمكن لحاملي تلك الشهادات مزاولتها.
- التعاقد مع أساتذة من لبنان وسوريا ومصر يعتمد عليهم في وضع المناهج النهائية.
- وفي صيف 1930 وضع بنونة مذكرة جديدة قدمها للمقيم العام احتوت خلاصة أفكاره حول مسألة التعليم بالمنطقة الخاضعة للحماية الاسبانية اشتملت على 23 نقطة من بينها<sup>(18)</sup> :
- اعداد مخطط يهدف إلى بناء المدارس الابتدائية ومعاهد التعليم الثانوي في جميع مدن المنطقة وفي المراكز المهمة بالبادية.
- ازدواجية برامج التعليم.
- الاعتراف بالشهادة الابتدائية التي تمنحها المدرسة الأهلية.
- تنظيم التعليم الاسلامي على أسس عصرية، وإنشاء ادارة رسمية مكلفة به وبالتعليم الاسباني العربي.
- منح إعانة خاصة للمدارس الحرة الموجودة بالمنطقة.
- وكان الأستاذ عبد الخالق الطريس قد كلف من بعض الدوائر العليا بإلقاء محاضرة حول قضية التعليم وقد حالت أسباب دون القائها، ونشرها جريدة «الحياة» وهي عبارة عن تقرير جامع لوضعية التعليم بالمنطقة<sup>(19)</sup> يحتوي على مشروع «إصلاح» كما تراه الكتلة، وملخصه :

(18) نفس المصدر ص 395.

(19) جريدة «الحياة» عدد 1 السنة الأولى 1 مارس 1934.



— إن أمكنة تعليم الكتاتيب لا يتوفر فيها شروط من الشروط الصحية. وعلاج ذلك يكمن في الاصلاح التقني أي بتوسيع الأمكنة ودخول الهواء والشمس وتحديد عدد التلاميذ ثم الكشف الطبي.

— التعليم الاسباني العربي لم يتبأ له لا البرنامج ولا الأستاذ ولا التلميذ. واصلاحه مرهون برفع درجته من التعليم الأولي، وجعل الكتاتيب تقوم مقامه في ذلك ويخصص هو للدراسة الثانوية.

— إن دروس التعليم الديني في انحطاط مستمر. وعدم الاطمئنان على المستقبل بواسطتها ترك الناس لا يقبلون عليها حتى تكاد تتعطل كثير من الوظائف الشرعية والدينية. فالواجب يقضي تنظيم هذا التعليم على طريقة حديثة يتبع فيها الأزهر أو الزيتونة.

— التعليم الأهلي يعاني نقصا كبيرا، فبرنامج غير تام ومواده قليلة وشهاداته غير معتبرة.

وقبل ذلك جاءت وثيقة «مطالب الأمة المغربية»<sup>(20)</sup> التي قدمتها الهيئة الوطنية في شمال المغرب إلى رئيس الجمهورية الاسبانية بمدير في يونيو 1931 لتطرح المسألة التعليمية إلى جانب مطالب أخرى حول الصحافة والممارسة الديمقراطية جاء فيها : «إننا نسجل هنا بمداد الأسف كون الحكومة السابقة لم تبد أي اهتمام بتعليم الأهالي كما يجب، فقد مضى على الحماية ما يقرب من عشرين سنة لم تفتح في خلالها مدرسة ابتدائية خاصة بالأهالي مبنية على ثقافتهم الخاصة ولغتهم العزيزة فلذلك نطلب من الحكومة الجمهورية المنصفة فتح مدارس ابتدائية في المدن والقرى ومدارس ثانوية في أهم المراكز ويكون نظام التعليم على أساس اللغة العربية وثقافتها مع اللغة الاسبانية وآدابها. كما نطلب فتح مدارس صناعية وفلاحية عصرية وإرسال بعثات لتلقي العلوم في المدارس العليا الاسبانية...».

وهكذا انتبه رواد الحركة الوطنية الاصلاحية مبكرا — كما رأينا — إلى أهمية إصلاح التعليم فطرحوا ضرورة إصلاح الكتاتيب والمعاهد الدينية والتعليم الأهلي

---

(20) محمد بن عزوز حكيم «وثائق تشهد» مطبعة الساحل الرباط 1980 ص. 14.

في إطار «مشروع تعليمي» قومي وقعت الإشارة إليه ضمناً أحياناً وصراحة أخرى في وثيقة «مطالب الأمة» وفي التقريرين السالفين.

والخلاصة ان الطريقة التي طرحت بها المسألة التعليمية — فيما ذكر — تثير لدينا بعض الملاحظات كالتالي :

— أساسية المسألة التعليمية بالنسبة للمسألة المحورية، أي الإصلاح الشامل.  
— التركيز على التعليم الأهلي (الوطني) والتعليم الاسلامي. وهذا أمر مقبول بالنسبة للطرفية التاريخية التي طرحت فيها هذه المسألة.

— معارضة واقع الحماية فيما يخص ميدان التعليم بمطالب ذات بعد قومي :  
تعليم عربي وإسلامي تتنافى أهدافه مع نظرية الادارة الاستعمارية التي كانت تريد أن يكون التعليم مختلطاً.

فما هو الاطار العام الذي تم فيه طرح هذه المطالب. وهل عُمل من أجل تحقيقها ؟

إن العمل السياسي للحركة الوطنية بتطوان تمحور حول المطالبة بالإصلاح الشامل، وهو الميدان الذي وقعت فيه المجابهة بين الوطنيين وإدارة الحماية، وفي إطاره طرحت مسألة التعليم كأولوية، باعتبار أن التعليم هو أساس الإصلاح. فكان الموقف الاصلاحى دفاعياً بكل ما يحمله ذلك من معنى نفسى واجتماعى وتاريخى، وتفسره النظرة إلى التعليم كمفتاح للحركة الوطنية يمنحها القوة بشكل تلقائى.

وإذا كان الوطنيون لم يتناولوا المسألة بالتحليل ضمن عملية تفكيرية شاملة، فإن عملهم في هذا الميدان لم يخضع لمنطق رد الفعل أكثر من الفعل كما قد ينطبق على موقف الكتلة الوطنية في الجنوب<sup>(21)</sup>. لقد تساهلت إدارة الحماية بالمنطقة الخليفية مع رجالات الحركة الوطنية فيما يخص المطالب التعليمية لأسباب سياسية ظرفية. ويمكن بذلك اعتبار ان عمل الوطنيين في هذا الميدان كان فعّالاً. فبالرغم من انقسام الحركة الوطنية في الشمال على نفسها، فإن التنافس في الميدان السياسي

---

(21) عثمان أشقرى «الفكر الاصلاحى الوطنى والمسألة التعليمية...»، مجلة المشروع عدد 7 - 8 سنة 1986.

تكرس في الواقع في إطار العمل التعليمي، فألى جانب مؤسسة المعهد الحر، أسس الشيخ محمد المكي الناصري — زعيم حزب الوحدة المغربية آنذاك — معهد مولاي المهدي، وتمثل التنافس أيضا في مستوى إرسال البعثات الطلابية إلى المشرق العربي. فهذا التنافس وإن كان وليد صراع سياسي فإنه كانت له نتائج إيجابية في الميدان التعليمي والثقافي بالمنطقة. لقد أثار هذا الفعل رد فعل الحكومة فأنشأت المعهد الرسمي في الأربعينات. لكن هذا العمل استفاد منه الوطنيون وعملوا على استقطابه واستغلاله لتثبيت مناهجهم التربوية والتعليمية.

ونعود إلى التساؤل عن ماذا حققته الحركة الوطنية بالشمال في هذا الميدان ؟ لا نشك في أن الأفكار الإصلاحية فتحت آفاقا واسعة لقيام «نهضة» تعليمية. لقد فككت هذه الأفكار البنية التعليمية التقليدية السائدة، وفتحت الطريق أمام تحرير التربية والتعليم، وطرحت «المشروع — البديل» ولو بصورة غير مقنعة. وأهمية دورها أنها أسهمت في خلق مدرسة وطنية وأوجدت بالمنطقة نواة قائمة الذات بمدارسها وأطرها المتعددة. إلا أن أهم شيء امتازت به هو توجيهها نحو التعريب والمحافظة على الشخصية القومية في التعليم.

فهل يمكن لهاته الحركة أن تحدث أكثر من ذلك ؟





# حزب الإصلاح الوطني والاستقلال

ذ. حسن الصفار

لقد كانت مسألة استقلال المغرب قضية حاضرة في ذهن حزب الإصلاح الوطني منذ ميلاده سنة 1936 وذلك على الرغم من كون الاتجاه الاصلاحي كان هو الغالب في توجهات الحزب خلال السنوات الأولى من حياته، فأول طرح لمسألة الاستقلال نجده ضمن القانون الأساسي لحزب الإصلاح الوطني الذي جعل من بين الغايات الأساسية للحزب :

أ — ائصال الأمة المغربية إلى جميع حرياتنا وكامل استقلال أراضيها.  
ب — تحقيق الوحدة المغربية سياسيا ولغويا...»<sup>(1)</sup>.

كما طرق حزب الإصلاح الوطني باب الاستقلال في اطار اتجاهه الاصلاحي حيث اقبل على تقديم مطالب الشعب المغربي إلى كل من الخليفة السلطاني والمقيم العام الاسباني سنة 1938، حيث نص في مقدمة هذه المطالب على التالي : «ولذلك فإننا نلح في الاسراع بتنفيذ هذه المطالب ونعتبر هذا التنفيذ هو الخطوة الأولى للوصول إلى استقلالنا الاداري الذي نؤمله في القريب العاجل إذ به يتبأ للمغرب أن يعد نفسه ليصل إلى غايته الكبرى التي هي الاستقلال المطلق...»<sup>(2)</sup>.

---

(1) القانون الأساسي لحزب الإصلاح الوطني، وهو يوجد بين وثائق الأمانة العامة لحزب الإصلاح الوطني بخرانة الحاج الطيب بنونة ضمن الملف رقم 1 الحامل لاسم «وثائق حزب الإصلاح الوطني...» — الوثيقة تحمل رقم 1.

(2) مقدمة «مطالب الشعب المغربي» — مقدمة من اللجنة التنفيذية لحزب الإصلاح الوطني إلى سمو الخليفة السلطاني مولانا الحسن أيده الله وإلى مجادة المقيم العام في فاتح عام 1357 : الصفحة ز.

الا أن حزب الإصلاح الوطني عرف بعد وقت قصير تحولا أساسيا في اتجاهه  
الإصلاحي بدافع مجموعة من العوامل، منها نهاية الحرب الأهلية الأسبانية سنة  
1939 التي فضحت حقيقة الوعود الفرانكاوية المعسولة، ودخول العالم في حرب  
عالمية ثانية طاحنة، وخاصة انهزام فرنسا أمام ألمانيا في هذه الحرب في أواسط سنة  
1940 ؛ فمنذ هذا التاريخ تبنى الحزب اتجاهها استقلاليا صرفا حيث ركز كل  
جهوده ومطالبه على الاستقلال التام والفوري للمغرب، وقد جاءت مظاهرة 17  
يونيو 1940 كمؤشر أساسي على انطلاق هذا الاتجاه الجديد<sup>(3)</sup>.

وفي إطار نفس الاتجاه صرح الأستاذ الطريس يوم 24 يونيو 1940 قائلا :  
«المغرب المستقل لبنينه الأوفياء» هو المبدء الذي يلزم أن نعيش لتحقيقه أو نموت  
في سبيله»<sup>(4)</sup>.

وعندما بات من المنتظر بين اللحظة والأخرى انتهاء الحرب العالمية الثانية بعد  
ترجيح كفة الحلفاء وتمكن فرنسا من الوقوف على رجلها من جديد، ونزول  
الأمريكان بأرض المغرب يوم 8 نوفمبر 1942، أقبل حزب الإصلاح الوطني  
على خطوه مهمة في إطار الاستعداد لهذا الظرف الجديد وذلك بتكوينه لجهة قومية  
للوطنية المغربية مع حزب الوحدة المغربية بتاريخ 18 دجنبر 1942. وبعد أقل  
من شهر على محادثات الملك محمد الخامس مع الرئيس الأمريكي روزفلت بأنفا  
يوم 22 يناير 1943 اقدم الحزبان على أهم خطوة لهما في إطار ما يمكن تسميته  
بالعمل المباشر لاسقاط الحماية واعلان استقلال المغرب ووحدة ترابه.

فقد قام حزب الإصلاح الوطني وحزب الوحدة المغربية في إطار الجبهة القومية  
بتقديم أول مذكرة للمطالبة باستقلال المغرب ووحدة ترابه إلى قناصل وسفراء  
الدول الأجنبية المعتمدين بمدينتي طنجة وتطوان بتاريخ 14 فبراير 1943 —

---

(3) لقد قامت هذه المظاهرة بتطوان على اثر وصول نيا استسلام القوات الفرنسية امام القوات  
الألمانية في الحرب العالمية الثانية ؛ وقد تم خلال هذه المظاهرة رفع شعارات المطالبة بالاستقلال  
التام والفوري للمغرب، كما رفعت الجماهير الوطنية شعارات معادية لفرنسا، وتم حمل العلم  
الفرنسي فوق نعش من الخشب وانتهى الأمر بتمزيق هذا العلم واحراقه أمام القنصلية الألمانية.

(4) مقال «الحقيقة هي هذه وفي عنقنا عهد لا نخونه» — عبد الخالق الطريس، جريدة الحرية  
— السنة 4 — عدد 310 — 24 يونيو 1940.

الموافق 8 صفر الخير 1362 — أي قبل حوالي إحدى عشر شهرا على تقديم وثيقة الاستقلال ليوم 11 يناير 1944 بجنوب المغرب.

وهذه الوثيقة التاريخية المهمة ليوم 14 فبراير 1943 الموجهة أساسا إلى حكومات كل الدول، تتعرض في مقدمتها للتطورات الدولية المهمة التي يعرفها العالم والتي تلعب لصالح حق تقرير الشعوب لمصيرها، كما تتعرض لأهلية المغرب للتمتع بهذا الحق. وإلى فشل نظام الحماية في هذا البلد بعد تجربة طويلة ومخالفته لشروط وبنود عقد الحماية، وتعلن عن أحداث جبهة قومية للحركة الوطنية المغربية باسم الشعب المغربي للدفاع عن حقه في العدل والحرية والاستقلال... ثم تضيف هذه المذكرة :

«وطبقا لكل هذا تتلخص أمنية الشعب المغربي وإرادة الأمة المغربية في الظروف الحاضرة فيما يلي :

أولا — اعلان سقوط نظام الحماية المفروض على جميع أطراف المغرب.

ثانيا — اعتبار إرادة الشعب المغربي في حد ذاتها مصدرا طبيعيا لتقرير مصيره وحكم نفسه بنفسه...

ثالثا — حل القضية المغربية على الأساس الشرعي والقانوني الوحيد وهو تجديد الاعتراف باستقلال المغرب وسيادته الداخلية والخارجية واعادة ترابه الوطني كما كانت في عهد الاستقلال تحت ظل العائلة العلوية المالكة، مع ضمانه هذا الاعتراف من جميع الدول ولا سيما دول أوروبا وأمريكا.

رابعا — عقد اتفاقات ومعاهدات حرة لضمانة المصالح المشتركة مع كل الدول التي ترغب أن يكون بينها وبين المغرب الحر المستقل تعاون اقتصادي أو ثقافي منظم أو غير ذلك من أنواع التعاون، ولا سيما الدول المجاورة والدول الإسلامية.

خامسا — اعتبار الاجانب المقيمين في تراب المغرب على قدم التساوي التام من ناحية المعاملة والمعيشة والاقتصاد والعدالة.

سادسا — اعتبار التراب المغربي بجميع أطرافه وحدوده وشواطئه ومياهه واجوائه أرض حياد تام مطلق عند قيام أي نزاع دولي مسلح، وبالنسبة إلى كافة المتحاربين حاضرا ومستقبلا...».



كما تطلب هذه الوثيقة من الحكومات المعنية تسهيل الطريق أمام تمثيل المغرب تمثيلا صحيحا في مؤتمر الصلح القادم... وتنتهي بتوقيع السيدين عبد الخالق الطريس والمكي الناصري<sup>(5)</sup>.

وقد تقرر ارسال هذه المذكرة ليوم 14 فبراير 1943 إلى كافة الدول، ففي نفس اليوم المؤرخة فيه هذه المذكرة ارسلت مرفقة بنص الميثاق الوطني — الذي انبثقت عنه الجبهة القومية للوطنية المغربية بين الحزبين — إلى دول المحور ودول الحلفاء والدول المحايدة مثل المانيا وايطاليا واليابان والبرتغال والولايات المتحدة والبرازيل وسويسرا والاتحاد السوفياتي وانجلترا واسبانيا وفرنسا وكندا...

كما تم ارسال مذكرة المطالبة بالاستقلال هاته مرفقة برسالة وبنص الميثاق الوطني إلى المغفور له محمد الخامس يوم 15 فبراير 1943. وأيضا تم ارسال نص المذكرة ونص الميثاق مع رسالة إلى الخليفة السلطاني مولاي الحسن ابن المهدي بنفس التاريخ.

كما تم ارسال نص هذه المذكرة مرفقة بنص الميثاق الوطني إلى الدول الاسلامية الأربع بتاريخ 15 فبراير 1943، وهي مصر في شخص ملكها فاروق الأول، وتركيا في شخص رئيسها عصمت إينونو، والعراق في شخص الوصي على عرشها، والسعودية في شخص ملكها عبد العزيز آل سعود.

وفي يوم 16 فبراير 1943 تم توجيه نص هذه المذكرة مع نص الميثاق إلى باي تونس، وقد ارفقتا برسالة تشير إلى ضرورة العمل من أجل تحقيق وحدة المغرب العربي.

وفي نفس يوم 16 فبراير 1943 تم توجيه نص مذكرة الاستقلال مع نص الميثاق الوطني مرفقتين برسالة إلى كل من الحزب الوطني بزعامة علال الفاسي والحركة القومية بزعامة محمد ابن الحسن الوزاني.

وأخيرا في يوم 7 مارس 1943 تم الاتجاه نحو الزعماء المسلمين، حيث تم

---

(5) عن النص الأصلي لوثيقة الاستقلال ليوم 14 فبراير 1943، وهي توجد بين وثائق الأمانة العامة لحزب الاصلاح الوطني بخزانة الحاج الطيب بنونة ضمن الملف رقم 19 الحامل لاسم «الجبهة الوطنية» — والوثيقة تحمل رقم 2.

توجيه نص المذكرة ونص الميثاق إلى كل من الأمير شكيب ارسلان والمفتي محمد أمين الحسيني مع رسالة ترحي من الزعيمين بذل نفوذهما قصد تشجيع الحركة وتأييدها في الدوائر الاسلامية والدولية<sup>(6)</sup>.

والجدير بالذكر أن وثيقة الاستقلال ليوم 14 فبراير 1943 قد اكتست أهمية كبرى بحكم عاملين : الأول منهما هي كونها كانت أول مناداة علنية ورسمية باستقلال المغرب ووحدة ترابه مع اسقاط نظام الحماية، وثانيهما هي كونها قد ارسلت إلى كافة دول العالم المستقلة بغض النظر عن أنظمتها وسياساتها... وقد قال الأستاذ الطريس بخصوص هذه الوثيقة : «وان من دواعي الغبطة ان تكون هذه المنطقة أول من نادى بوجوب استقلال المغرب»<sup>(7)</sup>.

كما أن حزب الاصلاح الوطني بمجرد توصله بخبر تقديم وثيقة 11 يناير 1944 بالمنطقة السلطانية المعروفة «بوثيقة الاستقلال»، بادر إلى تحرير مذكرة تأييد لهذه الوثيقة وجهها إلى الملك محمد الخامس بتاريخ 29 فبراير 1944 الموافق ليوم 4 ربيع النبوي عام 1363، وقد حمل هذه المذكرة إلى الرباط السيد مولاي العربي العلوي.

ومذكرة حزب الاصلاح الوطني هاته ليوم 29 فبراير 1944 بعد تأكيدها في المقدمة على كون مطالب حزب الاستقلال تشكل مطالب الأمة بكاملها، وعلى رغبة الشعب المغربي في التحرر من الاستعباد والاستعمار، وعلى أهليته للتمتع بهذا الحق... تضيف فتقول :

«مولانا — إننا نغتنم هذه الفرصة لنضم صوتنا إلى صوت حزب الاستقلال نؤازره ونؤيده في مطالبه العادلة معبرين بذلك عن شعور شعبكم الوفي في هذه المنطقة من المغرب ومؤكدين لجلالتكم بأن مبادئنا واحساسنا في هذه الديار هي

---

(6) فيما يخص الدول والشخصيات التي ارسلت اليها وثيقة الاستقلال ليوم 14 فبراير 1943، اعتمدت على وثيقة صوتية لمحاضرة الأستاذ محمد المكي الناصري يوم 14 فبراير 1987 بدار الثقافة بتطوان حول الذكرى 44 لتقديم وثيقة 14 فبراير 1943.

(7) خطاب عيد الجهاد الوطني لسنة 1946، منشورات بكتاب «من تراث الطريس» لعبد الحالق الطريس — الصفحة 190.

عين المبادئ المغربية الخالصة والاحساسات الوطنية الصرفة. فما يؤلم الأمة هناك يؤلمنا هنا وما يبهجها هناك يبهجنا هنا. واننا لا نعتبر انفسنا الا جزءا متصفا للمغرب العظيم الجبار...».

وبعد ذلك تشتكي هذه المذكرة إلى جلالته من المعاناة التي يعانيها سكان شمال المغرب من الاستعمار الاسباني، كما تبدي ابتهاج الحزب من تزعم الملك للحركة الاستقلالية في المغرب... ثم تضيف :

«صاحب الجلالة — ان آمال الشعب المغربي كلها معلقة على جهودكم ومساعدتكم الدبلوماسية في سبيل تحرير المغرب. وان مصير الأمة ومستقبل الوطن في يديكم... ونحن — يامولانا — من هنا من شمال المغرب بالنيابة عن باديته وحاضرتة وشرفائه وعلمائه وزراعه وتجاره وصناعه وملاكه نستغيثكم باسم الاسلام ونرجوكم بحق النبي الأعظم أن يكون دفاعكم عن المغرب دفاعا عن وحدته بجميع مناطقه وحدوده، وان يكون استنكاركم للاستعمار استنكارا عاما لا فرق فيه بين فرنسي واسباني لعل الله يجعل الفرج على يديكم. وان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم».

وقد وقع مذكرة التأييد هاته كل من السادة : عبد الخالق الطريس، التهامي الوزاني، أحمد غيلان، محمد الطنجي، محمد طنانة، محمد بن مصطفى افيلال، الحاج محمد الشرقي، الحاج محمد الصفار والطيب بنونة<sup>(8)</sup>.

والجدير بالذكر أن مذكرة التأييد ليوم 29 فبراير 1944 قد اكتست بدورها أهمية كبرى بحكم عاملين : الأول منهما هو كونها قد عملت على تحقيق الاجماع الوطني بين الشمال والجنوب حول ضرورة حصول المغرب على استقلاله، وثانيهما هو كونها قد جددت التأكيد على ضرورة اسقاط الاستعمارين الفرنسي والاسباني معا والعمل على توحيد المغرب بكافة اجزائه.

كما أرسل السيدان عبد الخالق الطريس رئيس حزب الاصلاح الوطني ومحمد

---

(8) عن مذكرة حزب الاصلاح الوطني لتأييد وثيقة الاستقلال بتاريخ 29 فبراير 1944، وهي توجد بين وثائق الأمانة العامة لحزب الاصلاح الوطني بخزانة الحاج الطيب بنونة ضمن الملف رقم 7 الحامل لاسم «تقارير سياسية» — والوثيقة تحمل رقم 4.



المكي الناصري رئيس حركة الوحدة المغربية مذكرة مشتركة باسم الجبهة القومية للوطنية المغربية إلى السيد روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة بتاريخ فاتح أبريل 1945، وهذه المذكرة بعد عرضها لمجموعة من الحيتيات الداخلية والخارجية والتاريخية، تعلن أن الجبهة القومية للوطنية المغربية بالتضامن الكامل مع حزب الاستقلال وبالاتفاق التام مع رغبات جلالة الملك وسائر طبقات الشعب المغربي قد قررت المطالبة بما يلي :

« 1 — اعلان سقوط نظام الحماية الفرنسية الاسبانية، والغاؤه بكافة ذيلوله من جميع أطراف المغرب.

2 — اعتبار إرادة الشعب المغربي في حد ذاتها مصدرا طبيعيا لتقرير مصيره وحكم نفسه بنفسه...

3 — حل القضية المغربية على الأساس الشرعي والقانوني الوحيد، وهو تجديد الاعتراف باستقلال المغرب، وسيادته الداخلية والخارجية، واعادة وحدة التراب الوطني المغربي كما كانت في عهد الاستقلال...

4 — اقامة نظام سياسي شوري ديموقراطي في المغرب شبيه بنظام الحكم الدستوري في البلاد العربية بالشرق الأدنى...

5 — عقد اتفاقات ومعاهدات حرة لضمانات المصالح المشتركة مع كل الدول التي ترغب في أن يكون بينها وبين المغرب الحر المستقل تعاون دولي من أي نوع كان.

6 — معاملة الرعايا الأجانب المقيمين في تراب المغرب على قدم المساواة التامة مع الرعايا الأجانب المقيمين في الدول الأخرى...

7 — تسهيل الوسائل لانضمام المغرب إلى كتلة الأمم المتحدة، وقبوله في عصبة الأمم العربية كعضو حر مستقل».

وتشير هذه المذكرة في الختام إلى كون الذمة المغربية تعلق أعظم الآمال على الحكومة الأمريكية لمساعدتها على تحقيق مطالبها العادلة...<sup>(9)</sup>.

(9) يوجد نص هذه المذكرة بين وثائق الأمانة العامة لحزب الاصلاح الوطني بخزانة الحاج الطيب بنونة ضمن الملف رقم 19 الحامل لاسم «الجبهة الوطنية» — والوثيقة تحمل رقم 5.



كما أنه قد ارفق بهذه المذكرة تقرير مختصر عن الوضعية الحالية المؤلمة للمغرب والمغاربة تحت نظام الحماية الفرنسية الاسبانية<sup>(10)</sup>.

وفي شهر غشت من سنة 1946 بمناسبة عيد الفطر عرفت مدينة تطوان مظاهرة استقلالية وطنية كبرى بقرار من حزب الاصلاح الوطني ؛ حيث امتلأت ساحة الفدان بالجماهير الغفيرة صباح العيد ترقبا لعودة سمو الخليفة من صلاة العيد، وقد رفعت الجماهير لافتات كتبت عليها عبارات مثل «ليحيى المغرب حرا مستقلا موحدا»، «ليحيى زعماء المغرب»، «ليحيى حزب الاصلاح الوطني»... وعند وصول موكب الخليفة إلى الساحة أحاط الشعب بسيارته وعلت أصوات الجماهير هاتفة «الاستقلال — الاستقلال — الاستقلال»، ورافق الجمهور الموكب الخلفي إلى المشور في جو من التأثر والابتهاج.

وبعد ذلك توجهت المظاهرة نحو الحي الأوروبي مخترقة شارع الجنرال فرانكو، وقد حاول رجال البوليس قطع الطريق أمام المظاهرة في باب النادي الاسباني إلا أن المتظاهرين اخترقوا صفوفهم. وقد عاد البوليس لاعتراض طريق المظاهرة بعد حوالي مائة متر واسفرت الحالة عن بعض الاشتباكات بين الطرفين إلى حين حضور باشا العاصمة الذي استطاع بتدخله أن يهدأ الأجواء.

وعادت المظاهرة بعد ذلك إلى المشور حيث وقف نجل الخليفة الأمير مولاي المهدي وسط المتظاهرين وخاطبهم قائلا : «باسم والدي : ليحيى المغرب. ليحيى الاستقلال»، وبعد ذلك طلب سكرتير الحزب السيد الطيب بنونة من المتظاهرين التزام الهدوء وتفريق الجمع. ومما زاد هذه المظاهرة الاستقلالية هيبه وحماسا هو كون متقدمها كان شيخا وقورا هو العالم الجليل سيدي احمد بن عبد الواحد الفاسي الذي كان يخترق الشوارع و صفوف البوليس مرددا قوله تعالى : (وكان حقا علينا نصر المؤمنين)<sup>(11)</sup>.

(10) عن نفس المصدر.

(11) عن «بيان حزب الاصلاح الوطني عن حوادث عيد الفطر بتطوان» الموجود بين وثائق الأمانة العامة لحزب الاصلاح الوطني بخزانة الحاج الطيب بنونة ضمن الملف رقم 7 الحامل لاسم «تقارير سياسية» — والوثيقة تحمل رقم 15، وكذلك عن محاضرة الأستاذ المكي الناصري ليوم 14 فبراير 1987 بدار الثقافة بمدينة تطوان.

وفي يوم 28 أكتوبر 1946 وجه الأستاذ الطريس باسم حزب الإصلاح الوطني برقيات إلى سكرتير هيئة الأمم المتحدة ورؤساء الوفود العربية يطالب فيها بإلغاء الحماية عن المغرب ومنح هذا البلد حريته واستقلاله في ظل العرش العلوي<sup>(12)</sup>.

وقد تابع الحزب دعوته لاستقلال المغرب بصفة مكثفة من خلال جريدة الحرية الناطقة رسميا بلسان حاله، حيث نجد الأستاذ الطريس يصرح في مقال له بهذه الجريدة بتاريخ 6 يناير 1947 بما يلي : «وقد قلنا بصريح العبارة في استئناف نشاطنا الحزبي أننا نسعى لنيل الاستقلال لأنه الوسيلة الوحيدة للإصلاح. فالاستقلال هدفنا سنحصل عليه ولو كلفنا الأمر ما كلف. ولسنا بذلك نسيء لأحد أو نستغل ظروف أحد وإنما نعلن بذلك عزمنا الأكيد على طلاق هذه الحياة الشاذة التي نحيها لأنها حياة تتنافى مع شرف الرجال وكرامة الأحرار...»<sup>(13)</sup>. وقد زادت هذه الدعوة تأججا وقوة لدى حزب الإصلاح الوطني بعد زيارة المغفور له محمد الخامس لطنجة خلال شهر أبريل من سنة 1947 وإعلانه لحق المغرب في الحرية والاستقلال والوحدة.

وبعد الأحداث الدامية التي عرفتها مدينة تطوان يوم 8 فبراير 1948، تزعم حزب الإصلاح الوطني حملة استنكار شديدة ضد الطغيان الإسباني رافقتها مطالبة ملحة وعاجلة باستقلال المغرب وتوحيد ترابه.

كما تبنت جريدة الأمة الناطقة رسميا بلسان حال حزب الإصلاح الوطني دعوة الحزب الاستقلالية منذ ميلادها، حيث نجد هذه الجريدة بمجرد ظهورها نشرت في عددها الثاني من سنتها الأولى بتاريخ 4 ماي 1952 فقرة من خطاب رئيس الحزب الأستاذ الطريس بالقصر الكبير جاء فيه : «ان حزبنا قام بالشيء الكثير من أجل سيادة هذه البلاد وسعادتها وسيكون عمله في مستقبل الأيام أعظم مما سبق سيرا مع تطورات الأحوال وأنه سيجد في عمله حتى يحقق للبلاد كل أمانها في السيادة ويرى راية الاستقلال ترفرف فوق جميع ربوعها».

(12) عن جريدة الحرية — السنة 10 — عدد 931 — 28 أكتوبر 1946.

(13) «حديث اليوم» — عبد الخالق الطريس، جريدة الحرية — السنة 10 — عدد 971 — 6 يناير 1947.

وبعد اقبال فرنسا على عملها الاجرامي يوم 20 غشت 1953 بنفي الملك محمد الخامس حمل حزب الاصلاح الوطني شعاره النهائي المزدوج القائم على أساس عودة الملك الشرعي واستقلال البلاد باعتبارهما أمرين غير قابلين للانفصال، وبالتالي فإن الحزب قد اعتبر الملك محمد الخامس هو أقصر الطرق لنيل الاستقلال ان لم يكن الطريق الوحيد، وبهذا الصدد صرح الأستاذ الطريس في مهرجان حزب الاصلاح الوطني المنظم بمناسبة عودة الملك محمد الخامس إلى بلاده يوم 16 نوفمبر 1955 قائلاً : «إننا لم نخطيء إذ قلنا ان محمد الخامس هو أقصر الطرق لنيل الاستقلال، ونستطيع ان نجزم اليوم بأنه الطريق الوحيد لهذا الاستقلال، ولتلك الوحدة، ولذلك الحكم الديمقراطي الدستوري ولكل الأماني الوطنية الغالية»<sup>(14)</sup>.

وبعد حصول الملك محمد الخامس على اعتراف فرنسا باستقلال المغرب يوم 2 مارس 1956 عرفت مدينة تطوان عشية يوم 4 مارس 1956 مظاهرة صاخبة تعبيراً عن بهجة الاستقلال ترعّمها حزب الاصلاح الوطني، إلا أن تدخل القوات الاسبانية حول هذه المظاهرة الاستقلالية إلى مواجهة دامية. ورغم التطور السريع للأحداث منذ هذا التاريخ فإن الحزب قد استمر على نهجه الاستقلالي إلى حين اعتراف اسبانيا باستقلال المغرب يوم 7 أبريل 1956.

وفي الختام يمكن القول ان مسألة الاستقلال قد شكلت إحدى الهواجس الأساسية لحزب الاصلاح الوطني منذ ميلاده سنة 1936، وقد كانت هزيمة فرنسا أمام ألمانيا في الحرب العالمية الثانية في أواسط سنة 1940 إيذاناً بخروج هذا الهاجس إلى حيز الوجود وبانطلاق دعوة مكثفة من الحزب إلى الاستقلال التام للمغرب، إلا أن أهم خطوة في إطار العمل المباشر لاسقاط الحماية واستقلال المغرب من طرف حزب الاصلاح الوطني تظل هي مذكرة الاستقلال ليوم 14 فبراير 1943 التي يمكن اعتبارها من أهم الوثائق التاريخية المغربية التي رسمت الطريق أمام استقلال هذا البلد ووحدته.

---

(14) جريدة الأمة — السنة 5 — عدد 686 — 17 نوفمبر 1955.



## ترجمة أبي الحسن الشاذلي في كتاب «سبك المقال لفك العقال»

ذ. جعفر ابن الحاج السُّلَمي

إن الدراسة المتعمقة لتاريخ المغرب الأدبي والسياسي والعقدي والصوفي تصطدم دائما بمعضلة الوثائق. إن هذه الوثائق، في وضعها الحالي، تربك الباحث والقارئ. إن أكثرها، وأحيانا أهمها، مخطوط ومجهول. وإن عدم تحقيق هذه الوثائق، يؤخر كل عمل جاد لدراسة تاريخ المغرب في مختلف جوانبه، أو لمعرفة أصالته الأدبية. ولعل أشد عصور التاريخ المغربي حاجة إلى نشر الوثائق، هي العصور التي سماها المستشرقون الفرنسيون «القرون المظلمة لتاريخ المغرب»، ثم العصران المرابطي والموحدي.

وإذا كان تاريخ المغرب الصوفي في القرن السادس الهجري قد نمت معلوماتنا عنه بنشر كتاب التشوف لابن الزيات، ودعامة اليقين لأبي العباس العزفي، وغيرهما، فإن جانباً من هذا التاريخ الصوفي ما يزال مجهولاً، ولا سيما الذي كان مسرحه هو أقصى شمال المغرب. ونقصد بالطبع النشاط الصوفي في مدينة سبتة وحوزها.

وعلى أهمية رجلين صوفيين دخلا تاريخ المغرب من بابه الواسع، وهما عبد السلام بن مشيش، وأبو الحسن الشاذلي، فإن معلوماتنا عنهما نزرقة قليلة. فأما عبد السلام بن مشيش، فإننا نكاد نجهل عنه كل شيء، إلا أساطير متأخرة، وإشارات إلى تتلمذ أبي الحسن الشاذلي عليه. وأما أبو الحسن، فإن ما نعرفه عنه،



يدور حول نشاطه الصوفي في تونس ومصر. أما في المغرب، ولا سيما في قبيلته، فإننا لا نجد شيئاً ذا بال يشير إليه. حتى إن اسمه ليس إلا نسبة إلى شاذلة، قرية بإفريقية.

وإذا كان مالا يدرك كله، لا يترك جله، فإننا ننشر اليوم نصاً من كتاب «سبك المقال، لفك العقال» لعبد الواحد بن محمد، المعروف بابن الطواح. (كان على قيد الحياة عام 718 هـ — 1319 م)، عسى أن ينير شيئاً من طريق مؤرخ المغرب، والباحث في الأدب المغربي.

وإذا كان الصراع السياسي في القرن السادس ثم السابع الهجري قد عفى على جماعة من الاعلام المغاربة، ذهبوا ضحية له، فضاعت ذكراهم، أو احتفظت بها الأندلس ومصر، فإن الصراع السياسي في القرن الثامن الهجري بإفريقية الحفصية لم يكن أقل عدوانية على الاعلام. هكذا، أعدى أبو الحسن الشاذلي ومتصوفة شمال المغرب بسوء الحظ الاديب التونسي الذي لم يشأ أن تذهب ذكرى أبي الحسن هدرًا. إننا لانكاد نعرف عن ابن الطواح الا أنه كان ما يزال حيا سنة 718 هـ — 1319 م، وهي السنة التي كان يكتب فيها. أما ما عدا ذلك، فعلمه ما يزال في بطن الغيب، الا ما أورده عن نفسه في كتابه.

وهذا النص الذي ننشره، قطعة من كتاب ابن الطواح. وهو يحمل عنوان «سبك المقال، لفك العقال». وهو مخطوط يتيم، على حد علمنا المتواضع، بالخزانة الملكية بالرباط يحمل رقم 105. ويحتوي على 225 صفحة، من مسطرة 22 × 16. وحالة هذا المخطوط حسنة، لولا شيء من الخروم وطغيان المداد. ومعدل السطور به 15 سطرا. وخطه مغربي بارز واضح. ويرجع تاريخ نسخه إلى سنة 1018 هـ — 1609 م. وليس عليه اسم الناسخ. وتقع ترجمة أبي الحسن الشاذلي فيه بعد ترجمة أبي محمد عبد العزيز المهدي، وقبل ترجمة أبي الحسن الحرالي المراكشي. أي من صفحة 48 إلى صفحة 56 بترقيمتنا.

## [أبو الحسن الشاذلي]<sup>(1)</sup>

ومنهم، رضي الله عنهم، إمام زمانه، وذخيرة أقرانه، الإمام الأوحّد، العالم العامل، المحقّق المدرك الذائق، حامل لواء العرفان، وناشر علم البيان، الشيخ أبو الحسن الشاذلي، رضي الله عنه.

وهو علي بن عبد الله بن عبد الجبار، بن تميم بن هرمز بن حاتم، بن قصي بن يوسف بن يوشع، بن ورد بن بطلال بن أحمد، بن محمد بن الحسن، بن علي بن أبي طالب. رضي الله عنه<sup>(2)</sup>.

حسنّي النسب، قريب السبب. من سبط النبوة نجاره، وآل مناف ينسب فخاره. كثيرا ما يحكي عن جدّه سندا وكشفا، وذوقا ووصفا.

## [شيخه]

شيخه الامام العارف، المسلك الولي الذائق، الأوحّد المجتهد المحقّق، السنّي السنّي، أبو محمد عبد السلام بن مشيش<sup>(3)</sup>، رضي الله عنه. عند عزمه على

(1) علي بن عبد الله. (— 651 هـ) ترجمته في : طبقات الأولياء : 458 — 459. رقم 143. نكت الهيمنان : 213. لطائف المتن. العبر : 232/5 — 233. رحلة ابن بطوطة : 21. حسن المحاضرة : 520/1. رقم 41. شذرات الذهب : 278/5 — 279. الوافي بالوفيات. طبقات الشعراي : 4/2. رقم 309. نور الأبصار : 361 — 367. مناقب أبي يعقوب البادسي : 308. واضح البيان والتجريد : 34 — 35. شرح الصلاة المشيشية : 3 — 8. ديوان البوصيري : 69 — 78. الاشراف على نسب الأقطاب الأربعة : 4 — 6. السلوة : 84/1 — 85. الدرر البهية : 157/2 — 159. كشف الظنون : 404/1. 661 — 662. هدية العارفين : 709/1. إيضاح المكنون : 559/1. 97/2. 264/2. الحلل السندسية : 828/1 — 846.

(2) في نسبه خلاف كثير. انظر المصادر المذكورة قبله. وللخلاف في النسب مغزى يعقله المؤرخ السياسي والثقافي.

(3) صوفي مشهور (— 625 هـ أو حولها) ترجمته في لطائف المتن : 45. بيوتات فاس : 66. مناقب أبي يعقوب البادسي : 308 — 309. شرح الصلاة المشيشية : 1 — 9. الدرر السنّي : 42. الاشراف على نسب الأقطاب الأربعة : 43. السلوة : 5/1 — 6. الدرر البهية : 102/2 — 103. النبوغ المغربي : 151/1 — 152.

التوجه من المغرب، الذي طلع به سنى بدره المغرب، أوصاه وقال له (4) :

## [وصية عبد السلام بن مشيش لأبي الحسن الشاذلي]

«يا علي. الله الله. والناس الناس. نزه لسانك عن ذكرهم، وقلبك عن التماثيل من قلبهم. وعليك بحفظ الجوارح، وأداء الفرائض. وقد تمت ولاية الله عليك (5). ولا تذكرهم الا بواجب حق الله عليك. [وقد تم ورعك] (6). وقل : اللهم [أرحني من ذكرهم، ومن العوارض من قبلهم] (7). وأغنني بخيرك عن خيرهم، وقني شرهم، وتولني بالخصوصية من بينهم. إنك على كل شيء قدير» (8).  
نزىل شاذلة (9) فكان شاذله. نسب إليها، وقطن لديها. فطلع شمس أفقها وهلال غسقها.

تبعه بعض أهل زمانه من الفقهاء، فكان غضب غرضه لديه مثل البهاء. وتعقب عليه كلمات، كان بها في حية فدحات. سعى في نفيه وإزعاجه، وقطيعته من تلك الجهات وإخراجها.

يروى عن الفضيل بن عياض (10) أنه قال : «الغيبة فاكهة القراء». وقد حسده قوم لنبله، فبغوا عليه وذموه.

(4) الوصية في : ثبت أبي جعفر البلوي : 164 — 165. شرح الصلاة المشيشية : 7.

(5) ثبت أبي جعفر البلوي : 165 : عندك.

(6) زيادة من المصدر السابق : 165.

(7) سقط من متن الأصل. وهو وارد في أعلى الطرة. لكنه غير واضح. وقد استعضنا عنه برواية المصدر السابق : 165.

(8) رواية شرح الصلاة المشيشية مختصرة وكثيرة التحريف وهي هكذا : «... قال له : قل : الله الله. والناس. ونزه لسانك عن ذكرهم، وقلبك عن التماثيل من قبلهم. وقل : اللهم ارحمني من ذكرهم، ونجني من شرهم، وأغنني بخيرك عن خيرهم، وتولني خصوصية من بينهم. إنك على كل شيء قدير».

(9) قرية تونسية.

(10) صوفي مشهور. (— 187 هـ) ترجمته في : طبقات الصوفية : 6 — 14. رقم 1. طبقات =



قال ابن عباس<sup>(11)</sup>، رضي الله عنه، «يؤخذ بقول العلماء في كل شيء، الا قولهم في بعضهم بعض».

وقال ابن حازم : «حسد العلماء بغى وداء».

وقال الفضيل أيضا : «لا تصحب القُرَّاء. فإنك إن أرضيتهم مدحوك بما لا فيك. وإن أغضبتهم، شهدوا عليك بما لا فيك».

فلما حلّ بالديار المصرية، حلّ لديهم بدر الهداية، وإمام الدراية. ورث مقام القطب الشهير، والعلق الخطير، أبي الحجاج الأقصري<sup>(12)</sup>، رضي الله عنه، وحضر مجلسه الامام المفتي عز الدين بن عبد السلام الدمشقي<sup>(13)</sup>. ومما يسند إليه، ويعول في ذلك عليه أنه قال يوما بمحضره : أخبرني جدّي بكيت وكيت. يعني النبي، عليه السلام. فقال له : كذبت يا شيخ. فلما ظهر منه الانكار، وإذا رجل يققع حلقة الدار. فأمر الشيخ بدخوله. وكان قولا. فقال الشيخ : قل. فقال على البديه، من غير تلبيس ولا تمويه :

1 — صدق المحدث والحديث كما جرى<sup>(14)</sup> [الكامل] / فبادر عز الدين للتوبة مما جرى منه. ومذ شاهد الحاضرون من لدنه، نحا ناحية الصواب بلثم بنانه. وجذب بعروة التوبة في فوره وأوانه.

---

= الشعراي : 68/1 — 70. رقم 139. الرسالة القشيرية : 62/1 — 64. وفيات الأعيان : 47/4 — 50 رقم 531. شذرات الذهب : 316/1 — 318. العبر : 98/1. طبقات الأولياء : 266 — 271. تذكرة الحفاظ : 245/1 — 246.

(11) عبد الله بن عباس. صحابي مشهور (— 68 هـ) ترجمته في : الاستيعاب : 933/3 — 939. رقم 1588. غاية النهاية : 425/1 — 426. رقم 1791. طبقات المفسرين للداودي : 239/1. رقم 224. تذكرة الحفاظ : 40 — 41. العبر : 76/1.

(12) يوسف بن عبد الرحيم. صوفي مصري. (— 642 هـ). ترجمة في : طبقات الأولياء : 480 — 481. رقم 163. طبقات الشعراي : 157/1 — 159. رقم 278. حسن المحاضرة : 518/1. رقم 32. القاموس المحيط : مادة أقصر.

(13) أبو محمد عبد العزيز. عالم كبير. (— 660 هـ) ترجمته في : شذرات الذهب : 301/5 — 302. العبر : 260/5. حسن المحاضرة : 314/1 — 316. رقم 68.

(14) الشطر في : لطائف المتن : 43 والقصة مذكورة فيها مع خلاف في الرواية.



قال، رضي الله عنه :

خوطبت أن ادع علي من ظلمك. فقلت : يارب. أدعو<sup>(15)</sup> له بالصلاح والتوبة. فقبل لي ثانية : ادع عليه. فقلت : يارب أدعو<sup>(16)</sup> له بالصلاح والتوبة. فقبل لي ثالثة : ادع عليه. فقلت : ماذا أقول ؟ علمني كيف أقول. فقال : اللهم اقطع البركة من علمه وعمره. وافتنه في ولده. واقطع دابره بسوء العافية له. واجعله نكالا للمتقين. فكان الأمر كما قال.

أخبرني شيخنا، الشيخ الفقيه الأعدل الأفضل، أبو زكرياء اليفرني<sup>(17)</sup> بدرسہ المبارك، قال : كان من دعا عليه الشيخ أبو الحسن مفتونا بولده.

فمما اتفق له، أن ولده بلغ مبلغ الرجال. فمن شفقتة عليه، أراد أن لا يؤله بالحديد، ويمنعه من الختان. وقال بمحضر جلسائه : خمس من الفطرة. نتف الابطين، وتسوية الشارب، وتقليم الأظفار، وحلق العانة والختان. فعزم أن لا يفعل ذلك. فقال له بعض معاصريه : يا شيخ. أحببت أن ترجمنا العامة بالحجارة.

رأى بالمغرب مشايخ عدّة. وهو من غمارة. وكان يقرئ كتاب سيبويه<sup>(18)</sup>، وابن عطية<sup>(19)</sup> في التفسير.

(15) (16) في الأصل : ادع.

(17) يذكره المؤلف كثيرا في كتابه «سبك المقال» ويروي عنه. (— 701 هـ) ترجمته في : درة البحال : 334/3. رقم 1451. عنوان الدراية : 267. ألف سنة : 97.

(18) أبو بشر عمرو بن عثمان. نحوي مشهور. (— 180 هـ) ترجمته في : وفيات الأعيان : 463/3 — 465. رقم 504. إنباه الرواة : 346/2 — 360. رقم 515. العبر : 278/1. بغية الوعاة : 229/2 — 230. رقم 1863. شذرات الذهب : 252/1 — 255. طبقات النحويين : 66 — 72. رقم 22. غاية النهاية : 602/1. رقم 2459. كشف الظنون : 1426/2 — 1428. معجم الأدباء : 114/16 — 127. رقم 13.

(19) أبو محمد عبد الحق بن أبي بكر المحاربي الغرناطي. مفسر كبير. (— 541 هـ) ترجمته في : شجرة النور : 129/1. رقم 375. طبقات المفسرين (للسيوطي) : 50. رقم 49. طبقات المفسرين (للداودي) : 265/1 — 266. رقم 251. فهرس الفهارس : 862/2 — 863. رقم 492. الاحاطة : 539/3 — 541. الصلة : 386/2 — 387. رقم 830. الديباج المذهب : 57/2 — 59. بغية الملتبس : 376. رقم 1103. بغية الوعاة : 73/2 — 74. رقم 1470. معجم الصد في : 259 — 262. رقم 340. المرقبة العليا : 109. نفح الطيب : 526/2 — 528. قلائد العقيان : 205 — 207. فهرسته. رايات المبرزين : 85. رقم 74. هدية العارفين : 502/1. كشف الظنون : 1613/2.

وصحب الشيخ العارف المكاشف، صاحب الكرامات الشهيرة، والأوقات النيرة، أبا سعيد خلفا الباجي التميمي<sup>(20)</sup>. وكانت وفاة الشيخ أبي سعيد عام ثمانية وعشرين وست مئة [628 هـ — 1230م] وهو المعزي في الشيخ أبي محمد عبد العزيز المهدي<sup>(21)</sup>.

توفي الشيخ أبو الحسن بَحْمِيَّرى بدرب الحجاز. ودفن هنالك. وكان ماؤها زعافا، فعذب ببركته طعمه.

أخبرني بعض الحجاج الموثوق بهم من أصحابنا، بقبة الفقراء بجامع الزيتونة، شرفه الله تعالى، وذلك في شهر رمضان المعظم من عام أربعة عشر وسبع مئة [714 هـ — 1314م] قال : خرجت ناظرا على معدن الزمرد. فاجتزنا بالموضع المذكور. فرأيت رجلا من سكان ذلك المكان، وهو يضلع متوكيا على عصا. فقلت له : ما سبب ذلك ؟ فقال : إن ناسا من الحجاج وردوا علينا. فزاروا قبر الشيخ. فضيقوا علينا في ورود الماء. فقلت برجلي مشيرا لهم : ارفعوه عنا، واتركوا مجيئكم إلينا. وأومات إليه. فلمستها، فإذا هي يابسة كالجلد.

وكان من أكابر أولاده، الشيخ العارف العالم المدرك المحقق. أبو العباس المرسى<sup>(22)</sup>، رضي الله عنه. وكان ابتلي بناصر<sup>(23)</sup> بين السبيلين. وله كلام في الطريق. نحافيه منحى شيخه. لولا التطويل لأتينا على نبذ منه. لكن في هذا كفاية وهداية.

كتب الشيخ أبو الحسن من البلاد، لبعض أصحابه الكتاب الشهير. وهو بليغ

(20) خلف بن يحيى. متصوف تونسي. ترجمته في : نزهة الأنظار : 547/1.

(21) عبد العزيز بن أبي بكر القرشي. صوفي من أشياخ محيي الدين بن عربي (— 621 هـ) ترجمته في : سبك المقال : 10 — 47. شجرة النور : 169/1. رقم 531. وذكره ابن عربي في : الفتوحات المكية : 59/1 — 74. رسالة روح القدس : 3 — 11.

(22) أحمد بن عمر. صوفي أندلسي. (— 686 هـ) ترجمته في : لطائف المنن. طبقات الأولياء : 418 — 420. رقم 118. حسن المحاضرة : 523/1. رقم 52. نيل الابتهاج : 64. طبقات الشعراني : 12/2 — 20. رقم 310.

(23) كذا بالأصل. ولم أجد الكلمة في «لسان العرب». وهي مستعملة في العامية المغربية بنفس المعنى المقصود، مع ابدال الصاد شيئا.

فصيح عذب الألفاظ، سهل على الحفاظ. وهو يشير فيه إلى القطبية، وبلوغ الأمنية. وهي غاية مطلبهم، ومنتهى أريهم. ونصّه :

### [رسالة أبي الحسن الشاذلي في التصوف]

أما بعد، فإني منذ اثنتي عشرة سنة، أغدو وأروح، فيما هيا الله لي من سفر الروح، على عساكر أولياء الله. فما مررت بك الا وجدت ريحا طيبة تعقلها العقول، وتألفها النفوس، وترتاح لها الأفئدة، ويتهيج بها الدين، ويدعن لها الأمر، ويجمع بها كل مفترق، ولا يجهلها من علم، ولا يعلمها من جهل. فوجدت أدنانهم بمنزلة الرجلين، وأعلامهم بمنزلة الرأس. فلا رأس الا برجلين، ولا رجلين الا برأس. والكل واحد. والتخصيص بين<sup>(24)</sup>. طهر بهم الله بماء التّمحيص، فوصلوا رتبة التّخصيص. فأول طهارتهم، التي هي شرط في طريقتهن، الاعراض عما سوى الله، فصلّوا صلاة متقبلة بالاقبال على الله، فجاجهم بما سمعوا من لذيذ خطابه، وسقاهم من كؤوس المحبة فأسكرهم من شرابه. ثم ولاهم ولاية التّخصيص لما كملوا. وأبرزهم للخلق بما به فضلوا، فجاءوا ملوكا في زي الفقراء. عمدة الملوك العدد والأنصار، وعمدة الفقراء الغنى بالله، والرّضى بمجاري الاقدار. قليل من يحبّهم، كثير في المعنى. كثير من يبغضهم، قليل في المعنى. الشمس واحدة. كثيرة في المعنى. النجوم عدد كثير. قليل عند ظهور الشمس. وهي سنة الله مع الأولياء. فاستبان فضيلة الولي بكثرة أعدائه، وقلة أنصاره. ثم لا يعبا بهم. بل يحرضهم على نفسه. فيقول : «قل أدعوا شركاءكم، ثم كيدون فلا تنظرون.

إن وليي الله الذي نزل الكتاب، وهو يتولّى الصّالحين»<sup>(25)</sup> «إن لا تنصروه فقد نصره الله»<sup>(26)</sup> فلا تعباً بمن ناواك، ولا تعتمد على من تولاك. فإنما هي

(24) كلمة غير واضحة في الأصل. ولعل الصواب ما أثبتنا.

(25) سورة الاعراف : 195. 196.

(26) سورة التوبة : 40.



ربوبية تولت عبودية. وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها»<sup>(27)</sup>. وعموما في كل مدينة وقرية أن الاكابر مجرموها، والصالحين فقراؤها. «ولن تجد لسنة الله تبديلا»<sup>(28)</sup>. «وكفى بالله وكيلًا»<sup>(29)</sup>.

فاجلس جلوس من فقد الكل [وعناه الله]<sup>(30)</sup> تعالى بقوله : «كل من عليها فان»<sup>(31)</sup>. وبقوله : «كل شيء هالك الا وجهه»<sup>(32)</sup>. فليس بعقل عندي من لم يتعزّ عندي بعزاء<sup>(33)</sup> الله. وإني لمشتاق إلى لقائه، وأرجوه من الله. والسلام.

اجتمع الشيخ أبو الحسن، هو والشيخ أبو علي السناط<sup>(34)</sup>، وطلبا الرحلة للديار المصرية. فقال الشيخ أبو الحسن : طريق سنترية<sup>(35)</sup> أقصد، فأني أريتها بيضاء نقيّة. تأكلون من كإلها، وتشربون من مائها. وقال الآخر : أقصد طريق البحر.

فرأى رجل من أصحابهما ملكين نزلا من السماء، فأعطى لهذا لواء، وللآخر لواء، وقال : أنت ولي الله، والآخر ولي الله. وليس لولي على ولي ولاية. قال رضي الله عنه :

كنت ليلة في وردي. فقرأت حتى انتهيت إلى قوله تعالى : «ولا تتبّع أهواء الذين لا يعلمون. إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا»<sup>(36)</sup> فرأيت رسول الله (ص)،

(27) سورة الأنعام : 123.

(28) سورة الأحزاب : 62.

(29) سورة النساء : 81. 132. 171. سورة الأحزاب : 3. 48.

(30) كتابة مدمجة في الأصل لأجل طغيان المداد.

(31) سورة الرحمان : 26.

(32) سورة القصص : 88.

(33) في الأصل : عزا.

(34) لعله يونس السباط صوفي تونسي. له ذكر في : نزهة الأنظار : 282/2.

(35) في الأصل : سبتوية. والتصويب من : الروض المعطار : 325. وفيه أنها بلدة صغيرة. معجم

البلدان : 261/3.

(36) سورة الجاثية : 18. 19.



فقال لي : يا علي. أنا ممن أعلم. ولا أغني عنك من الله شيئاً لـ. فقال المريد والمراد لم يسبق إليه، ولا نبّه عليه. لا يفهمه الا من دخل بلاده، وبلغ من الله رشاده. توفي، رحمه الله، عام أحد وخمسين وست مئة [651 — 1253] ومامات حتى كف بصره.

كان رجلاً أسمر اللون، جاحظ العينين، طويل القامة، جهير الصوت. أخبرني الشيخ الحاج الصالح المقرئ، أبو عبد الله التلمساني، المشتهر بالناسخ، أنه صلى خلفه الصبح بالاسكندرية. فقرأ في الركعة الأولى بالجاثية. وفي الثانية، غلبه حال، فقرأها بسورة الاخلاص.

## المصادر

- 1 — ألف سنة من الوفيات في ثلاثة كتب. (وفيات الونشريسي). تحقيق د. محمد حجي. الرباط. 1396 — 1976. مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر. سلسلة التراجم (2).
- 2 — الاحاطة في أخبار غرناطة. لابن الخطيب. (— 776 هـ) تحقيق د. محمد عبد الله عنان. مكتبة الخانجي. القاهرة 1973. 1974. 1976. 1978. أربعة أجزاء.
- 3 — الاستيعاب في معرفة الاصحاب. لابن عبد البر. (— 463 هـ) تحقيق علي محمد البجاوي. دار نهضة مصر. القاهرة. 4 مجلدات..
- 4 — الاشراف على نسب الاقطاب الاربعة الاشراف. لعبد السلام بن الطيب القادري. (— 1110 هـ) المطبعة الحجرية. فاس. 1308 — 1890.
- 5 — إنباه الرواة، على أنباه النحاة. للقفطي. (— 646 هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الفكر العربي. مؤسسة الكتب الثقافية. القاهرة. بيروت. 1406 — 1986. 4 أجزاء.
- 6 — إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون. لاسماعيل باشا البغدادي. (— 1339 هـ) منشورات مكتبة المثنى. بغداد. بيروت. عن نشرة إسطنبول. 1945 — 1947. جزءان.
- 7 — بغية الملتمس، في تاريخ رجال الأندلس. لابن غميرة الضبي. (— 599 هـ) نشر فرنسيسكوس قديرة وزيدان. مدريد 1884. المكتبة العربية الاسبانية. رقم 2.
- 8 — بغية الوعاة، في طبقات اللغويين والنحاة. للسيوطي. (— 911 هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الفكر. القاهرة. 1399 — 1979. جزءان.

9 — بيوتات فاس الكبرى. لابن الأحمر (— 807 هـ) دار المنصور. الرباط. 1972.

10 — درة الحجال، في بغرة أسماء الرجال. لابن القاضي الكناسي (— 1025 هـ) تحقيق د. محمد الأحمد أبو النور. المكتبة العتيقة دار التراث. تونس. القاهرة 1390. 1970. 3 أجزاء. سلسلة من تراثنا الاسلامي. رقم 10.9.7.

11 — الدرّ السّني، في بعض من بفاس من أهل النسب الحسنّي. لعبد السلام بن الطيب القادري (— 1110 هـ). المطبعة الحجرية فاس. 1308 — 1890.

12 — الدرر البهية، والجواهر النبوية. لادريس بن أحمد الفضيلي العلوي. (— 1316 هـ) المطبعة الحجرية. فاس. 1314 — 1896. جزآن.

13 — الدياج المذهب، في معرفة أعيان علماء المذهب. لابن فرحون المالكي. (— 799 هـ) تحقيق د. محمد الاحمدي أبو النور. دار التراث. القاهرة. 1972. جزآن.

14 — ديوان البوصيري. (— 696 هـ) تحقيق محمد سيد الكيلاني. شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي. القاهرة. 1374. 1955.

15 — هدية العارفين : أسماء المؤلفين وآثار المصنّفين. لاسماعيل باشا البغدادي. (— 1339 هـ) منشورات مكتبة المثنى. بغداد. بيروت. عن نشرة اسطنبول. 1951. 1955.

16 — واضح البيان والتجريد، في التعريف بقطب بني تليد، الشيخ سيدي يوسف التليدي. للعربي غيلان. (— 1027 هـ) تحقيق محمد بن علي اكسيسو. تطوان. 1408 — 1988.

17 — الوافي بالوفيات. للصفدي. (— 764 هـ) النشرات الاسلامية لجمعية المستشرقين الألمان. رقم 6 فيسبادين. (جماعة من المحققين في سنوات متعددة). 17 جزأ حتى الآن.



- 18 — وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان. لابن خلكان. (— 681 هـ) تحقيق د. إحسان عباس. دار الثقافة. بيروت. 1972. 8 أجزاء.
- 19 — حسن المحاضرة، في تاريخ مصر والقاهرة. للسيوطي. (— 911 هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة. 1387 — 1967 جزءان.
- 20 — طبقات الأولياء. لابن الملقن. (— 804 هـ) تحقيق نور الدين شريعة. دار المعرفة. بيروت 1406 — 1986.
- 21 — الطبقات الكبرى المسماة لواقح الأنوار، في طبقات الأخيار، لعبد الوهاب الشعراي. (— 973 هـ) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. الدار البيضاء. د.ت. (بهامشه الأنوار القدسية للمؤلف)
- 22 — طبقات المفسرين. للداودي. (— 945 هـ) دار الكتب العلمية. بيروت. 1403 — 1983. جزءان.
- 23 — طبقات المفسرين. للسيوطي. (— 911 هـ) دار الكتب العلمية. بيروت. د.ت.
- 24 — طبقات النحويين واللغويين. للزبيدي. (— 379 هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف. القاهرة. 1984. ذخائر العرب. 50.
- 25 — طبقات الصوفية. لأبي عبد الرحمان السلمي: (— 412 هـ) تحقيق نور الدين شريعة. دار الكتاب النفيس. حلب. 1406 — 1986.
- 26 — كشف الظنون، عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة (— 1067 هـ) منشورات مكتبة المثنى عن نشرة اسطنبول. 1941. جزءان.
- 27 — لطائف المنن، في مناقب أبي العباس المرسى، وشيخه الشاذلي أبي الحسن. لابن عطاء الله الاسكندري. (— 709 هـ). القاهرة (1322 هـ — 1903).
- 28 — لسان العرب لابن منظور. (— 711 هـ) دار الفكر. دار صادر. بيروت د.ت. 15 جزءا.

- 29 — مناقب أبي يعقوب الزهيلي البادسي. للأورني. (— 782 هـ) ضمن كتاب حرب الريف التحريرية. لأحمد البوعياشي. طنجة. 1974 جزءان).
- 30 — المرقبة العليا، فيمن يستحق القضاء والفتيا. (نشر بعنوان : تاريخ قضاة الأندلس) لأبي الحسن النباهي. (— بعد 793 هـ) المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. د.ت. ذخائر التراث العربي.
- 31 — المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدي. لابن الأبار. (— 658 هـ) مكتبة المثني ببغداد. ومؤسسة الخانجي بالقاهرة. نشرة مصورة عن نشرة فرنسيسكوس كوديرا وزيدان. مدريد. 1885. المكتبة العربية الاسبانية. المجلد 4.
- 32 — معجم الأدباء (المسمى إرشاد الأريب) لياقوت الحموي. (— 626 هـ) دار الفكر للطباعة والنشر. بيروت. 1400 — 1980. 20 جزءا.
- 33 — معجم البلدان لياقوت الحموي. (— 626 هـ) دار صادر. بيروت. 1399 — 1979 5 أجزاء.
- 34 — نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. للمقري (— 1041 هـ) تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر بيروت. 1388 — 1968. 8 مجلدات.
- 35 — نكت الهميان في نكت العميان. للصفيدي. (— 764 هـ) نشر أحمد زكي بك. دار المدينة. د.ت.د.م. عن نشرة القاهرة. 1329 — 1911.
- 36 — نيل الابتهاج، بتطريز الديباج. لأحمد بابا التنبكتي السوداني. (— 1036 هـ) دار الكتب العلمية. بيروت د.ت. (على هامش الديباج المذهب).
- 37 — النبوغ المغربي، في الأدب العربي. لعبد الله كنون. (— 1409 هـ) دار الكتاب اللبناني. بيروت. 1961. جزءان.
- 38 — نزهة الانظار، في عجائب التواريخ والاختبار. لمحمود مقديش. (— 1228 هـ) تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ. دار الغرب الاسلامي. بيروت 1408 — 1988. جزءان.

- 39 — نور الابصار، في مناقب آل بيت النبي المختار للشبلنخي. القاهرة. 1298 — 1880.
- 40 — الصلة لابن بشكوال. (578 هـ) الدار المصرية للتأليف والترجمة. القاهرة. 1966. سلسلة تراثنا. المكتبة الأندلسية 5. جزءان.
- 41 — عنوان الدراية. فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية. لأبي العباس الغبريني. (704 هـ) تحقيق رابح بونار. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1970. ذخائر المغرب العربي.
- 42 — العبر، في خبر من غير. للذهبي (— 748 هـ) تحقيق جماعة من الأساتذة. وزارة الاعلام. الكويت. 1984 — 1986. سلسلة التراث العربي رقم 4. 5. 7. 10. 15. 17. 6 أجزاء.
- 43 — فهرس ابن عطية. (— 541 هـ) تحقيق محمد أبو الاجفان. محمد الزاهي. دار الغرب الاسلامي. بيروت. 1983.
- 44 — فهرس الفهارس والاثبات، ومعجم المعاجم والمشيوخ والمسلسلات. لعبد الحي الكتاني. (— 1382 هـ) باعتناء د. إحسان عباس. دار الغرب الاسلامي. بيروت 1402 — 1982. 3 أجزاء.
- 45 — الفتوحات المكية لابن عربي الحاتمي. (— 638 هـ) تحقيق د. عثمان يحيى. المجلس الأعلى للثقافة. ومعهد الدراسات العليا بالسربون. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. 1395 — 1406 / 1975 — 1986. 10 أجزاء.
- 46 — قلائد العقيان، في محاسن الأعيان. للفتح بن خاقان (— 529 هـ) القاهرة. 1284 — 1867.
- 47 — القرءان الكريم.
- 48 — رايات المبرزين، وغايات المميزين. لابن سعيد الاندلسي (— 685 هـ) تحقيق د. النعمان عبد المتعال القاضي. منشورات المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية. رقم 28. القاهرة. 1393 — 1973.

- 49 — الروض المعطار، في خبر الاقطار. لمحمد بن عبد المنعم الحميري السبتي. (— 727 هـ) تحقيق د. إحسان عباس. مكتبة لبنان. بيروت. 1984.
- 50 — رحلة ابن بطوطة (المسماة تحفة النظار) (— 777 هـ) دار التراث. بيروت. 1388 — 1968. سلسلة أدب الرحلات.
- 51 — الرسالة القشيرية. للقشيري. (465 هـ) تحقيق د. عبد الحليم محمود. ذ. موسى بن الشريف. دار الكتب الحديثة. القاهرة. 1972. جزآن.
- 52 — رسالة روح القدس، في محاسبة النفس. لابن عربي الحاتمي. (— 638 هـ) مطبعة العلم. دمشق 1384 — 1964.
- 53 — سبك المقال، لفك العقال. لابن الطواح. (— 718 هـ) مخطوط الخزانة الحسينية بالرباط. رقم 105.
- 54 — سلوة الأنفاس، ومحادثة الأكياس، ممن أقبر من العلماء والصُّلحاء بفاس. لمحمد بن جعفر الكتاني. (— 1341 هـ) المطبعة الحجرية. فاس. 1316 — 1898. 3 أجزاء.
- 55 — تذكرة الحفاظ. للذهبي. (— 748 هـ) باعثناء عبد الرحمان بن يحيى العلمي. دار إحياء التراث العربي. عن نشرة حيدر آباد الدكن. 1376 — 1956. 3 أجزاء.
- 56 — ثبت أبي جعفر البلوي الواديائي. (— 938 هـ) تحقيق د. عبد الله العمراني. منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر. بيروت. 1403 — 1983.
- 57 — غاية النهاية، في طبقات القراء. لابن الجزري (— 833 هـ) تحقيق ج. برجسترايسر. دار الكتب العلمية. بيروت. 1402 — 1982. جزآن.
- 58 — شجرة النور الزكية. لمحمد مخلوف. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. د.م.د.ت. جزآن.
- 59 — شرح الصلاة المشيشية لابن عجيبة (— 1224 هـ) مصورة مخطوط. خاص.



60 — شذرات الذهب، في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي. (— 1089 هـ)  
المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. د.ت. ذخائر التراث  
8 أجزاء.

61 — الحلل السندسية، في الأخبار التونسية، لمحمد بن محمد الأندلسي الوزير  
السراج. (— 1149 هـ) تحقيق محمد الحبيب الهيلة. دار الغرب  
الإسلامي. بيروت. 1984 — 1985. 3 أجزاء.



## التوسع الحضري وأنشطة السكان بمرتيل

ذ. أحمد الناي

ساهمت الهجرة الريفية إلى جانب النمو الديموغرافي المتزايد الذي تعرفه مرتيل في خلق عدم توازن على مستوى الأنشطة الحضرية، وتحول عمراني سريع، أدى إلى تكثيف وتنوع النسيج الحضري. وصاحب ذلك تنوع في شرائح السكان، مما خلق دينامية سكانية وعمرانية يطبعها التنافر.

### خصائص ديموغرافية متنوعة :

في 1940 قدر عدد سكان مرتيل بـ 3037 نسمة، بينما لم يكن يتعدى عدة مئات أثناء دخول الاستعمار الإسباني إلى شمال المغرب، هذا التزايد في عدد السكان يعود بالأساس إلى حركة التوافد التي عرفتها المدينة بفعل فرص الشغل التي كانت تقدمها المنشآت المينائية بالمدينة. كما ساهمت المقاومة الريفية في زيادة عدد الوافدين على مرتيل من القبائل المجاورة لمناطق المقاومة بسبب الضغط الذي مارسه الاستعمار عليها لارغامها على الهجرة حتى لا تشكل سندا لحركة المقاومة. كما عملت الظروف الاقتصادية السلبية على تعزيز تيار الهجرة نحو مدن الريف الغربي ومنها مرتيل. كما تلقت عددا من المطرودين من جبال الحوز التطواني المجاورة بعد نزع أراضيهم من طرف الاستعمار.

هذه العوامل الخارجية كانت حاسمة في رفع عدد سكان مرتيل. في حين أن العوامل الداخلية ظلت محدودة التأثير على تزايد سكان مرتيل، فقد انتقل عددهم إلى 3793 ساكن سنة 1950. بمتوسط تزايد سنوي يصل إلى 2,2% ويعزى

هذا النمو إلى التزايد الطبيعي للسكان والهجرة الريفية، بينما لم يشكل الأجانب إلا حوالي 1300 فرد في الأربعينيات<sup>(1)</sup>.

1950 — 1960 تراجع نمو سكان مرتيل، إذ لم يتعدى متوسط التزايد السنوي 1,2% خلال هذه الفترة، ولا يفسر هذا التراجع بنقص في نسبة التوالد بل يعود أساسا إلى العودة المكثفة للأجانب المقيمين بمرتيل إلى بلدانهم خاصة مع بداية الاستقلال، وتوقف الأنشطة التي كانت تنعش المدينة، خاصة الميناء الذي تم اغلاقه لأسباب تقنية نظرا للغمر المستمر بالأتربة، وبذلك فقد العديد من العمال عملهم، مما أثر على تيار الهجرة نحو مرتيل، وقلص من حداثتها إذ تحول جل سكان المدينة إلى ممارسة مهن بسيطة، كالصيد، والفلاحة.

خلال عقد الستينات بدأ عدد السكان يرتفع من 4302 ساكن 1960<sup>(2)</sup> إلى حوالي 5410 ساكن 1971 بنسبة تزايد سنوي يصل إلى 2,1%، وهذا راجع بالأساس إلى وتيرة الهجرة التي لم تتوقف مع ذلك خاصة مع ازدهار الأنشطة الزراعية في شكل مبيعات تحيط بالمدينة من جهة الغرب، وتتطلب يد عاملة باستمرار. كما عرفت هذه الفترة بداية نمو الحركة الديموغرافية، وظهور المعالم الرئيسية للمدينة، ومعها ظهرت وظائف حضرية جديدة، خاصة وظيفة الاستجمام بالنسبة لسكان تطوان خلال أيام العطل. ولن تعرف مرتيل أهميتها السياحية على الصعيد الوطني والعالمي إلا خلال السبعينات.

فترة 1971 — 1980 تعتبر فترة هامة في النمو الديموغرافي لمدينة مرتيل، إذ انتقل عدد السكان من 5410 ساكن 1971 إلى 9185 ساكن 1982<sup>(3)</sup> أي بنسبة تزايد سنوي بلغ 5% هذه الفترة شكلت طفرة هامة في تطور ساكنة المدينة بفعل الهجرة الريفية الهامة التي عرفتها المدينة من الأرياف القريبة، وباقي المناطق الجبلية خاصة منطقة غمارة. ويصادف هذا التزايد مرحلة انطلاق تيار الهجرة

(1) Revista Nacional de Arquitectura n°22 (extraordinario) p. 99 - 1944.

(2) Delegation au plan et au developpement regional - Division des statistiques Rabat - Résultats du recensement de 1960 - volume 3 - p. 935.

(3) وزارة التخطيط — الإحصاء العام للسكان والسكنى 1971 — 1982 — مديرية الإحصاء — الرباط.



الريفية الكبرى من الأرياف المغربية نحو المراكز الحضرية المختلفة لتعيد تنظيم خريطة هذه المراكز وأحجامها على المستوى الوطني. وإذا كانت أسباب هذه الهجرة يمكن إجمالها في أزمة الأرياف المغربية عموما، فإنه يضاف إليها سياسة التهميش الاقتصادي الموروثة التي عرفتها المناطق الشمالية.

هذا التيار الهجروي لم يتوقف اليوم، مما رفع متوسط نسبة التزايد السنوي إلى 7% بين 1982 و 1988، ويعني هذا أن نسبة النمو تزايدت بصفة هامة خلال ستة سنوات فقط.

### — ساكنة ذات أصول ريفية

عرفت مرتيل حركة توافد مستمرة منذ الثلاثينات، وتزايدت وتيرتها منذ السبعينات مشكلة نسبة هامة نسبة هامة من ساكنة المدينة.

#### جدول رقم 1 : فترات استقرار أرباب الأسر المهاجرين بمرتيل

| المجموع | 1989—1980 | 1979—1970 | 1969—1960 | 1959—1950 | 1949—1940 | 1939—1930 |
|---------|-----------|-----------|-----------|-----------|-----------|-----------|
| %100    | %39,7     | %27,5     | %11,4     | %9,3      | %7,6      | %4,5      |

المصدر : بحث ميداني 1988.

وينبغي الإشارة هنا إلى موقع مرتيل قرب قطب حضري هام، مما جعل تأثيرها على الأرياف القريبة محدودا بفعل قوة الجذب الذي تمارسه تطوان على هذه الأرياف. في حين يظهر تأثير مرتيل قويا على منطقة جبالة، 79,5% من المهاجرين إلى المدينة. ويتقلص في جبال الريف إلى 11,8% فقط من المهاجرين، بينما باقي المغرب 8,7%<sup>(4)</sup> ونجد أن 87% من المهاجرين جاءوا مباشرة إلى مرتيل من مواطنهم الأصلية، 98% من غمارة، وحوالي 96% من جبال الريف. بينما تنقل الباقي عبر أرياف ومدن مختلفة يضاف إليهم الوافدين من باقي مناطق المغرب.

(4) احمد الناوي 1989 — ساحل تطوان دينامية مجال متعددة الوظائف — بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في الجغرافيا — كلية الاداب — الرباط.

## — تزايد مستمر في ساكنة مرتيل —

خلال 1981 حدد التصميم التوجيهي متوسط نسبة النمو السنوي لسكان مرتيل بـ 3,7% بينما التزايد الطبيعي 3,14%<sup>(5)</sup> (المغرب الحضري 3,11%). إذا حللنا هذه الوضعية من خلال الولادات فإن نظرة أولية لهرم البنية العمرية لسكان مرتيل تظهر أن فئة العمر الدنيا من صفر إلى أربع سنوات انتقلت من 16% 1971 إلى 14% سنة 1982<sup>(6)</sup> بينما تناقصت 1988 إلى حوالي 11% فقط. وهذا يظهر مدى اندماج الفئات المهاجرة في الوسط الحضري، وتقلصت ولاداتها مما يعطي تراجعا واضحا في نسبة الولادات. بفعل انتشار الوعي الصحي عند النساء في سن الانجاب، والتخطيط العائلي الذي تضطر اغلب الأسر إلى اللجوء إليه بفعل الظروف الاقتصادية وخاصة بفعل ارتفاع نسبة النساء العاملات (نسبة النشاطات المشتغلات 8,3% 1971، وحوالي 16,6% 1988). كما أن التأخر في سن الزواج يلعب دوراً هاماً في تقلص نسبة الولادات أهمية التوالد. وخصوصا عامل الهجرة يزيد من تضخم الأسر الموسعة التي تمثل 88% من مجموع الأسر بالمدينة، وتضم افراد الأسر إلى جانب افراد آخرين تجمعهم علاقة القرابة والاصل الجغرافي تعيش في وحدة سكنية تتقاسم مصاريف العيش.

هذه التحولات الديمغرافية جعلت مدينة مرتيل تعرف تسارعا ملحوظا في تزايد ساكنتها، بوصولها إلى حوالي 13 ألف ساكن حاليا، فإن ذلك يبين أن المدينة بدأت تكسب دينامية نمو خاصة بها انطلاقا من عامل التوالد رغم تراجع الواضح، في حين لا يمكن نفي عامل الهجرة نهائيا لان حركة التعمير المستمرة للمدينة وتنوع انشطتها، بالاضافة إلى قربها من تطوان يساعد على استقطاب مستمر لساكنة جديدة تعرف تنوعا على المستوى المهني أغلبها يشتغل بتطوان.

(5) التصميم التوجيهي لتطوان 1984، الجزء المتعلق بالسكان — دار الهندسة الرباط.

(6) الاحصاء العام للسكان والسكنى — 1971 — 1982 — مديرية الاحصاء — وزارة التخطيط.

## الحالة المهنية لسكان مرتيل

### — أهمية النشيطين، وتنوع المهن :

ظلت مرتيل منذ بداية الاستقلال تفتقر إلى بنية اقتصادية قادرة على توفير الشغل للعدد المتزايد من سكانها، وافواج المهاجرين الجدد، نظرا لموقعها القريب من تطوان القطب الاقتصادي الرئيسي في المنطقة، واعتبرت مرتيل دائما كمجال تابع لتطوان اقتصاديا، حتى في الفترات التاريخية التي كانت تتوفر فيها مرتيل على منشآت اقتصادية هامة كالميناء الذي كان بمثابة ميناء تطوان أساسا، ولم تكن مرتيل تستفيد إلا من فرص الشغل القليلة التي كان يوفرها الميناء لسكانها.

أما اليوم فإن نشاط الميناء توقف نهائيا. إلا أن الأنشطة التجارية والحرفية نمت أكثر بفعل الوظيفة السياحية لمرتيل، والتوسع الحضري الهام الذي نتج عنها. كما برزت بعض الصناعات، وأنشطة الخدمات التي تزدهر خصوصا خلال موسم الاصطياف. هذه الأنشطة توفر بعض فرص الشغل لليد العاملة المتزايدة بالمدينة.

### جدول رقم 2 : توزيع سكان مرتيل حسب نوع النشاط 1988

| نشط<br>مشتغل | عاطل  | ربة بيت | متمدرس | آخر    | المجموع |
|--------------|-------|---------|--------|--------|---------|
| 18 %         | 3,2 % | 30,2 %  | 15 %   | 33,6 % | 21,2 %  |

المصدر : البحث الميداني 1988

وقد بلغت نسبة النشاط بمرتيل 1988 حوالي 21,2 % من مجموع السكان، شكل ضمنها النشيطون المشتغلون نسبة لا تتعدى 14 %.

يتوزع هؤلاء المشتغلون بشكل غير متوازن داخل الأسر، فقد بلغت الأسر التي تضم أكثر من فرد واحد مشتغل حوالي 28,5 %، وتمثل ربع 1/4 الأسر المستقرة بمرتيل.

توزيع النشيطين المشتغلين بين مختلف الأنشطة الاقتصادية لا يعطي امتيازاً



لنشاط معين، إلا أنه يلاحظ أن الأنشطة غير المنتجة توفر أكبر عدد من المناصب خاصة قطاع الخدمات التجارية، والبناء : 49,7 % سنة 1988.

### جدول رقم 3 : مهن السكان النشيطين بمرتيل 1988

| فلاحة | حرف   | صناعة | بناء | صيد | تجارة | إدارة | خدمات | آخر | المجموع |
|-------|-------|-------|------|-----|-------|-------|-------|-----|---------|
| 7 %   | 8,6 % | 7,3 % | 16,4 | 8,4 | 15    | 12    | 18,3  | 7 % | 100     |

المصدر : البحث الميداني 1988

قطاع الخدمات عرف تطورا ملحوظا، إذ لم يكن يشغل سنة 1971 إلا حوالي 7 % من النشيطين، وانتقل سنة 1982 إلى 10,4 % في حين ارتفع إلى 18,3 % سنة 1988. هذا التطور يعود بالأساس إلى أهمية وظيفة الترفيه التي أصبح يقوم بها مركز مرتيل منذ بداية السبعينات، وتشكل الأنشطة المرتبطة بالسياحة نسبة هامة ضمن هذه الخدمات تقدر بـ 51,2 % سنة 1988<sup>(7)</sup>.

أما قطاع البناء فإنه لا يقل أهمية خاصة في السنوات الأخيرة بفعل حركة العمران التي تعرفها مرتيل نتيجة ازدهار السياحة، وتزايد عدد سكان مرتيل. إلا أنه لوحظ تراجع في عدد النشيطين العاملين في هذا القطاع عما كان عليه خلال 1971 20,8 % من العاملين به. ويفسر ذلك تحلي سكان مرتيل عن هذا النشاط لصالح أنشطة أخرى ظهرت وأخذت مكان الصدارة كالتجارة والخدمات. مما جعل قطاع البناء يستقطب اليد العاملة المهاجرة من الجنوب المغربي خاصة من إقليم ورزازات للعمل باوراش البناء بمرتيل.

التجارة تشغل نسبة هامة من النشيطين بمرتيل، وانتقلت من 13,3 % 1971 إلى 15 % 1988 وتحتل بذلك المرتبة الثالثة ضمن الأنشطة المستقطبة لليد العاملة بمرتيل أما بنيتها فتكون أساسا من تجارة المواد الغذائية خاصة خلال موسم الاصطياف.

قطاع الادارة يشغل 12 % من النشطين بالمدينة مما يجعله يساهم في الحركة

(7) البحث الميداني 1988.



الاقتصادية للمدينة إلا أنه تقلص عما كان عليه 1971 حوالي 15,2% لصالح التجارة والخدمات التي استوعبت اليد العاملة أكثر، وبفعل تزايد السكان بالمدينة، وعدم تزايد الوظائف الادارية، الصناعة توفر عددا لا بأس به من مناصب الشغل خاصة بالمنطقة الصناعية<sup>(8)</sup> وبعض المعامل بمرتيل وأغلب العمال من الاناث 87% من اليد العاملة، وعرفت نسبة النشيطين العاملين بالصناعة تزايداً هاماً إذ انتقل من 5,1% سنة 1971 إلى حوالي 7,2% سنة 1988 وتساهم بشكل ملحوظ في دخل السكان، والأهمية الاقتصادية للمدينة.

قطاع الصيد يشكل قطاعا له أهميته ضمن النسيج المهني لمرتيل، بفعل عدد المشتغلين به، وقد انتقل عدد المشتغلين بالصيد من 6,5% سنة 1971 إلى 8,3% هذا رغم ضعف موارده على الساحل المرتيلي.

### — بنية الانشطة بمرتيل يسودها البساطة وانعدام التنظيم

إن فرص الشغل المتوفرة بالمدينة تبرز أهمية اقتصادها. الا أن ذلك لا يعطي دائما تمثيلا حقيقيا لبنية الأنشطة ومدى تماسكها في تشكل قوة هذا الاقتصاد لذا وجب تحليل هذه الأنشطة لرسم صورة حقيقية للواقع الاقتصادي والاجتماعي بالمدينة. وهكذا وكجمل المدن الصغرى الحديثة النشأة التي تدين في وجودها لعوامل اقتصادية ومرفولوجية طارئة : فإن الأنشطة الاقتصادية بمرتيل لا يمكن اعتبارها وحدات متينة البنية والحجم، نظرا لارتباطها بوظيفة السياحة الموسمية، ونظرا لحداثة المدينة ونسيجها الحضري.

لذا يمكن تصنيف بنية الانشطة بمرتيل على أنها تتكون من وحدات بسيطة. وهكذا يلاحظ أن أنشطة الخدمات تحتل المرتبة الأولى ضمن أنشطة المدينة عموما. وهذا يعني ان هناك اقبالا من طرف السكان على تعاطي مهن الخدم، وغالبا ما تكون بسيطة جدا وهذا يرجع لعاملين اساسيين : الأول يتعلق بطبيعة الممارسين لهذه الأنشطة، اذ أغلبهم من المهاجرين من الأرياف إلى مرتيل، ولا

---

(8) توجد المنطقة الصناعية بين مدينة تطوان ومركز مرتيل، وتبعد عن مرتيل بحوالي أربعة كيلومترات، وهي ضمن أراضي المركز الحضري لمرتيل.

يتوفرون على امكانيات مادية تؤهلهم لأعمال أهم تتطلب استثمارات مالية مهمة. ثانيا كون أغلب هؤلاء لا يتوفرون على مؤهلات مهنية وأحيانا بدون مستوى تعليمي يذكر، مما يجعلهم لا يحسنون أية حرفة، وهذا ما يدفعهم إلى التعاطي لبعض المهن البسيطة التي لا تحتاج إلا إلى جهد بسيط، وأحيانا لاستثمار محدود، خاصة وأن الطلب عليها متوفر من طرف سكان المدينة والوافدين عليها. ويساهم في تشجيع هذه المهن الحركة السياحية التي تعرفها مرتيل خلال الصيف مما يضاعف عدد سكانها عدة مرات<sup>(9)</sup> ولذلك يزداد الطلب أكثر.

التجارة بدورها نشاط يجذب عدداً مهماً من الأفراد بفعل سهولة التعاطي له برأسمال بسيط، ولا يتطلب خبرة معينة، ويبرز ذلك في عملية تحويل إحدى غرف المسكن من طرف رب الأسرة إلى دكان لبيع المواد الغذائية تتكفل الزوجة أو أحد الأبناء بادارته ويشكل مورداً إضافياً في دخل الأسرة. وغالبا ما يعتمد السكان على هذه الدكاكين الصغيرة لشراء حاجياتهم الغذائية اليومية نظراً لقربها، وكذلك من البائعين المتجولين. قطاع البناء بدوره يعرف احتكاراً من طرف بعض البنائين المحترفين الذين سرعان ما يجمعون حولهم عدداً من المتعلمين والمساعدين، وتبدأ عملية البناء خاصة وإن ذلك لا يتطلب في أغلب الأحيان إلا خبرة محدودة، وبعض الإجراءات الإدارية لممارسة المهنة (خاصة إذا كان ميدان العمل، إحياء التعمير الذاتي المفتقرة إلى كل تنظيم معماري). وكذلك الشأن بالنسبة للحرف الموجودة بمرتيل، إذ جلها لا يتطلب كفاءة سابقة بل يتم اكتسابها من خلال التجربة، وغالبا ما يتم ذلك على حساب مصالح الزبناء.

### — تباين الأنشطة والفئات الاجتماعية بمرتيل

تختلف وضعية الأنشطة والمشتغلين بها داخل إحياء المدينة، إذ أن تباين الوضعية الاجتماعية والاقتصادية لسكانه إحياء مرتيل تجعل وضعية الممارسين لهذه الأنشطة مختلفة، فنجد أن الأحياء التي تعرف انتشار الفئات المهاجرة من الأرياف، والفئات ذات الدخل المحدود هي التي تنتشر بها هذه الأنشطة غير المنظمة، وتعرف ممارستها

(9) يصل عدد سكان مرتيل خلال فصل الصيف إلى حوالي 60.000 نسمة حسب تصريحات بعض المسؤولين حول أهمية السياحة الداخلية بمرتيل.

نوعاً من العشوائية نظراً للامكانيات المحدودة لساكنتها، وتشكل مصدراً لعيشها. بينما الأحياء الأخرى تستقر بها فئات أخرى من السكان وتمارس بها أنشطة تجارية وحرفية منظمة، بالإضافة إلى وظائف أخرى كالإدارة والخدمات، ويمكن تصنيف هذه الأنواع حسب الأحياء :

### 1 — الأحياء الهامشية (أحياء التعمير الذاتي شمال المدينة)

تستقر بها الفئات المهاجرة إلى مرتيل حديثاً، لازالت تمثل قبلة المهاجرين (تستقر بها الفئات ذات الدخل المنخفض) وتتكون من أحياء — كطلان — ساقية الدفل — أحريق — الشبار — ويسود بها التعمير الذاتي، كانت عبارة عن دواوير تصلبت تدريجياً، تضم فئات اجتماعية فقيرة ذات أصول ريفية، غالباً ما تتعاطى مهناً بسيطة كالبايعين المتجولين، البناء، الحرف، الخدمات، والعمل الزراعي في البساتين المجاورة، والصيد.

### 2 — الحي المركزي :

وفيه تتركز أغلب الأنشطة الاقتصادية للمدينة ويضم فئات اجتماعية ذات مستويات اقتصادية أهم. تمارس به وظائف مختلفة تجارية وحرفية بالإضافة إلى مهنة إدارية، وأغلب الفئات المستقرة به هاجرت قديماً إلى مرتيل، إلى جانب انتشار السكن الثانوي لأسر تطوانية، أحياناً يتم كراؤه للأسر المهاجرة والطلبة.

### 3 — الأحياء الحديثة :

تضم فئات غير متجانسة اقتصادياً واجتماعياً، إذ تتنوع مداخيلها وهي تضم خليطاً من العناصر، تقطن سكناً اقتصادياً جماعياً، بالإضافة إلى سكن راقٍ مكون من فيلات موزعة بشكل متناثر مما يصعب معه التمييز بين الأصناف الاجتماعية<sup>(10)</sup> من خلال نوع السكن الذي تقطنه. عموماً تقطنه فئات ذات وظائف تجارية، وبناء<sup>(11)</sup> يضاف إلى ذلك وجود سكن جماعي على شكل مباني (عمارات) لتلبية

(10) انظر خريطة نوع السكن رقم 1.

(11) البحث الميداني 1988.







الطلب المتزايد على السكن في السنوات الأخيرة، ويقطنه عموماً الموظفون والطلبة.

4 — على الساحل تشكل الفيلات الممتدة سكناً ثانوياً راقياً جداً، ترتاده الفئات اليسورة خلال الصيف، بينما يستعمل جزء ضئيل منه خلال السنة من طرف الطلبة وبعض الموظفين. أما أرباب هذه الفيلات فهم من الفئات الغنية تجاراً، وصناعيين، وأصحاب مهنة مستقلة، واطراليا في الجيش والادارة.

### التمايز العمراني والاجتماعي بمرتيل

إن عملية الاستقطاب التي تمارسها مرتيل على المجالات الريفية المحيطة، أدت إلى بروز أحياء هامشية استقرت في شمالها، وساهمت في امتداد نسيجها الحضري. وذلك بفعل حركة الهجرة الريفية المستمرة. هذه الوضعية أدت إلى عدم توازن اقتصادي ديموغرافي، وعمراني بين مختلف أحيائها، نتج عنه تمايز مجالي على مستوى النسيج الحضري للمدينة.

### 1 — أحياء التعمير الذاتي شمال المدينة، تنوع اجتماعي وتكثيف عمراني

#### متزايد

إن تزايد تيار الهجرة إلى مرتيل ساهم في نشر التمدين على مجالات كانت فارغة إلى وقت قريب. وقد شكلت الأحياء الهامشية لفترة الاستعمار «الحي الإسلامي» أو حي الدفوف<sup>(12)</sup>. النواة الأولى لهذا التمدين الغير مراقب، الذي سوف تعرفه المدينة مباشرة مع بداية الاستقلال. أمام تزايد الوافدين من الأرياف، وأمام عملية الطرد النوعي الذي كانت تمارسه المدينة الأوروبية لم يجد هؤلاء بداً من الاستقرار في الأحياء الهامشية التي كانت تتوفر على نواة أولى للمهاجرين القدامى الذين نزحوا إلى مرتيل أثناء الاستعمار بعد طردهم من الأرياف، أو الذين هاجروا إلى مرتيل طلباً للعمل في الميناء. وقد لعب التعاضد الاجتماعي بين الفئات ذات الأصل الواحد دوراً هاماً في تسهيل استقرار المهاجرين الجدد الذين ساهموا في توسيع هذه الأحياء الهامشية على المجالات المجاورة، خاصة وسط المدينة، وشمالها. كما

«Proyecto de ordinacion parcial de Tetuan» in revista Nacional de arquitectura - n° 26 (12) (extraordinario), 1944 Madrid p. 99.

امتدت غربا على المجال الفلاحي، وهذه حالة حي كطلان، الشبار، ساقية الدفل، أحريق. وقد ساهم المهاجرون في توسيع هذه الأحياء الهامشية على المجالات المجاورة، خاصة نحو وسط المدينة، ونحو الشمال والغرب على المجال الفلاحي. وقد سهل عملية التوسع الوضعية العقارية الغامضة للأرض. إذ يتم الترامي عليها والتشييد فوقها بشكل ذاتي عشوائي مما نتج عنه انتشار سريع للتعمير الداتي على حوالي 32,4 هك<sup>(13)</sup> شمال المدينة. وقد لجأ المهاجرون إلى البناء السري لاثبات الشرعية على تملكهم للأرض. بل إن بعض السكان استغلوا هذا الوضع فبدأوا في بيع القطع الأرضية للوافدين الجدد، الذين يقومون بدورهم ببناء مسكن هش في البداية، سرعان ما يتحول إلى سكن صلب على مراحل. ويعود هذا التحايل في تملك الأرض بالاستيطان الفعلي إلى الفوضى التي يعرفها النظام العقاري شمال المغرب<sup>(14)</sup>. وفتح المجال أمام الترامي على أراضي الدولة بالخصوص. وقد نشطت من الجانب القانوني حركة تثبيت الملكية بواسطة عقود عدلية وإدارية تم وضعها اعتمادا على تصريحات الشهود لدراء كل الاحتمالات، وللتأثير على المشتري. وهكذا يقوم المشتري مباشرة باثبات تملكه للبقعة الأرضية بواسطة البناء الفوري للمسكن. هذه الاغراءات تزيد من الطلب على السكن، وهذا ما جعل هذه الأحياء تعرف تكديسا كبيرا للأسر التي أصبحت تفضل بناء مسكنها الخاص بالوسائل المتوفرة، عوض تحمل ثقل الكراء. بل إن بعضها أصبحت تعرض جزءا من مسكنها للكراء. مما يزيد من عدد الأسر القاطنة داخل مسكن واحد. وقد بلغ حجم التساكن في حي كطلان مثلا 2,1 أسر في المسكن، أما حي الشبار 2,5 أسرة، أحريق 1,4 أسرة. مما يزيد من الكثافة داخل هذه الأحياء.

---

(13) البحث الميداني 1988.

(14) مشكل التحفيظ العقاري الذي جاء مرسوم 14 أكتوبر 1966 لتوحيده في مختلف مناطق المغرب اعتمادا على ظهير 12 غشت 1913 الذي كان مطبقا في المنطقة الفرنسية، والذي ينص على وضع العقود الخلفية بالمحافظة العقارية لاختصاصها لنظام التحفيظ لم تتم بفعل الاعتراضات، لانعدام الحجج الكافية على التملك.

جدول رقم 4 مواد بناء المسكن بمرتيل

| المجموع | سكن هـش | سكن صلب |      |
|---------|---------|---------|------|
| 100     | 40,2    | 59,8    | 1971 |
| 100     | 11,2    | 88,8    | 1982 |
| 100     | 7,4     | 92,6    | 1988 |

المصدر : البحث الميداني 1988 والاحصاء العام 1971 — 1982

اما حجم المسكن فيعرف تباينا من حي إلى آخر. ففي 1988، الأسر التي تعيش في غرفة واحدة بلغت 11,2% في حي كطلان، 10,4% بحي الشبار. ولا نجد أسرة واحدة بحي احريق. بينما يعيش في غرفة إلى غرفتين حوالي 44,6% بكطلان، و 45,8% بحي الشبار، بينما احريق 28,5%. في حين بلغت النسبة بمرتيل 7,1% من الاسر تتوفر على غرفة واحدة، و 21,3% من الأسر تعيش في غرفة إلى غرفتين.

في الوقت الذي يعرف فيه تملك الأرض بهذه الاحياء بعض الغموض، فإن تملك المسكن يشكل احدى الاهتمامات الأولية لأرباب الأسر. من هنا تكون ظاهرة تملك المسكن دون الأرض هو السائد في هذه المجالات، وتعرف هذه الحالة شيوعا ملحوظا بهذه الأحياء دون باقي المدينة. ففي كطلان 91,6% يملكون المسكن، حي الشبار 97,7%، بينما حي أحريق 100%<sup>(15)</sup> ويؤدي هؤلاء واجبات سنوية عن الأرض للدولة<sup>(16)</sup> ويستغل اغلب السكان جزءا من مساكنهم في الكراء للطلبة، وبعض الأسر المهاجرة حديثا، وللمصطافين خلال الصيف.

أما مستويات المباني بهذه الأحياء فتشكل المساكن التي لا تتعدى الدور

(15) البحث الميداني 1988.

(16) حق الزينة : يؤدي كراء سنوي للمالك الأرض مقابل استعمال الأرض.



الأرضي 75,6% بحى كطلان، وحوالى 81,2% بحى الشبار، 83,3% بأحريق. كما تتوفر أغلب المساكن على مجال واسع تستغل كمبقات. وتلجأ الأسر إلى إضافة مستويات أخرى بشكل تدريجي وسري كلما توفرت الامكانيات.

تنظيم هذه المساكن العشوائى يجعل ظروف السكن غير ملائمة بهذه الاحياء. يضاف إلى ذلك هزالة مواد البناء المستعملة التي تعتمد على سرعة البناء، وقلة الاتقان. وبفعل التكدس السكاني بهذه الاحياء فإن عددا من الأسر خصصت جزءا من مسكنها كمحل لبيع المواد الغذائية غالبا بفعل الطلب المتزايد داخل الحي.

## 2 - الحي المركزى يحتكر أهم الأنشطة

يمثل الحي المركزى منذ فترة الاستعمار «الحي العصري». وقد عرف توسعا داخليا بفعل المساحات الفارغة التي كانت تتخلله خاصة على الشاطئ، والمناطق الخضراء الممتدة بينه «والحي الاسلامى» آنذاك في الشمال الغربى. كما امتد التعمير نحو الجنوب مكونا «حي الكنترول» أو حي الواد حاليا. ثم حي ساقية الدفل شمالا.

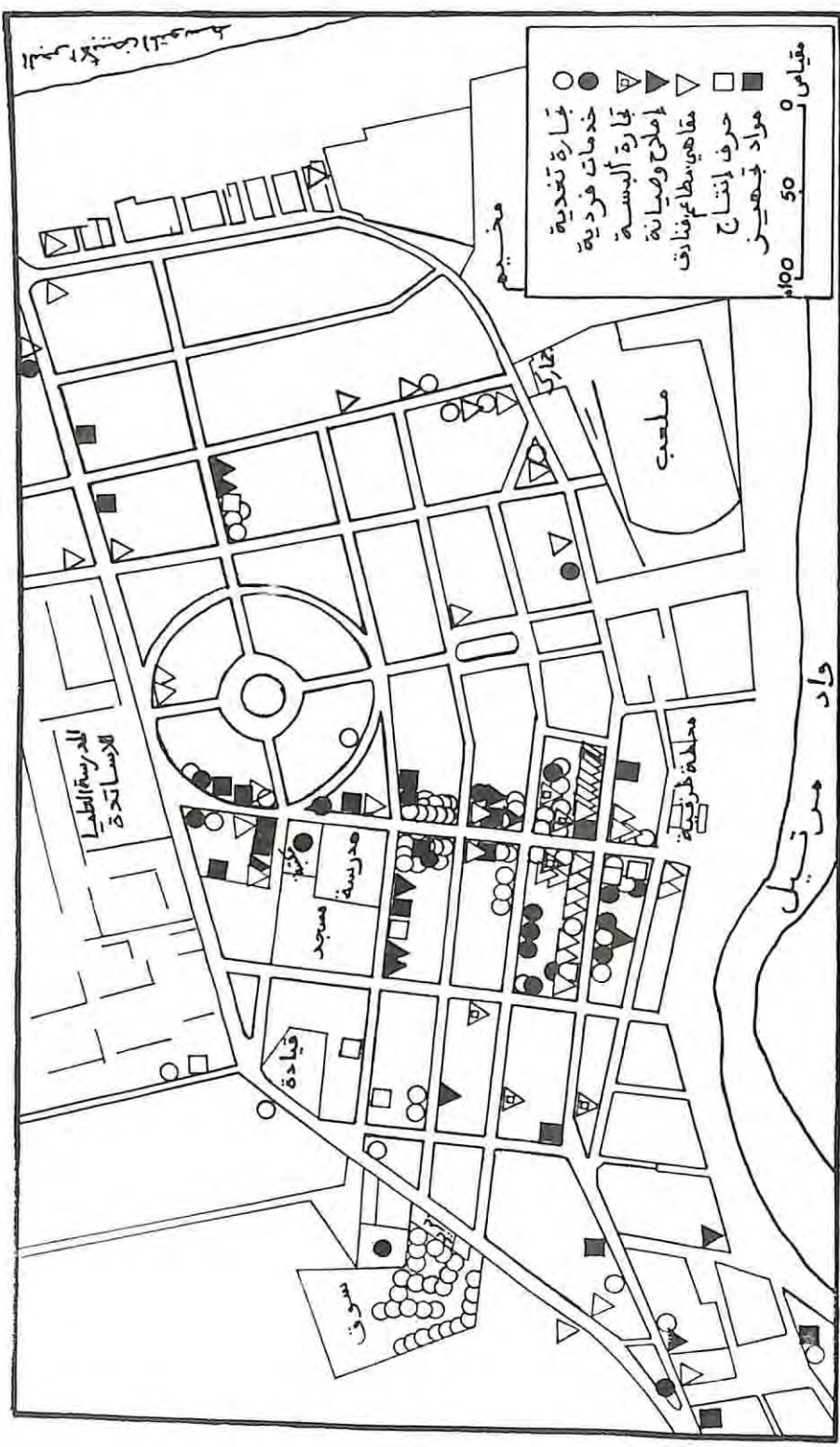
أما العقار فقد عرف سيطرة واضحة للعنصر التطواني خاصة على الفيلات، والسكن الثانوى. بدأ التحول الاجتماعى لسكان هذا الحي بدخول الوظيفة السياحية، وبروزها كمعطى اقتصادى حوّل المنظر العمرانى لهذا الحي بانتشار السكن المخصص للاصطياف في الجزء الشرقى من الحي المحادى للشاطئ. وقد واكب هذه الوظيفة حركة تحول السكن بتوسعه عموديا بفعل الطلب المتزايد على الكراء خاصة خلال موسم الاصطياف، وخاصة في وسط الحي وغربه الذي يعرف انتشار السكن التقليدى الموروث عن فترة الاستعمار انظر (خريطة رقم 1) وبذلك ظهرت عمارات جديدة تكتري أو تبيع الشقق).

هذا التحول فتح المجال أمام المضاربة العقارية، إذ بدأت عملية شراء المباني القديمة وتحويلها إلى سكن جماعى للاصطياف، مما نتج عنه ارتفاع في ثمن الأرض، وأثمان الكراء<sup>(17)</sup>.

(17) قد يصل ثمن كراء شقة خلال فصل الصيف ما بين 2000 درهم إلى 20.000 درهم. وهي شقق غالبا مفروشة ومجهزة بكل حاجيات المسكن العادى.



خريطة — 2 — الأنشطة الاقتصادية بالحي المركزي بمرتيل



هذه التحولات انعكست بدورها على الجانب الاقتصادي لهذا الحي المركزي الذي استمر في لعب دور المركز التجاري والاداري للمدينة. وتتركز جل الأنشطة في الشارع الرئيسي بعد أن هاجرت إليه مجموعة من سكان الأحياء الأخرى، واستثمرت أموالها في الأنشطة التجارية والحرفية<sup>(18)</sup> وساعدت الوظيفة السياحية على تزايد هذه الأنشطة إذا انتقلت الأنشطة التجارية من 39,8 % سنة 1971 إلى حوالي 47 % في 1988. أما الحرف فقد تزايدت من 9,2 % في 1971 إلى 27,3 % سنة 1988 داخل الحي المركزي. كما ساعد الطلب المتزايد على ازدهار الوظائف الليبرالية في هذا الحي (بنك، صيدلية، 3 أطباء، محلات الترفيه : 6 فنادق، 5 اقامات سياحية، 30 مقهى، 19 مطعمًا سينما). كما يركز الحي 74,8 % من الخدمات في المدينة 1988، في حين كانت لا تمثل إلا 54,6 % خلال 1971. ولم يكن يضم الشارع الرئيسي إلا 13 % سنة 1971 من محلات الخدمات لتصل 1988 إلى حوالي 40,3 %.

هذه التجهيزات والأنشطة المتنوعة تبين أهمية هذا الحي ومكانته داخل المدينة وتجعل منه مركز استقطاب على مختلف أحيائها.

رغم ذلك فإنه يجب الإشارة إلى أن هذه الوظيفة يستفيد منها أكثر سكان الأحياء الأخرى نظرا لكون هذا الحي يضم أكثر من 50 % من السكن السياحي الثانوي، وبذلك يضم شرائح مختلفة من السكان تتكون من فئات اجتماعية متوسطة بالإضافة إلى فئات ميسورة تتخذ من الحي سكنا ثانويا راقيا خلال فترة الاصطياف على الخصوص<sup>(19)</sup>.

### 3 - التجزئات السكنية امتداد عمراني مشمت :

عرفت ساكنة مرتيل تزايدا ملحوظا منذ السبعينات، وانعكس ذلك على التوسع الحضري للمدينة، إذ تم تعمير كل المجالات الفارغة وسط الحي المركزي. ولم تعد الأحياء الأخرى تستطيع استيعاب مزيدا من الأسر مما خلق أزمة سكنية. وهكذا

(18) البحث الميداني 1988.

(19) هذه الفئة الميسورة بعضها يستقر بالحي خلال الصيف، بينما البعض الآخر يتردد على المسكن خلال السنة، في حين تستقر فئة قليلة منهم بصفة دائمة بالحي.

اتجه توسع المدينة نحو المجالات الريفية المحيطة بها خاصة نحو الغرب والجنوب الغربي حول طريق تطوان هذا التوسع العمراني الحديث أعطى نسيجا حضريا متنوعا سرعان ما غير المشهد الريفي الذي كان يرسم — إلى وقت قريب — نطاقا اخضر من البساتين تزود مرتيل وتطوان بما تحتاجه من الخضروات. وقد نشأت أحياء جديدة على هذه المجالات وسعت من النسيج الحضري للمدينة في فترة وجيزة تمثل ساكنة هذه الأحياء 21,2% من مجموع سكان المدينة ويرجع ذلك إلى أهمية حركة التوافد الذي عرفته مرتيل سواء في الأرياف أو المدن، إذ تستقر بهذه الأحياء 27% من الأسر الوافدة على مرتيل. وقد استقرت بها فئات اجتماعية مختلفة حيث تغطي فيها الفئات المتوسطة. موظفين وتجار، بينما تتجه الفئات الاجتماعية الدنيا نحو الأحياء الشمالية (كطلان — الشبار — احريق — ساقية الدفل). بل إن بعض الأسر تعرف حركة تنقل من مركز المدينة نحو هذه الأحياء الضاحوية لبناء مساكنها الخاصة، وهروبا من مشاكل الازدحام مشاكل التلوث التي تنجم عن انعدام الواد الحار بالمدينة.

هذه الأحياء جنوب وغرب المدينة استقرت فوق أراضي فلاحية. وتستقر على أراضي الملك الخاص خصوصا. ولعل الوضعية العقارية السائدة في هذا المجال يفسر أكثر التوسع الضاحوي للمدينة في هذا الاتجاه. وفتحت المجال أمام المضاربين العقاريين الذين استغلوا الأزمة، واشتروا أراضي فلاحية لاقامة تجزئات سكنية عليها تفتقر إلى تجهيز حقيقي<sup>(20)</sup>. وقد تم تعمير أغلب هذه التجزئات التي تكونت فوق بعضها أحياء كبرى أهمها «الحي الجديد» ثم «حي الواد — والقدس».

الحي الجديد يمتد على 6 تجزئات سكنية مبنية وهي تجزئة (رويدة، افلات، منبول، الاغراس 1، الاغراس 2، السفياي). كما يمتد إلى الشرق من هذا الحي أربعة تجزئات أخرى مبنية تشكل حي البريد الذي تقطنه غالبا أسر العمال المهاجرين وهي : تجزئة (شقور، الرباحي 1، الرباحي 2، ريجان). ولازال التعمير يتوسع على المجالات الريفية المجاورة بسرعة بفعل الاغراءات التي يقدمها المضاربون العقاريون لاصحاب الأرض قصد تحويلها إلى تجزئات سكنية جديدة. كما يزحف

(20) يبلغ عدد التجزئات السكنية في هذه المنطقة حوالي 24 تجزئة خاصة.



السكن بوتيرة سريعة على طول طريق تطوان. وتضم هذه الاحياء عدد كبير من المساكن الثانوية يكتريها حوالي 47% من طلبة الكلية<sup>(21)</sup>، بينما لازالت بعض التجزئات الأخرى في طور البناء : («تجزئة السوسي»، «الهنا»، «أحركان»).

جنوب طريق تطوان يمتد المحور الثاني لتوسيع المدينة، ويضم تجزئات سكنية مبنية : تجزئة «الواد»، «الرباحي»، و «القدس». هذا الحي يعرف عملية بناء بطيئة وقلة اقبال على شراء الأرض بالمقارنة مع التجزئات السكنية الأخرى شمال طريق تطوان. وذلك راجع إلى مشكل التلوث الذي يمثله واد مرتيل بفعل صعوبة التصريف إلى البحر بفعل انخفاض سهل مرتيل مما ينتج عنه تسرب الروائح الكريهة والحشرات<sup>(22)</sup> امتداد هذا الحي مستمر نحو الغرب على شكل تجزئات سكنية عديدة لازالت في طور البناء كتجزئة «الرميلات 1» و «الرميلات 2»، «الترعي»، «الحجوي». بينما لازالت أخرى في طور الانجاز كتجزئة «بركة» وغيرها.

أهم ما يميز الفئات الاجتماعية لهذا الحي هو استقرار فئات الموظفين به خاصة الوافدين من مدن أخرى. أما ثمن الأرض بهذه الأحياء فقد عرف تحولات هامة بفعل الطلب المتزايد، والمنافسة القوية بين المضاربين العقاريين، واصحاب العقارات لرفع ثمن الأرض. وظهر بذلك عدد كبير من المقاولين الخواص الذين نشطوا في هذه التجزئات السكنية. وتعزز اليد العاملة المهاجرة من الجنوب المغربي اليد العاملة المحلية في بناء المساكن ويعتمد أغلب الزبناء على بناء مساكنهم بالاعتماد على مداخيلهم في حين لاتمثل مساهمة القرض العقاري والسياحي إلا حوالي 24%، وتم الفئات الاجتماعية المتوسطة خاصة الموظفين، وبعض التجار. في حين تشكل الفئات الميسورة، والعمال بالخارج نسبة هامة من زبناء هذه التجزئات.

أثمة الأرض عرفت ارتفاعا مهولا بمرتيل بفعل الطلب المتزايد على الأرض من طرف المصطافين. على الخصوص لاقامة سكن ثانوي خاصة أمام اغراءات كراء هذه المساكن صيفا وشتاء. وقد عرفت أثمة الأرض تطورا سريعا خاصة في الأحياء

(21) استطلاع ميداني خلال شهر يناير 1988.

(22) يضاف إلى مشكل التلوث انعدام شبكة الواد الحار، وقد بدأ العمل في مشروع انجازه منذ سنة، ويطلب من السكان اداء حوالي 10 آلاف درهم لربط محلاتهم بالشبكة.





التي ينتشر بها السكن الثانوي أكثر، كحي كريمة، الشاطئ، الحي المركزي، والحي الجديد. وقد ساهم في استفحال هذه الوضعية، وانعدام مزاحمة الشركات العقارية للخواص، لذلك وجدوا مجالا خصبا لمضاربة عقارية عشوائية أمام انعدام مراقبة الدولة على الأئمة وتجهيز البقع الأرضية، لذلك لا تتوفر هذه التجزئات إلا على الاسم غالبا.

وقد انتقلت أئمة الأرض بمرتيل من حوالي 50 درهم للمتر المربع كحد أعلى خلال 1974 إلى 500 درهم/م<sup>2</sup> سنة 1983، لتصل اليوم إلى حوالي 3000 درهم للمتر المربع.

أمام هذه الوضعية فإن الدولة لم تتدخل لحل أزمة السكن بمرتيل. وللحد من المضاربة العقارية وأزمة السكن التي تتفاقم بالمدينة، وذلك بخلق سياسة سكنية معينة لحماية الفئات الاجتماعية الضعيفة وتوفير سكن ملائم لها، بل إن إحياء التعمير الذاتي لم تعرف لحد الآن أية محاولة لتنظيمها أو إعادة هيكلتها على الأقل. وقد اكتفت بوقف النمو الحضري للمدينة في جهاتها الشمالية حتى لا تستمر على أراضي الخواص، وبقيّة أراضي الدولة، في حين تفتقر هذه الأحياء إلى التجهيزات العمومية الضرورية.

### خلاصة :

إن النمو الحضري السريع الذي تعرفه مدينة مرتيل يتحكم فيه بالدرجة الأولى تزايد ساكنته بفعل التوافد والتوالد مما أدى إلى زيادة الطلب على السكن، كانت من نتائجه امتداد التوسع الحضري إلى مجالات جديدة فجرت بذلك هذا المركز الصغير في كل الاتجاهات وبشكل عشوائي. وقد ساهمت الوظيفة السياحية في حركة البناء التي تعرفها المدينة كما انعشت حركة اقتصادية داخل الحي المركزي ارتبطت نشاطها أساسا بهذه الوظيفة خلال الصيف. ويأتي إنشاء مؤسسات ثقافية عليا بالمدينة : كلية الآداب، المدرسة العليا للأساتذة. لتعطي نفسا جديداً، للدينامية الاقتصادية والعمرانية بالمدينة خارج موسم الاصطياف. والملاحظ أن

هذه العملية أعطت نتائج لا بأس بها في وقت عجزت مشاريع تمديد الموسم السياحي خارج شهور الصيف، الذي كثيرا ما نصت عليه كل تصاميم الاعداد السياحي التي انجزت حول المنطقة<sup>(23)</sup>.

---

Doxiadis A.I.C.D.E. - Etude regionale d'Aménagement Touristique Tetouan - Restinga (23)  
- SMIR - Phase IV, V 1979 p. 162.

Revue  
**DE LA FACULTE  
DES LETTRES**  
TETOUAN



Université Abdelmalek Essaâdi

Revue  
**DE LA FACULTE  
DES LETTRES**  
TETOUAN

*Numéro Spécial sur*  
TETOUAN

5<sup>ème</sup> Année

N°5 - 1991

STUDY

REPORT

Dépôt légal n° 1/1987

ISSN 0851 - 0393

## Sommaire

- \* Tetuan eu la vision de P.A. de Alarcón a travers de diario de un testigo de la guerra de Africa.  
Ben Abdellatif Abdelkader ..... 7
- \* Comptes rendus sur certaines causes de la guerre de tetouan (1859-1860)  
Jamal AATIF ..... 35
- \* Diario de Africa, del 20 de Agosto de 1953, Al 10 de Abril de 1956  
Mohamed Bouissef REKAB ..... 49
- \* L'image de l'espagnol et le nationalisme marocain dans le Maroc khalifien  
Abdelmajid BENJELLOUN..... 67
- \* L'importance de Ceuta dans le réseau du commerce méditerranéen (XII<sup>e</sup>-XIII<sup>e</sup> siècles)  
Cherif Mohamed..... 89





# «TETUÁN EN LA VISIÓN DE P.A. DE ALARCÓN A TRAVÉS DE DIARIO DE UN TESTIGO DE LA GUERRA DE ÁFRICA

BEN ABDELLATIF Abdelkader

## INTRODUCCION :

En 1860, el poeta, novelista y periodista Pedro Antonio de Alarcón recopiló toda una extensa serie de crónicas vividas por él (en calidad de corresponsal de guerra) durante la denominada «guerra de Africa» (1859 - 60) para dar cuerpo y forma a una de sus obras más valiosas : **Diario de un testigo de la guerra de Africa**. En este libro, se narran las peripecias de la confrontación bélica hispano-marroquí vistas por el escritor desde la perspectiva del bando español ; pero, lo que más atrae del **Diario...** son las pinceladas de estética literaria y poética que impregnan la mayor parte de la obra, precisamente en los momentos en que el poeta-soldado se dedica con el mayor de los entusiasmos a hablar de la «codiciada» ciudad de Tetuán.

Para Alarcón la conquista de Tetuán significaba el comienzo de una etapa soñada y anhelada desde siempre. En efecto, y aún en su más tierna infancia y bajo la tutela paternal en su ciudad natal Guadix, el futuro escritor ansiaba visitar la misteriosa tierra africana. Deseaba pisar esa tierra que consideraba como la de sus antepasados y conocer sus fantásticas ciudades. En algunos de sus cuentos, **Cuento moro** y **La carta morisca**, Alarcón refiere a que su apellido es de origen árabe : Al-Arcón. Ahora bien, lo que más le llevó a tierras africanas, aparte del deseo patriótico y del deber periodístico, es su insaciable curiosidad por conocer de cerca todo lo relacionado con lo musulmán. A veces, el cronista-soldado expone en su libro juicios duros contra los soldados marroquíes ; no obstante, estos juicios negativos quedan totalmente eclipsados al evocar majestuosamente la naturaleza que circunda a Tetuán y describir magníficamente a ésta tanto en lo que toca a su arquitectura como a sus habitantes, costumbres, mueblería, excelencias poéticas, etc.

## PRELIMINARES

### a) Reseñas sobre la guerra hispanomarroquí (1859 - 60).

El día 22 de octubre de 1859 España declaró la guerra al Imperio de

Marruecos, una guerra que a la postre resultó perjudicial para ambos bandos. Se podría decir que no hubo ni vencedores ni vencidos aunque los españoles opinasen lo contrario, puesto que su finalización, después de la cruenta batalla de Wadras en la que se llegó a combatirse cuerpo a cuerpo con arma blanca, todo el mundo deseaba que aquello acabase. Las tropas estaban extenuadas, las enfermedades, sobre todo el cólera, hacían estragos especialmente en los invasores, las inclemencias del tiempo entorpecían y dificultaban cualquier acción militar, etc.

El general O'Donell, entonces presidente del consejo de ministros y ministro de la guerra así como general en jefe de la campaña al frente del segundo cuerpo del ejército y movido más por un orgullo de conveniencias y por las pretensiones jactanciosas no sólo del gobierno en pleno sino de casi toda la opinión pública española, mandaba continuar una guerra que no llevaba a ninguna parte, máxime después de la toma de Tetuán<sup>(1)</sup>.

En realidad, la guerra hispanomarroquí nunca debió producirse si no fuera por el interés de la supuesta y falsa recuperación de un prestigio militar español en continuo declive. Efectivamente, España, menospreciada en Europa por las continuas contiendas civiles que sufría y por su incapacidad de ponerse a la altura de países poderosos como Francia e Inglaterra, aprovechó la coyuntura que le ofrecía el inocente ataque de los Kabileños de Anyera a las fortificaciones que el gobernador de Ceuta mandó edificar fuera de las murallas de la plaza, para declararle la guerra a Marruecos. España buscaba un pretexto para entrar en guerra con Marruecos y la improcedente iniciativa del gobernador de Ceuta se lo ofreció a sabiendas a priori de la reacción esperada y comprensible de los marroquíes de Anyera. Estos se apoyaban en el Tratado que España celebró en 1845 con el Imperio marroquí por mediación de Inglaterra, en el que se fijaron los límites de la plaza fuerte de Ceuta en una línea que, corriendo por la pequeña elevación de Otero, principiaba en el estrecho de Gibraltar y terminaba en el Mediterráneo; el terreno que, de esta forma, quedaba adjudicado a la corona española, comprendía unos dos kilómetros cuadrados, y la parte de tierra en la que se construía el cuerpo de guardia fortificado se podía considerarse como tierra neutra por así decirlo. Así pues, la oposición de estos kabileños a las obras tenía su fundamento, un fundamento que descansaba también en el descaro, abuso y falta de respeto a los auténticos dueños de esas tierras. El agravio y vilipendio a que alude el gobierno español se le podía achacar al poco acertado proceder del gobierno de Ceuta, el verdadero responsable y provocador de la ira de los ultrajados anyereños, sin descartar, desde luego, cierta alevosía y premeditación maquinada en complicidad con altas esferas con el objetivo que conocemos.

---

(1) El mismo Alarcón manifestaba en su *Diario...* su disconformidad con la continuación de la guerra después de la batalla de Wad-El gelú. A la opinión de Alarcón se sumaron las de varios corresponsales de guerra de distintos periódicos de España y del resto de Europa.



Lo cierto es que los españoles sabían lo que iban a hacer, y Marruecos se presentaba para ellos como una presa aparentemente asequible debido a varias circunstancias. En efecto, el Imperio marroquí atravesaba por momentos difíciles en aquella época. Las secuelas de la trágica batalla de Isli aún seguían vivas en la psicología del bravo soldado marroquí; además el imperio no disponía de un ejército organizado; no tenía una flota marítima; carecía de armamento moderno en comparación con España - morteros, cañones con bomba de metralla, fusiles con bayonetas, etc - y de alimentos y víveres suficientes para mandarlos a sus combatientes en el frente, y lo que es peor, de carreteras adecuadas y de medios rápidos de transporte. A estos inconvenientes se les unía la enfermedad del sultán Mulay Abderrahman (1823 - 1859) quien moría días antes de la guerra. El trono lo ocupa su hijo Sidi Mohamed (1859 - 1873). Con la declaración de la guerra, éste tuvo que enviar urgentemente y sin la suficiente preparación a su hermano Mulay el Abbas al frente de las fuerzas imperiales de que disponía para hacer frente al invasor. Lógicamente, todas las ventajas estaban del lado español por su mejor organización y equipamiento. Se preveía una victoria fácil de los españoles; pero éstos no contaban con la bravura, valentía, amor propio y espíritu de lucha de los marroquíes quienes vendieron a pesar de los pesares muy cara su derrota, una derrota que no supo a victoria por el alto precio a que se ha conseguido.

El día 25 de Marzo de 1860 se firmó el armisticio con el cual Marruecos se prometía indemnizar a largo plazo a España las pérdidas de la guerra. Esto motivó la cólera de más de un español de «pura sangre» que veía en este tratado de paz poco fruto para tan «gloriosa victoria», llegando a proferir: «una guerra grandiosa para una paz chica». Pero lo cierto es que los que opinaban de este modo eran mas bien unos presuntuosos y muy alejados de la realidad vivida en tierras marroquíes.

En fin, se podía conjeturar mil razones a la intervención militar española en Marruecos, razones que se podrían socabar de la misma historia y que podrían poner en tela de juicio «las honestas» decisiones del gobierno de O'Donnell al verse «forzado» a declarar una guerra con ventajas. Sin embargo, ello supondría escribir largo y tendido sobre el tema, y nuestro propósito al escribir estas líneas está orientado preferentemente hacia un enfoque puramente literario y artístico. Las referencias citadas sobre la guerra hispanomarroquí<sup>(2)</sup> sólo tienen un objetivo: presentar las circunstancias en que se escribió el **Diario de un testigo de la guerra de Africa** de Alarcón, base de nuestro trabajo. Ahora bien, y para concluir este apartado, diremos que lo único que ha aportado de positivo esa contienda bélica es haber servido de escenario para la elaboración de un magnífico libro, cuyas mejores páginas están dedicadas a Tetuán.

---

(2) Tratamos de evitar la denominación «guerra de Africa» por considerarla demasiado jactanciosa por parte española.

## b) Lo marroquí en la narrativa española.

Ya desde los primeros inicios de la literatura española aparece lo árabe como tema importante en los cantares de gesta como en el poema de Mio Cid y en innumerables romances. Grandes escritores y poetas de la categoría del Arcipreste de Hita, Marqués de Santillana, Lope de Vega, Cervantes, Quevedo, etc, se interesaron por el tema árabe rubricándolo en poemas, novelas y obras dramáticas. Sin embargo, Lo marroquí propiamente dicho, no tendría impacto hasta mediados del siglo XIX gracias a una serie de circunstancias que favoreció su florecimiento...

En primer lugar cabe destacar lo que se denominó por literatura de viajes, cuyo principal estandarte Domingo Badía Leblich, más conocido por Ali Bey El Abbasi, publicó en 1860 una recopilación de anécdotas de viaje bajo el título de **Apuntes biográficos**. En este libro, Ali Bey relata las peripecias de su viaje por el norte de África, descubriendo para la casi totalidad de los españoles un mundo fascinante y misterioso.

En segundo lugar apareció la novela testimonial encabezada por Pedro Antonio de Alarcón con **Diario de un testigo de la guerra de África** y Nuñez de Arce con **Recuerdos de la guerra de África** para abrir nuevos horizontes hacia un mejor conocimiento de Marruecos en sus múltiples aspectos.

Seguidamente surgieron los ensayos históricos, políticos y bélicos de autores como Calderón Estebanez con **Manual del oficial en Marruecos** (1844), libro de contenido geográfico, estadístico, histórico, político y militar, cuya finalidad era la de familiarizar a la opinión pública española con todo lo referente a Marruecos. En 1869 y en forma de folleto, Manuel Alfaro publicó **Espanoles... a Marruecos**, mientras que Amador de los Ríos lanzó su libro titulado **El romancero de la guerra de África**. Dos años antes, había aparecido la revista **América** en la que escribían escritores de tendencia africanista tales como Emilio Castelar, F. de Paula Canalejas, Cánovas del Castillo, Javier Simonet, entre otros.

Así pues, los distintos géneros citados, contribuyeron a fomentar un mayor interés por lo marroquí. De esta perspectiva surgiría lo que posteriormente se denominó ya en el siglo XX la novela marroquista.

Efectivamente, a partir del siglo XX, y gracias a los escritores del siglo anterior, Marruecos deja de ser un país teóricamente «lejano» y desconocido envuelto en un halo de misterio y enigmas para pasar a ser accesible, fascinante y sumamente interesante. Temáticamente, el imperio marroquí se convierte en una inagotable mina para muchos novelistas españoles, los cuales, aprovechando cualquier circunstancia - sea bélica, viajera, etc - consiguen suficientes datos para dar cuerpo y forma a sus obras.

El relato histórico encuentra su vertiente óptima en los diversos enfrentamientos bélicos entre marroquíes y españoles, siguiendo fielmente la



evolución histórica de la situación colonial. La guerra del Rif (1921 - 27) será el espejo de la realidad histórica y base de muchas novelas. De esta manera, algunos escritores, aprovechando sus vivencias personales en dicha guerra, escriben sus novelas no sólo con el propósito de entretener e informar sobre la guerra en sí y sobre varios aspectos de la vida en Marruecos, sino también de protestar y denunciar la intervención militar española en Marruecos. A esta tendencia se orienta perfectamente Arturo Barea con **La Ruta**, Díaz Fernandez con **El Blocao** (1938), R.J. Sender con **Iman** (1930), Ernesto Gimenez Caballero con **Notas marruecas de un soldado** (1923)... Ahora bien, el que inició esta línea antimilitarista, aunque sin tomar parte activa en ningún conflicto bélico, fue Benito Pérez Galdós con su obra, y parte de los Episodios Nacionales, **Aita Tettauén** (1905). El escritor canario escribió su libro basándose en el de Alarcón, **Diario de un testigo**...

A la novela de tema bélico le sucede otra de corte fantástico doctrinal. El exotismo se erige en la característica predominante de su contenido. Cabe citar algunos títulos más destacados como exponente palpable de la fecundidad con que se ha tratado el tema marroquí: **Kelb Rumi** (1922) de Victor Albeniz, **Mektub** (1926) de Gregorio Corrochado, **Ramadan de paz** (1946) de García Figueras, **Aixa** (1925) de Luis Perez Hozano, **El Jugador de los zocos** (1930) de José Bentata, y otros más.

Mención aparte merece la novelística del catalán y admirador del mundo marroquí Juan Goytisolo, que abre nuevas vías en la concepción de la narrativa marroquista. Sus obras **La reivindicación del conde don Julián** (1976) y **Makbara** (1980) son dos ilustrativos ejemplos de ello. En ambas recoge positivamente aspectos interpretativos de la sociedad marroquí contemporánea, sobre todo en la segunda.

Siguiendo la estela de Goytisolo encontramos al asturiano Victor Alperi con **Alá bendice Marruecos** (1982); en esta novela el autor presenta una visión rutilante de las viejas y mágicas ciudades de Marruecos que son, en una cantata turística, los protagonistas de la obra. De esta forma, Tanger, Rabat, Casablanca o Fez - la coránica y religiosa -, desfilan frente al lector con su arte, su luz y su encantador misterio. Asimismo, el autor escribió otros dos libros de parecido tema: **Viaje a las playas de Marruecos** y **Cuentos de Marrakech**, donde se realza la belleza paisajística del país así como el colorido de sus tradiciones ancestrales.

En resumidas cuentas, el siglo XIX con las obras pioneras de Leblich, Alarcón, Nuñez de Arce y de algunos otros, abrieron la ventana a Marruecos, par darlo a conocer de cerca con sus tradiciones, costumbres, vida, cultura, arquitectura, etc, culminando dicha iniciativa los escritores del siglo XX con el nacimiento de una narrativa marroquista.

### c) Tetuán en la literatura española

Desde que fue refundida por Al-Mandri a finales del siglo XV hasta su

conquista por los españoles en 1860, Tetuán nunca fue sometida por nadie. Su condición de ciudad díscola, amante de su propia naturaleza, de su autenticidad y reacia a cualquier convivencia extranjera, se convirtió en el punto de mira no sólo de las ambiciones militares sino de codiciosos poetas y escritores de habla hispana, francesa e inglesa ; sobre todo de aquellos amantes de lo árabe, oriental y africano como es el caso de P.A. de Alarcón con su obra **Diario de un testigo de la guerra de Africa**. Dado que este libro será el eje central de nuestro trabajo y que analizaremos más tarde, en este breve apartado sólo citaremos a algunos escritores que trataron más o menos el tema de Tetuán.

Una parte del libro de viajes de Leblich **Apuntes Biográficos o Viajes por Africa y Asia** que se titula **Viajes por Marruecos**, narra las vicisitudes del autor por distintas ciudades del Imperio de Marruecos de principios del siglo XIX. Aunque al parecer no la haya visitado, el viajero se refiere a Tetuán como uno de los enclaves comerciales más importantes del país. Ros de Olano, en su obra **Leyendas de Africa**, describe con cierto detalle varios aspectos de las costumbres y tradiciones de Tetuán (comunes en casi su generalidad en todo el Imperio). El libro lo había escrito varios años antes de la toma de la ciudad por los españoles en 1860. Por su parte Nuñez de Arce se esmera bastante en la descripción de la ciudad en su **Recuerdos de la guerra de Africa** ; en esta obra el poeta nos describe con cierto lirismo su original arquitectura así como nos habla de una manera fría y automática de sus habitantes, costumbres, tradiciones, etc. Benito Pérez Galdós, a pesar de no haber visitado Tetuán, consigue reunir un considerable material sobre la ciudad gracias a las cartas que recibía desde Tánger de su amigo Ricardo Orsatti y del **Diario...** de Alarcón para escribir su obra Aita Tettauen. En este libro no faltan pasajes en donde el autor alude a la urbe, haciendo especial hincapié en la sobriedad, orgullo y capacidad de sufrimiento de sus habitantes musulmanes - los judíos no tienen para Galdós los mismos dones y privilegios -, así como pinceladas de sus costumbres, viviendas, etc. Por su parte, Ernesto Gimenez Caballero, en su **Notas marruecas de un soldado**, además de narrar su vida militar, evoca los paisajes y lugares circundantes de Tetuán con asombro y admiración tal y como lo testifican éstas sus palabras :

«En pocos sitios se podrá hallar un espectáculo tan íntegro : el mar, el río, la montaña, la vega, huertas y el caserío de una villa»

De otros títulos que hablan de Tetuán citamos **La luna de Tetuán** (1923) de Alfredo Carmona, **La ciudad de los ojos bellos** (1922) de Cesar Juarros Ortega, entre otros. En todo caso, «La paloma blanca», como se suele llamar a la ciudad, está cada vez más ligada a la literatura española por su encanto peculiar y embrujador ; y los poetas, novelistas, ensayistas, historiadores..., no han regateado elogios al hablar de ella ; pero sin duda alguna, el que más se ha identificado con ella, el que mejor ha sabido asimilar y después transmitir sus excelencias y elevarla a la categoría poética que merece fue P.A de Alarcón en su **Diario de un testigo de la guerra de Africa**.



## **PRIMERA PARTE**

### **LA TETUAN FISICA**

#### **I - RETAZOS DE SU HISTORIA**

En el **Diario...** Alarcón hace una efímera referencia a la historia de la ciudad. El escritor alude a que Tetuán fue refundida a finales del siglo XV por el capitán granadino Sidi Ali Al-Mandri inmediatamente después de la capitulación de Granada. Tal aseveración coincide con los historiadores tetuaníes Ahmed R'honi (**historia de Tetuán**, 1953) y Mohamed Daud (**síntesis de la historia de Tetuán**, 1955). Sin embargo, hay una divergencia de criterios entre Alarcón y R'honi ; mientras el primero afirma que Al-Mandri pidió permiso al sultán de Shagüen Sidi Ali-Berachet para que reconstruyera la ciudad, el segundo estima que Al-Mandri se dirigió al sultán de Fez, Muhammad Al-Xij Al Wattassi para que le diera la autorización. Daúd coincide con R'honi. Por otra parte, el mismo Daúd añade que Tetuán nunca fue sometida por ningún invasor hasta la llegada de los españoles en 1860.

En cuanto al nombre de la ciudad, Alarcón coincide con R'honi y Daud al citar que el verdadero nombre de Tetuán es Titauen, el cual en bereber significa : abre ojo. La causa de tal denominación se remonta al tiempo en que los bereberes procedieron a su construcción ; entonces establecieron centinelas sobre sus murallas por temor a los enemigos ; estos centinelas repetían tanto de noche como de día : «Titauen... Titauen... Titauen...» (abre ojos). Esta contraseña se popularizó tanto hasta el punto de llegar a ser escogida como nombre para la ciudad recién construida.

El nombre con que se la conoce hoy en día (Tetuán) es más bien una innovación que introdujeron los foráneos a la urbe. Hasta la actualidad los tetuaníes de edad siguen llamando a su ciudad natal con Tetauen, y se molestan al escuchar el nombre de Tetuán<sup>(3)</sup>.

#### **II - SU SITUACION GEOGRAFICA**

Según Alarcón, el emplazamiento natural de la ciudad es privilegiado. En torno suyo se agrupan jardines y casas de campo, verdes y pintorescos cercados llenos de árboles, dilatadísimas vegas, tres reverberantes ríos. El escritor, al referirse a la ubicación geográfica de la ciudad, resalta sumamente esta ventajosa posición, aludiendo a la naturaleza que la circunda por todas partes :

Montes altísimos la guardan por todos lados (...) parece presidir desde su trono el esplendoroso espectáculo que ofrecen la llanura, la ría, el mar, y los gigantescos

---

(3) Daúd afirma que en Túnez existe un pueblo llamado Tatahouin ; y en las cercanías de Madrid otro denominado Tetuán de las victorias que se construyó a finales del siglo XV.

promontorios que forman su anchurosa rada<sup>(4)</sup>.

Alarcón refiere a que la ciudad está engarzada en una angostura de las dos montañas que forman el lecho del río Martín. Las dos montañas en cuestión son por la parte sudeste las primeras estribaciones del Atlas rifeño, y por la parte norte el monte Dersa. Pero como la ciudad está reclinada en las faldas de este último, ofrece al visitante una bella e inmejorable vista, vista que fascinó al poeta cuando la vio por primera vez desde lo alto del monte Cabo Negro.

### III - VISTAS PANORAMICAS

Si la alegría que manifiesta Alarcón es grande al pisar por primera vez la tierra africana, la que expresa al divisar primeramente a Tetuán es doblemente entusiasta. Al escritor se le presentarán varias perspectivas distintas de la vista de la ciudad. La descripción física de Tetuán que nos ofrece el autor ganará en perfección y detalles a medida que éste se acerca a la ciudad ; y en todas las perspectivas, el estilo del poeta se desborda en frases emotivas llenas de estética descriptiva. En este terreno Alarcón se descubre como un consumado maestro.

La primera vista de Tetuán, cuando la avanzadilla del ejército español conquista la cima del monte Cabo Negro, deja completamente perplejo y maravillado al soldado-periodista :

Yo no sé cómo describirtela para que la veas, para que la imágenes tal cual es, con sus montes y sus campiñas, con su cielo y su arbolado, con su ambiente fantástico y sus vivísimos colores. (p. 202).

Si la perspectiva de la visión de Tetuán desde Cabo Negro resulta menos nítida (unos 17 kilómetros), no lo será tanto desde la atalaya del fuerte Martín (unos diez kilómetros). En efecto, el ejército español conquista la denominada playa de Tetuán y se apodera del fuerte Martín (una plazoleta a orillas del río Martín y que no hace mucho servía de faro). Alarcón aprovecha esta circunstancia para subir a lo alto del fuerte y contemplar a sus anchas la ciudad que postra casi entera a sus ojos. Ahora, como él dice, no la ocultan ni los montes ni la niebla con lo que el autor da rienda suelta a su enfervorecido entusiasmo :

Yo no he encontrado jamás, ni creo que haya en el mundo ciudad tan vistosa, tan artísticamente situada, de tan seductora apariencia. (p. 223).

Como hemos dicho anteriormente, Tetuán se halla ubicada en las faldas del monte Dersa, y más concretamente en la ladera que da al sur ; de este modo, Alarcón, que está al este, sólo puede ver una gran parte de la ciudad, o como él dice «de perfil» ; pero quizá sea la vista más pintoresca y atractiva en la medida en que ofrece al observador las vistosas y armoniosas casas culminadas por una parte de la Alcazaba que se erige en permanente guardián.

(4) P.A. de Alarcón ; *Diario de un testigo de la guerra de Africa*, Madrid, Ediciones del centro, 1974, p. 201. Todas las citas sacadas de la obra serán de la presente edición



A Alarcón se le aparece una nueva perspectiva de la vista de Tetuán, esta vez al seguir furtivamente a los comisionados españoles para intimar la plaza a rendirse. El está ahora muy cerca de la ciudad, pero sólo ve una fachada de ella, no obstante describe lo que ven sus ojos :

Ya percibimos distintamente los cañones, la bandera verde del profeta, levantada en la Alcazaba, los arcos de herradura de dos puertas de la ciudad, los mosaicos de colores que revisten los minaretes, las medias lunas que los coronan ; mil y mil accidentes y detalles de arquitectura impregnados del más genuino orientalismo... (p. 326)

Una nueva perspectiva se le presenta al autor desde lo alto del cementerio de la ciudad, Desde esta providencial atalaya, la ciudad se descubre en casi su totalidad. Además, no sólo se domina la ciudad sino toda la belleza paisajística del valle de Guadalquivir que parece fundirse con el mar y el cielo allá en el horizonte. Tan vasto panorama no puede pasar desapercibido para un amante de la naturaleza como es Alarcón :

Todo Tetuán se desarrollaba a nuestros pies. Aun lado veíamos entera la llanura de Gued-el-Gelú, teatro de los últimos combates, o sea desde las huertas hasta el mar. Al otro lado de la plaza se nos presentaba una nueva planicie, no tan ancha, pero más larga que la anterior y muy más verde, graciosa y pintoresca. (p. 348)

Una vez descritos los contornos de la ciudad, el poeta procede a la descripción detallada de ésta. Alarcón parece dibujar con su pluma, empleando siempre la palabra adecuada al referirse a cualquier detalle de la codiciada plaza :

Su planta tiene la forma de una perfecta estrella de cinco puntas. Las calles son tan angostas y el caserío tan apiñado, que toda la población parece componerse de un solo edificio. Una vastísima azotea, dividida en pequeños cuadros, más altos o más bajos, cubre toda su superficie. El piso de esta azotea o de estas mil azoteas adheridas, hállase escrupulosamente blanqueado de cal, como en Cádiz, pero esta blancura es tan reciente, tan deslumbradora, tan general, que ofende materialmente la vista, y hace que Tetuán parezca revestido de una chapa de plata refulgente... (p. 348).

## VI - SU ARQUITECTURA

La arquitectura externa de la ciudad es tan original que sorprende al visitante por su peculiar simplicidad. Todas las casas forman un solo bloque de relumbrante blancura. Escuchemos el personal juicio de Alarcón sobre este conjunto arquitectónico :

Su abigarrada contextura ofrece un aire de antigüedad tan severo y expresivo como el que hace respetables los grandiosos y elegantes monumentos de nuestros pueblos clásicos. (p. 365)

De entre esta «abigarrada contextura» resaltan los minaretes de las mezquitas lujosamente cubiertos de policromados mosaicos. El minarete de la Mezquita Grande es tan elegante que su arquitectura recuerda al escritor la Giralda de Sevilla. Para él, arquitectónicamente hablando, nada ha variado, ni en la materia ni en la forma con relación al califato de Córdoba del siglo XIII. Eso

es cierto, la ciudad se refundió a finales del siglo XV gracias a los últimos árabes del reino de Granada. En efecto, los granadinos expulsados de Andalucía trajeron con ellos la arquitectura árabe heredada del desaparecido califato de Córdoba y la levantaron sobre las ruinas de la antigua Titauen<sup>(5)</sup>.

El tetuaní tiene la tendencia a conservar y venerar lo que le han dejado sus antepasados, y si añade algo, imita la misma forma que habían empleado sus antecesores. De esta forma, la arquitectura que trajeron consigo los primeros refundadores de la ciudad prevaleció por excelencia en todas las construcciones mahometanas.

Cuando Alarcón se detiene a describir la arquitectura de la casa de uno de los musulmanes tetuaníes más ricos de la ciudad, un tal Erzini, se queda completamente maravillado. La primera impresión es elocuente ; el escritor se considera a sí mismo en un auténtico patio de la Alhambra de Granada. La casa de Erzini, y que el autor llama palacio, con razón, es una de las mansiones más grandes de Tetuán<sup>(6)</sup>.

Todas las Casas de los ricos de Tetuán son unos pequeños palacios con formas arquitectónicas más o menos idénticas. Veamos con el autor la descripción arquitectónica de la casa de Erzini :

Las estancias son espaciosas, los techos sumamente altos y de exquisitas ensambladuras de maderas de colores. Todos los pavimentos y paredes están cubiertos de mosaicos. Las arcadas y columnatas que forman los cenadores y los corredores altos, lucen por su grandiosidad y esbeltez, siendo del mejor gusto de arquitectura árabe, del que Alhamar empleó en Granada. (p. 405).

Las Casas de Tetuán están construidas una dentro de la otra, de tal forma que no se sabe donde principia una y termina la otra. El tetuaní no se preocupa por la fachada de su casa ; él construye y embellece su casa por dentro ; la parte exterior no le da importancia y parece como si la afeara a propósito. Alarcón queda desconcertante ante esta circunstancia y alude :

Es regla general que cuanto más lujosa y bella es una casa por dentro, tanto más pobre es su entrada y más deforme e insignificante su frente. (p. 364).

Las casas por dentro de los tetuaníes musulmanes modestos son pobres artísticamente hablando, pero tienen el mismo gusto arquitectónico que las de los ricos: Para el escritor, estas casas recuerdan, en su mayor parte, a las de Andalucía. Veamos, pues, cómo es por dentro una casa musulmana, tal y como nos la describe Alarcón :

---

(5) La ciudad había sido destruida por el rey de Castilla Enrique III en el año 1400, por considerarla este rey foco de piratas que asolaban las costas españolas. Después se quedó más de noventa años en ruinas hasta que llegaron los granadinos comandados por Al-Mandri y la reconstruyeron de nuevo.

(6) Para muchos es la más grande y majestuosa ; sin embargo, hay otras que no desmerecen en nada a ella.



El centro del edificio lo ocupa el patio, dando luz a casi todas las habitaciones. En medio de él hay una fuente y en torno suyo cuatro cenadores, formados por arcos o por columnas. Largas cortinas aíslan a veces uno o dos de estos cenadores convirtiéndolos en dormitorios de verano. En el piso superior hay cuatro corredores, también descubiertos, y con barandas que dan al mismo patio. El lujo de las casas principales consiste sobre todo en las puertas, en las ventanas y en los techos, labrados exquisitamente sobre maderas de colores así como en el mosaico de que están revestidos los suelos, el tercio bajo de las paredes y los peldaños de las escaleras... (p. 366).

Ahora bien, lo que más llama la atención del autor sobre la construcción de las casas es la falta de ventanas y balcones que dan a la calle. Los únicos orificios que dan a la calle son unas pequeñas hendiduras a una respetable altura del suelo. Alarcón tiene razón al suponer que esas hendiduras sirven a modo de acechaderos para los recelosos y curiosos habitantes. Además, el tetuaní no necesita ventanas puesto que el patio suple con creces esta supuesta necesidad y con ello se obtiene un mayor aislamiento, intimidad y sosiego.

Las calles donde habitan los tetuaníes musulmanes no tienen forma concisa ; su construcción está hecha al libre albedrío. Se puede decir que las calles se han hecho por sí solas, como el camino en el campo que se hace al andar. Cada vecino construye su casa sin preocuparse de la armonía de la calle ; para él la calle es lo de menos. Esta negligencia tiene como consecuencia la tremenda irregularidad de las calles. A veces hay calles extremadamente angostas por donde sólo se puede pasar una persona con ciertas dificultades ; otras demasiado torcidas y laberínticas, y la más de las veces sin salida. Para Alarcón, las calles de Tetuán son un verdadero laberinto para el forastero, y por su forma las llama : «intrincadas calles», «entoldadas y embovedadas calles». En general, para él, las calles son «estrechas y retorcidas y prodigan en ellas bóvedas y cobertizos». (p. 363). En cambio, las calles del barrio de la judería ofrecen una uniformidad : son todas rectas y angostas. La casa judía difiere bastante de la musulmana, ya que carece de cenadores y de barandas en el segundo piso que dan al patio, y de una manera global, le falta una unidad artística y arquitectónica. La casa judía suele tener de todo un poco, de modo que se puede apreciar el gusto por la arquitectura árabe, española, francesa, inglesa, etc, todo atropelladamente mezclado. He aquí la descripción de una casa judía por Alarcón :

... A la vuelta de un estrecho corredor, encontrábase el patio, cubierto arriba por una fuerte reja de hierro. Sólidas columnas revestidas de un mosaico formado por losetas azules y blancas, sostenían ocho arcos estaláticos, en que se apoyaba el corredor del piso alto. El suelo y la escalera eran del mismo mosaico, brillante a la sazón como un espejo por estar recién lavado. De un grifo de bronce caía agua sobre un pilón de mármol... (p. 373)

Como ya se había apuntado líneas más arriba, las mezquitas de Tetuán son fiel reflejo de la arquitectura de la andalucía árabe. La mezquita Grande prevalece sobre todo por su majestuosidad y depurada arquitectura. No tiene adornos y realza por su sencillez (en este punto, Alarcón la compara con un



templo protestante). La puerta principal es un bello arco de herradura abierto en una pared labrada por hermosas inscripciones. El soldado-periodista entra en el interior de la mezquita y describe su graciosa arquitectura :

A la izquierda hay un gran pilar de marmol (...) cerca de él forma el suelo un pequeño estrado (...). En medio del ventilado patio hay una gran fuente (...) A cada lado del patio vease un rompimiento de arcos elegantísimos que dan paso a dos anchos cenadores, a los que se sube por un doble escalón revestido de mosaico como todo el pavimento. En el fondo, o sea de frente a la calle, encuéntrase el recinto interior del templo. Entrase allí por una gran puerta primorosamente labrada (...) la gran capacidad de la nave, la altura del techo, los atrevidos arcos y frágiles columnas que lo sostenían... (p. 414).

Se puede añadir que la mezquita tiene cuatro puertas y se edificó, según R'honi, en el año 1817 sobre las ruinas de una pequeña mezquita.

## V - SUS HABITANTES

Para Alarcón, Tetuán es un pequeño crisol en el que viven varias razas juntas : los musulmanes, que son la mayoría absoluta, los judíos, los argelinos, algunos renegados españoles y también algún que otro español residente (como es el caso de Santiago).

La llegada del ejército español perturbó la paz de los tetuaníes musulmanes. La mayoría de ellos abandonó la ciudad ; sólo se quedaron en ella muy pocos a causa de sus intereses particulares o por resignación a la fatalidad. Los que se quedaron se encerraron a cal y canto en sus casas, no por miedo, sino por una cuestión de dignidad y patriotismo, como una muestra palpable de la indiferencia y desprecio que sienten por el atrevido invasor. Esta actitud altanera lleva al autor a elogiar su forma de ser :

Yo nunca he visto llevar con tanta nobleza la desgracia. Tienen hambre y no piden pan. Sufren y no lloran. Están indignados y no se encolerizan. Se hallan resueltos a morir todos antes de transigir con nuestras leyes, con nuestros ritos y nuestros hábitos, y no manifiestan su decisión con estériles alardes de patriotismo. (p. 408)

Hay que tener en cuenta que esta actitud orgullosa y digna de alabanza se debe quizá al hecho de que la ciudad nunca fue sometida por ningún invasor desde su refundición a finales del siglo XV. Cuando Muley el Abbas, el hermano del emperador, declaró la reanudación de la guerra después de la batalla de Tetuán con la conquista de ésta por parte de los españoles, la alegría volvió a los rostros de los tetuaníes musulmanes. Esta continuación significaba una posibilidad de liberarse del yugo de la dominación española. Ahora bien, apunta Alarcón, lo que no podían sospechar los tetuaníes es el buen trato que recibieron de sus vencedores. En efecto, los españoles no les molestaron en sus casas ni les obligaron a salir de ellas ni les hicieron prisioneros de guerra ni les maltrataron o se apoderaron de sus bienes. Esto hizo que los tetuaníes reconsideraran un poco a los españoles, empezando algunos a granjearse su amistad.

Los tetuaníes empezaron a aceptar «sin recelos» a sus ocasionales huéspedes en sus casas, incluso les invitaban a los banquetes, como fue el caso de Abdelkader que invitó a Alarcón y a algunos amigos oficiales españoles a un banquete. Por cierto, el autor se quedó muy satisfecho de la hospitalidad tetuaní, llegando a hacer amistad con algunos musulmanes distinguidos de Tetuán como el dandy Hamet Focay : «es el moro más bello y elegante que he visto (p. 491), con el rico Erzini el menor, así como otros más. Ahora bien, con quien más se ha quedado prendido es con el poeta Chorby a quien el autor elogia de esta forma : «Chorby, el árabe clásico, el huésped generoso, el mahometano según el Corán» (p. 489).

En cuanto a los judíos, el autor los considera como eternos parásitos de los pueblos que los acogen. Son completamente la otra cara de la moneda en comparación con los mahometanos. Siempre están del lado del más fuerte. Cuando entran los españoles en Tetuán los judíos se precipitan a adularles como sus nuevos amos. Esta circunstancia no pasa desapercibida para Alarcón quien dictamina :

¡ He aquí el pueblo hebreo retratado por sí mismo ! Helo ahí al servicio del recién llegado. Helo «sin rey ni Roque», como se dice vulgarmente. (p. 356)

Los judíos y los musulmanes viven por separado dentro de la misma ciudad. La judería que Alarcón describe con maestría es la misma que hoy en día se encuentra cerca de la plaza Hassan II (Feddan). Aclaremos que la antigua judería se hallaba ubicada cerca del emplazamiento de lo que sería más tarde la Mezquita Grande. La construcción de dicha mezquita en 1817 determinó a los habitantes musulmanes de Tetuán a trasladar la judería lejos de las mezquitas, en el sitio donde la vio Alarcón.

Según Alarcón, el argelino se diferencia del marroquí en que aquél conoce más la vida europea. El argelino explota las costumbres europeas para sus negocios, y es más trabajador y comerciante que el marroquí.

Los renegados españoles viven en Tetuán como vivieron los moriscos en España después de la expulsión total de los musulmanes, es decir, que repudian de su religión cristiana.

Alarcón llega a conocer a un español, pero no renegado, que ha estado vecindado siete años con los habitantes de Tetuán. Es propietario de una «magnífica casa» en la judería. Y se dedica al comercio de trigo, lana y ganado. Se ha hecho muy rico en la comarca. Antes de declararse la guerra hispano-marroquí se llevó toda su fortuna.

Como Alarcón es un consumado observador se fija con interés artístico y curioso en la mujer tetuaní. Su mayor deseo, y de hecho el cumplimiento de su sueño, es ver a una odalisca musulmana ; pero el poeta no contaba con el recato y recelo con que las mujeres mahometanas se vestían, amén de no dejarse ver por ojos extraños, encerrándose en sus casas. En una ocasión consigue ver fugazmente a tres moras completamente tapadas. No obstante, se le presenta



la oportunidad de ver a una verdadera odalisca. una esposa del poderoso Erzini que se había fugado a la entrada de los españoles en Tetuán, dejando parte de sus riquezas y algunos de sus concubinas. Para Alarcón era el momento más excitante y culminante de su sueño, verse delante de una odalisca que la figuraba de una belleza exótica ; pero su decepción fue grande al comprobar que la mujer era negra ; no obstante, su don y tacto de poeta le hacen ver en ella cierto atractivo como lo testifican estas palabras :

Sus facciones son regulares y finas, su cuerpo el de una Venus de azabache ; su tocado sumamente artístico ;... (p. 411)

En otra ocasión consiguió ver, a hurtadillas, en una azotea a una mora blanca curiosa que trataba de ver desde la atalaya de su casa y sin creerse ser vista por Alarcón, el paso de los soldados españoles. Ahora sí podía dar crédito a la imagen que había tenido de ella en sus sueños ; la mujer era hermosa, y lo ratifica al lector por si éste duda de él de esta forma tan cóndida : «y debes creerme, porque no estoy enamorado de ella» (p. 493). Seguidamente la describe de una forma sencilla y artística :

«Es una mora de catorce o quince años, blanca y descolorida, con dos ojos negros grandes y relucientes, con una boca de niño, y envuelta de los pies a la cabeza en un alquicel de finísima lana que la hace parecerse a una escultura griega.» (p. 493).

Si la mujer tetuaní musulmana apenas si se deja ver, siguiendo fielmente su tradición de mantenerse oculta a los ojos extraños, conservando de este modo todo su encanto y grandeza, la hebrea se presenta ante los ojos del escritor como una mujer vil, de miserable apariencia y falta de dignidad y personalidad. La siguiente cita lo resume todo :

Por lo general, aquellas miserables hembras se nos aparecían sucias y andrajozas... Su color era enfermizo (...) (p. 355).

Para añadir más tarde de una manera tajante :

Las hebreas, descalzas, desceñidas, despeinadas, pálidas, ojerosas, pobremente vestidas... (p. 378).

Lo único positivo que ha visto el autor en estas hebreas es la belleza natural de algunas de ellas resaltada por un vestido elegante en el día festivo de los sábados. La que más le ha llamado la atención es una tal Tamo, esposa de un joyero, Samuel, de sesenta años. La joven no pasa de los diecisiete. He aquí la descripción que hace el poeta de ella :

Mirada de perfil parece una estatua egipcia hecha por un griego. Su delicada carne contrasta con los ribetes de su corpiño, y que todas las perfecciones de aquel cuerpo son un presente de ambrosía encerrado en una copa de oro... (435).

No obstante, insiste el autor en que las judías no pueden agradar más que al artista.

## VI - SUS GUSTOS : MOBILIARIO Y DECORACION

Si la simplicidad y peculiar arquitectura de las casas de Tetuán constituyen



una característica común, su decoración resalta por su buen gusto. El moro tetuaní siempre se ha distinguido por su amor y apego a lo artístico y poético. Su casa la considera como la imagen de su propio ser, de su honor y de su categoría. Por eso se esmera en decorarla de lo mejor que existe en el mercado nacional e internacional, incluso los más ricos se compiten entre ellos en poseer la casa mejor amueblada. En este aspecto, Alarcón afirma que toda la decoración de las casas ricas de los moros de tetuán es artística, la misma de hace siglos y que se conserva en perfectas condiciones. Los muebles, las cortinas, las alfombras, las alacenas, la vajilla, la cubertería plateada... todo es auténtico con sabor oriental muy marcado.

Al entrar furtivamente en la habitación donde estaba la odalisca negra del magnate Erzini, el poeta-soldado comienza a describir el mobiliario de dicha alcoba :

En la habitación había un Lecho, verdaderamente regio, cubierto de almohadones Lecho de damasco rojo y de cortinas de lana y seda... (p. 411).

Seguidamente continúa la descripción resaltando las alfombras de un colorido exuberante, los tapices cojines mantas de lana. A veces, el autor desconoce el nombre de algunos muebles típicamente árabes y otros detalles ; no obstante, y a pesar de confesarnos su ignorancia veamos lo minucioso de su observación y lo conciso de su detallismo en esta descripción :

Arcas labradas, altas como nuestras cómodas, y las tarimas que sirven para comer bajas como las que encierran nuestros clásicos braseros. Otomanas y cojines hasta la profusión ; alacenas(...) vajilla oriental e inglesa ; grandes espejos ; ni una silla ; ricas alfombras ; esteras de junco y de palma ; cortinaje de gran mérito ; arañas de cristal ; dos otras camas de bronce... (p. 413).

En cuanto a la Mezquita Grande el autor alude a que su mobiliario es de una sencillez admirable : muchas esteras de junco y muchas lámparas que penden del techo. Los adornos o decoración apenas existen ; sólo aparece la severa sencillez de las paredes revestidas de madera sin pintar.

El mobiliario de las casas de los judíos es, como dice Alarcón, a la española. Hay algunos muebles modernos traídos de Gibraltar como butacas, mesas de juego, blandos sofás y elegantes camas. Por lo general, los hebreos ricos han tomado de los moros, de los españoles y de los ingleses los objetos más cómodos y confortables, sin cuidarse para nada de la unidad artística.

A continuación citamos la descripción de la decoración que nos muestra el autor de la casa de su afitrión el judío Abraham :

Constitúyela un altísimo estrado de madera clavado en la pared bajo un arco de herradura que forma una especie de alcoba en un extremo de la sala principal. Amplias y largas cortinas ocultan a la vez el lecho y la alcoba. Gruesas alfombras dobladas sirven de colchón, mientras que una soberbia y extensísima colcha blanca de rico estambre suple a un tiempo por las dos sábanas... (p. 380).

Como apunta nuestro poeta, la casa del judío está adornada medio a la oriental y medio a la cristiana ; en lo que respecta a la cama es estrictamente hebrea.

En fin, el moro tetuaní (el rico) se manifiesta como un amante de lo lujoso y artístico que rezuma poesía y agrada a la vista, en cambio, el judío sólo se preocupa en llenar su casa de objetos caros sin interesarle la armonía de los mismos.

## VII - SUS COSTUMBRES

El don de Alarcón estriba en poseer un olfato capaz de indagar y escudriñar sobre aquello que a la vista de los demás parece falto de interés. El se considera afortunado de conocer a fondo las costumbres marroquíes. El no pregunta nunca a las cosas su secreto, sino que se planta en medio de ellas y trata de comprender su particular lenguaje. En lugar de remover escombros y manuscritos buscando nombres y fechas, procura penetrar lo más hondo posible en el corazón de todo lo que ve y, una vez allí, deja a su sensibilidad el cuidado de adivinar todo lo que le rodea. El es distinto a todos los periodistas destacados en el norte de Africa para cubrir la información sobre la guerra hispano marroquí. Según J. Grau, en su artículo «Alarcón, periodista» (I), el mejor periodista y corresponsal de guerra era Alarcón, seguido en méritos por el poeta Núñez de Arce, corresponsal de **La Iberia**.

La diferencia entre estos dos grandes corresponsales radicaba en que Alarcón hizo periodismo con la poesía, en tanto que Arce utilizó un periódico para hacer poesía (las más de las veces simple lirismo). Además, Tetuán y sus costumbres confirmarían la valía, la perspicacia y el deseo vehemente y casi fanático de Alarcón de saber todo lo relacionado con la ciudad marroquí. Grau alude a que en las crónicas de Arce de los días 8 y 10 de febrero, cuando Alarcón había descrito ya toda la ciudad, escudriñando hasta debajo de las camas y entrando en los harenes furtivamente, Arce aún estaba recordando el día 4 cuando las puertas de Tetuán se abrieron a los ejércitos españoles. Grau termina de manera burlona, refiriéndose a Arce : «Por lo visto, no se había dado cuenta de que ya estaba dentro».

Para Núñez de Arce, Tetuán era de poco interés periodístico, sin embargo Alarcón le hubiera preguntado : ¿ Acaso Tetuán no era una ciudad cerrada del imperio marroquí en la que no podían entrar cristianos y que, por lo mismo, era completamente desconocida en España, donde se la entreveía sólo a través de relatos de viajeros que la rodeaban de un halo misterioso que la hacía más deseada aún por la curiosidad de los españoles ? pero a Alarcón no se le iba a pasar de largo esta gran oportunidad, y aprovecha su estancia en Tetuán para dar rienda suelta a su curiosidad artística.

Alarcón sabe por medio del hispanomarroquí Santiago que, en verano, las familias acomodadas de Tetuán bajan a bañarse en el mar Mediterraneo, pero con una excepción particular : los hombres y las mujeres por separado<sup>(8)</sup>. Por

(7) Grau, J., «Alarcón, periodista», **Gaceta de la prensa esp.** Madrid, 1958, N° 114, pp. 25 - 52;

(8) Esta costumbre llegó a conservarse hasta la década de los 1960 en las playas de Martín, Mdig y Azla.



otra parte, es digno de elogio, y así lo manifiesta el autor, la consideración de los musulmanes de la ciudad en respetar las costumbres y tradiciones sagradas de los no musulmanes. En Tetuán hay un cementerio para los cristianos y otro para los hebreos. En cuanto a relaciones sociales, el autor alude a que los moros tetuaníes no tienen sitios públicos de reunión como cafés, casinos, teatros, etc. Sus puntos de reunión son sus propias casas. El motivo suele ser la organización de una especie de velada musical andalusí. Estas pequeñas fiestas se hacían por turnos entre los ricos de la ciudad. Todos amaban la música de sus antepasados granadinos. Ahora bien, y en honor a la verdad, el auténtico punto de reunión público era la mezquita, sobre todo a la hora de las oraciones. A la llamada del almuédano, todos los varones musulmanes se dirigen a las mezquitas para cumplir con su obligación sagrada. Una vez allí rezan todos juntos, y luego cada uno vuelve a su casa para encerrarse en ella y aislarse del mundo exterior. A la mujer musulmana le estaba prohibido salir de casa, y como era lógico, rezar en público en la mezquita con el hombre. Los moros más ricos de la ciudad se permitían el lujo de tener un harén lleno de odaliscas negras y blancas (como es el caso de Erzini y Abdelkader, ricos tetuaníes a los que Alarcón dedicó algunas páginas de su libro). Por otra parte, en las páginas 423 - 25 del **Diario de un testigo...** nuestro escritor cita unos pasajes de la obra de Ros de Olano **Leyendas de Africa** en el cual se relata la vida y costumbres del marroquí dentro de su casa<sup>(9)</sup>.

Los moros aman las flores, las aman tanto que cuando ven a alguien por la calle con un ramillete de flores, se acercan a él, le cogen suavemente la mano, huelen las flores y sin decir una palabra se alejan con una sonrisa de satisfacción y agradecimiento. También son muy aficionados a la fabricación de perfumes.

En otro orden de cosas, los tetuaníes viven por excelencia del campo ; muchos poseen extensas tierras cultivadas de trigo, cebada, maíz, frutas y legumbres ; tienen también viñedos. La uva la venden fresca o la convierten en pasa. Algunos hacen de ella vino y lo beben o venden clandestinamente. En todo caso, la riqueza de Tetuán se debe a la fertilidad de su valle que es considerado como uno de los mayores centros de vida, de actividad y riqueza del Imperio marroquí. También crían animales domésticos como ovejas, vacas, cabras y caballos. Según Santiago - afirma Alarcón -, cuando había escasez de comida en las naciones europeas, llegaban buques ingleses, franceses, españoles al puerto del río Martín para intercambiar municiones y metales por viveres.

El centro comercial de Tetuán es la Alcaicería que tiene más de trescientas tiendas. Los que no poseen tierras de cultivo viven del comercio en dichas

---

(9) Una cosa sencilla que le habrá pasado por alto a Alarcón es la herradura que se halla pegada discretamente en la parte superior o inferior de las puertas de entrada a casa, y siempre del lado izquierdo. Esta herradura, según las viejas tradiciones de la ciudad, sirve para traer suerte y alejar los malos designios. Hoy en día, en casi todas las puertas de las casas de la parte antigua de la ciudad, se conservan tales herraduras.



tiendas<sup>(10)</sup>. También los numerosos moros argelinos se dedican al comercio, pero la peculiaridad radica en que sus tiendas están en el interior de sus propias casas. Efectivamente, los argelinos tienen una especie de bazar que consiste en un gran mostrador, sobre el cual extienden las más ricas y valiosas telas del Sur y de Oriente. Ahora bien, tanto los moros argelinos como los marroquíes son muy leales a la hora de vender, fijando el precio adecuado a cada mercancía sin permitir regateos, a diferencia del judío cuya avaricia no tiene límites, por eso son muy codiciosos en el comercio llegando a pedir veinte veces más de lo que en realidad vale una mercancía.

Alarcón resalta con efusión la hospitalidad del moro tetuaní que comparte sin reservas todo lo que tiene. Al huésped - sin distinción de raza o religión - se le trata con todos los honores y se le ofrece lo mejor de la casa. El autor asiste a un banquete moro y se queda sumamente maravillado de la típica comida *alcuscus*. Ahora bien, su capacidad de observación le hace extrañar la carencia de sillas ; pero luego se cerciora de que no son necesarias. El moro tetuaní suple esta falta con otomanas y cojines, y la más de las veces se sienta con las piernas cruzadas sobre alguna estera o alfombra. Además, Alarcón se ha fijado en que los moros siempre quitan sus babuchas antes de entrar en una estancia, y siempre están limpios y presentablemente elegantes. A propósito de esto, dice el poeta-soldado :

«Yo creo que su ingenioso profeta no se propuso otra cosa al prescribirles tan cuidadosamente las abluciones» (p. 454).

Alarcón se queda sorprendido y a la vez admirado al comprobar que la mayor ofensa que se le puede hacer a un tetuaní musulmán es nombrarle a sus esposas o esclavas. Esta circunstancia le lleva al escritor a indagar más en este punto, consiguiendo descubrir costumbres no sólo propias del tetuaní, sino de todo el Imperio marroquí. A este respecto nos dice :

El aliño de todos sus goces es el misterio ; la mejor habitación de sus casas la más oculta ; su mujer más preciosa, la que nadie haya visto ; su más profunda convicción o puro sentimiento, el que nunca manifestaron a nadie. (p. 351)

Estos descubrimientos y todo lo que atañe física y moralmente al moro tetuaní, no hacen sino aumentar su admiración hacia él, caracterizando de este modo su temperamento indomable, un temperamento que le hace optar por todo género de penalidades, privaciones y miserias a la humillación de reconocerse vencido.

### VIII - TETUAN BAJO LA ADMINISTRACION ESPAÑOLA

En honor a la verdad, y según las propias palabras de Alarcón, el ejército español no abusó de la autoridad que le otorga como vencedor, dejando casi

---

(10) Alarcón se lamenta del saqueo a que fue sometida la Alcaicería vísperas de la toma de Tetuán por el ejército español.

plena libertad de proceder a los habitantes de Tetuán. Estos, en principio remisos y recelosos, supieron valorar y agradecer más tarde tal generosa iniciativa para volver a sus actividades cotidianas y granjearse, algunos, la amistad de los españoles.

La vida volvía a la normalidad después de unos días agitados posteriores a la toma de la ciudad. Los dirigentes españoles aprovecharon esta coyuntura para introducir mejoras en Tetuán. Lo primero que se hizo fue la instalación de una oficina de telégrafo eléctrico que permitía una rápida comunicación con Ceuta y la península. Al mismo tiempo se instaló una improvisada imprenta que permitió al mismo Alarcón fundar el primer periódico del Imperio de Marruecos titulado **El Eco de Tetuán**, periódico que por cierto tuvo poca duración debido sobre todo al regreso a España de un Alarcón decepcionado por la reanudación de la guerra.

Una de las medidas urgentes a tomar fue solucionar el problema del alumbrado público. En más de una ocasión Alarcón denunciaba lo arriesgado y peligroso que era andar de noche y a oscuras por las estrechas y laberínticas calles de la ciudad. Afortunadamente, se solventó favorablemente el problema con la colocación de faroles en puntos estratégicos. Al principio, los gastos corrieron a cuenta del ejército español, después se mandó a cada diez vecinos que costeasen un farol hasta las diez de la noche.

En el aspecto de la convivencia, se procedió a la organización civil de la población tanto mora como hebrea. Se nombró un alcalde para cada comunidad; asimismo se creó una policía política para mayor seguridad de los conciudadanos.

Por su parte, el Estado Mayor trazó desde la Alcazaba el plano de la ciudad, dividiéndola en cuatro cantones o distritos militares. También se le pusieron nuevos nombres a las calles, puertas y castillos. Las cuatro puertas que daban a tanger se denominaron el Cid, la victoria, los Reyes Católicos y Alfonso XII. La puerta por la que entraron los soldados españoles por primera vez se la denominó «la reina», en honor a Isabel II.

En otro orden de cosas, se compusieron los caños de desagüe para una salubridad mejor. En el aspecto puramente caritativo y fraternal se establecieron hospitales para moros, cristianos y judíos, sin discriminación de razas. Tal iniciativa contribuyó a que se abriesen nuevas fondas y cafés, y empezasen a mezclarse las distintas razas en sitios de tertulia, ocio, circunstancia que era, tajantemente imposible antes de la invasión. Por otra parte, y como estrategia para mantener la paz, el respeto a la propiedad privada y el abuso del más fuerte, se niveló el valor flotante de la moneda, así como se buscó la oficina de hipotecas a fin de saber a qué atenerse en punto a las propiedades; sin embargo, se halló que en Tetuán - y en todo el Imperio -, las traslaciones de dominio se verificaban en una forma judicial. En este caso, los españoles no hicieron sino mantener vigente dicho sistema.



En fin, todas estas medidas adoptadas por el ejército español fueron dignas de mención a las que Alarcón consideró como un gran acierto, y cuyos resultados fueron positivos tanto a nivel social como político y militar.

## **SEGUNDA PARTE**

### **LA TETUAN POETICA**

Alarcón había ido a la guerra de Africa movido por un sentimiento más romántico y poético que patriótico ; él nos decía que nacido en Guadix (1833) al pie de Sierra Nevada, lleno de recuerdos del reino granadino, al pie de aquella Sierra, desde cuya cumbre se divisaban las costas de Africa y habiendo pasado su niñez entre alcazabas, alcázares y mezquitas, oído en su adolescencia los cantos de los moros que todavía perduraban en las calles de su tierra, visitado la Alpujarra llena de tantos recuerdos, leído las crónicas de los moros mientras crecía, saboreado la poesía que hablaba de ellos, qué extraño resultaría que no soñara siempre con ir a Africa. El se imaginaba el Africa a través de sus recuerdos y de sus lecturas, imaginándola de un modo romántico. Toda la perdurabilidad del mundo romántico se volcaba en su imaginación ; era el momento de la fantasía en ebullición. El pensaba en las moras cubiertas, en los patios misteriosos, en ciudades fabulosas que jamás pie cristiano había puesto en ellos. Los sueños de niñez y de siempre del poeta-soldado se harian-realidad desafiando el cólera, las furiosas y temibles acometidas de los soldados marroquíes, con el fin de alcanzar el sueño de su vida que no es otro que ver de cerca y entrar en una ciudad mora cuya belleza artística activaría el don poético que aunaba en el sentimiento del poeta satisfecho

#### **1. Metáforas y comparaciones**

La ciudad de Tetuán está emplazada en un envidiable marco natural. Como hemos apuntado líneas arriba, Tetuán se halla rodeada de huertas, frutales, jardines, casas de campo, verdes y pintorescos cercados llenos de árboles, extensas vegas, ríos... todo esto el autor lo resume en una frase : «toda la pompa y magnificencia de una ciudad soberana» (p. 201). De entre toda esta naturaleza destaca la ciudad por su típica blancura y arquitectura. Todo el paisaje que rodea a Tetuán lo compara Alarcón con Granada y sus contornos, es decir, la llanura, los términos de su horizonte, su colorido, su aire, su luz, la comarca en conjunto, recuerda completamente la vega granadina. De todas maneras, todo lo relacionado con Tetuán, dícese los alrededores, la arquitectura, los habitantes, las costumbres, etc, se transformará a la vista del autor en poesía. El verá todo lo que le entusiasma con ojos de poeta, y su imaginación tendrá en Tetuán la inspiración deseada. Así, una leve niebla que empieza a ocultar la visión de Tetuán al poeta, se convierte en una lograda metáfora :

Diríase que su blanco albornoz morisco envuelve a la bellísima sultana. (p 202)



El autor insiste en la belleza de la naturaleza que rodea a Tetuán, de ahí unos pequeños relieves bajo forma de suaves colinas, toman cuerpo de una almohada para la, comodidad de la ciudad (p. 201). Alarcón resalta a Tetuán por la particularidad de la blancura de sus casas caladas que contrasta con el frondoso verdor de la naturaleza circundante. De esta forma, la posición de la ciudad se convierte en un broche de plata :

Engarzada (...) en dos verbes colinas de perezoso declive las reúne y encadena cual broche cincelado de deslumbrante plata. (p. 224)

La blancura de las casas de Tetuán parece obsesionar al autor. Esta blancura se transforma en una fuente de inspiración para el poeta-soldado. Ella será el motivo de bellas metáforas y comparaciones. Así, las verdosas ondulaciones del terreno que ofrecen el emplazamiento de la blanca ciudad, dan lugar a la siguiente comparación llena de imaginación y buen gusto :

Y esta ondulación es tan lánguida y graciosa que se pudiese comparar a la que formaría un chal blanco tirado al desgaire sobre un monte de esmeralda. (p. 224).

El poeta parece buscar insistentemente los aspectos más bellos de la ciudad, los más poéticos y románticos. De esta forma, aprovecha el relieve de luz del anochecer para relacionar la tenue luz de la luna y el cada vez más débil lucero de la tarde con la refulgente blancura de Tetuán ; lo inanimado cobra vida y del estilo retórico del autor emanan metáforas, comparaciones, prosopopeyas, sinécdoques... etc :

La luna de enero, la más plácida y luminosa del año, muestra ya un estrecho limbo de oro, tendido en el ciclo de Poniente, sirviendo como de simbólico remate a la torre de la mezquita mayor de Tetuán. Más alto y esplendoroso que la creciente luna, tiembla sobre la Alcazaba el lucero de la tarde, el melancólico Héspero, el dios que preside a las tristezas de los que vagan solos por el campo, llenos de lúgubres memorias o de irrealizables anhelos. Uno y otro astro se bañan en las suaves claridades del crepúsculo que agoniza, y Tetuán, que sirve de foco a estas tres combinadas luces, las rechaza como un espejo reverberando de tal modo, que se creería dotada de luz propia su deslumbrante, nítida blancura. (p. 264).

La blancura de las azoteas de Tetuán le recuerda al autor las casas caladas de Cádiz ; pero esta blancura de la ciudad mora es única, peculiar y reciente, que llega a ofender materialmente la vista del escritor ; no obstante, la visión artística de éste va más allá de lo vulgar y corriente, dando lugar a la siguiente metáfora :

Hace que Tetuán parezca revestido de una chapa de plata refulgente. (p. 348).

En lo que atañe a la construcción de las casas de Tetuán, el escritor dedica unas imágenes, además de románticas y poéticas, cargadas de expresividad y significado. Alarcón alude a que en Tetuán nada se renueva. Todo sigue la misma arquitectura de hace siglos. Lo viejo no se destruye, sino que se pone cerca o encima de él lo nuevo, pero de la misma forma, del mismo modelo. Esto da lugar a una significativa metáfora :

Una especie de blanco de moluscos, cuyas partículas están animadas pero cuya suma es un pólipo sin vida. (p. 366)

Ahora bien, y para matizar más la anterior metáfora, el poeta introduce otra imagen más poética y acertada que se adecua perfectamente a la fisonomía de la ciudad :

Parece haber sido formado al modo de los nidos de golondrinas. (p. 366).

## 2. Apelativos y calificativos

Para Alarcón, la ciudad de Tetuán es una reina, y la llama «La sultana del Guad-el Gelú. Tetuán cobra vida y «preside desde su trono» todo el paisaje que se postra sumiso a sus pies. Es la ciudad soberana, la bellísima sultana. Alarcón confiesa estar enamorado de ella, porque para él la ciudad es «deliciosa, magnífica, inmejorable». Desde que el escritor la vio por primera vez se quedó prendido de ella como aquel que se enamora a primera vista. El la deseaba tanto como codicia el moro a su concubina favorita, por eso la llama «codiciada odalisca». Es para él «una ciudad de marfil» por la blancura de sus casas que la hace más atractiva a los ojos del artista, del amante del arte y la poesía.

La ciudad en sí, recogida y apiñada, por su blancura y arquitectura, por sus minaretes de la mezquitas y la Alcazaba, se transforma para Alarcón en otra ciudad, en ciudades fantásticas :

Era Granada del siglo XIV ; Era Damasco ; Era Medina ; Era Ispahan. (p. 349)

Pero Alarcón va más allá en sus calificativos, dando rienda suelta a su fecunda imaginación para llamar la ciudad de diversas maneras, tales como :

Era la ciudad oriental, la ciudad árabe (...). Era el misterioso albergue de una raza apartada del mundo ; era el secreto de una olvidada historia (p. 349).

Sin embargo, no todos los apelativos son pomposos y relumbrantes. A veces, el autor llama a la ciudad de forma más severa aunque con matiz poético. Al considerarla sola, muda, sin ventanas, inmóvil, blanca y silenciosa como una tumba, el poeta llega a denominarla apesadumbradamente como :

Una ciudad muerta, una ciudad osificada, un esqueleto, una momia, un fómil... (p. 230).

El todo caso, los apelativos llamativos o positivos superan con creces los más negativos, esto quiere decir que la ciudad le gusta a Alarcón tanto que los defectos que pueda tener los envuelve con poesía para que aparezcan excelencias.

## 3. Tetuán, o la realización de un sueño

La meta del poeta era llegar vivo a Tetuán. El anhelaba vivir, aunque sea por unos días, entre las misteriosas paredes de la ciudad. El deseaba escuchar, ver, admirar, recrearse en todo lo que le recuerda a la Granada del siglo XIV. El actuaba más con el corazón que con la cabeza. Arriesgaba constantemente su vida en el campo de batalla porque quería entrar lo más pronto posible en Tetuán. Pero antes de entrar en la codiciada ciudad, el autor tendría la oportunidad de manifestar su desmedida alegría al contemplar por primera vez



la ciudad. Efectivamente, al ver a Tetuán postrada ante sus ojos desde el monte Cabo Negro, al poeta-soldado le parece estar soñando despierto y empieza a rememorar a la antigua Granada :

El mismo verdor oscuro, igual lujo de frutales, identicos caseríos en el campo...  
Ah ! La ilusión es completa. (p. 202).

Pero cuando la ve muy de cerca, desde lo alto del cementerio, la imaginación del poeta se sobrepone a la del dibujante, es decir, el escritor ya no ve a la ciudad como le aparece ante sus ojos, sino como un reflejo de sus sueños. Es como si la hubiera visto desde siempre en sueños o en su imaginación. De este modo, Tetuán no le defrauda en absoluto, puesto que coincide exactamente con la ciudad fabulosa de sus sueños de niñez y de poeta :

Era la ciudad de mis recuerdos, la de mi soñadora fantasía, la de mis amores de poeta. (p. 349)

Pero cuando llega el momento solemne de la entrada por primera vez en Tetuán, el entusiasmo del autor es tal que queda reflejado de forma elocuente en estas frases :

Tetuán ! Estoy en Tetuán ! la poética aspiración de toda mi juventud se ha convertido en un hecho, y mi deseo de toda la campaña en una viva y palpable realidad... (p. 337).

Una vez dentro de la ciudad, Alarcón empieza a escudriñar por los sitios más recónditos en busca de poesía que haga desbordar su fantasía. No cesa de curiosear, ver, admirar, preguntar, estremecerse, reflexionar, enjuiciar ; pero todo lo hace bajo el prisma poético. Consigue infiltrarse furtivamente en un harén y ver a una odalisca negra ; semidefraudado, le habla con su alma de poeta y ella le entiende. Consigue ver a un gigante esclavo negro y se enamora poéticamente de él. Las conversaciones amorosas entre los soldados españoles y las impúdicas hebreas le recuerdan a Alarcón pasajes de las obras de Florián, Chateau briand, Byron, Calderón, Zorrilla... El trío de moro, español y hebreo conversando en el hueco de una puerta, los ajustes, las ventas, las compras y los cambios, las explicaciones que hace cada cual de sus particulares usos y costumbres, el moro que llega a pedir justicia trayendo a un judío cogido por el cuello, etc, todos estos cuadros constituyen para Alarcón asuntos dignos de la comedia, del romance o del sainete ; son cuadros poéticos. Pero lo que más ha maravillado al poeta soldado es la velada tertulia de los oficiales marroquíes y algunos oficiales españoles que tuvo lugar en la casa de Erzini el menor. Allí estaba Alarcón como invitado. El ambiente era muy amistoso y de confianza, propicio para que el escritor comenzase a poetizar. El cuadro que vivía era para él de ensueño : aquellos generales moros con sus albornoces y sus turbantes blancos, con sus rostros graves y solemnes y sus clásicas actitudes, hacían juego con los muebles orientales, las alfombras y cortinas. la propia arquitectura del salón. Todo esto le parece al poeta como algo fantástico, que le hace exclamar extasiado de esta manera :



Qué cuadro ! Qué escena ! Qué noche ésta ! Yo no me había atrevido nunca ni a soñarlo. (p. 458)

Luego, el poeta agradece su buena estrella de ser el elegido de excepción a presenciar escenas de ensueño, de ser el hombre más afortunado del universo que vive un sueño real. Alarcón todavía no daba crédito a lo que había visto y escuchado. Para él era ya demasiado pedir y así lo manifiesta en estas palabras :

La escena que presenciaba anoche me parecía un sueño, una inspiración o algo semejante. Y creía haber nacido en la Edad Media y encontrarme en la Granada de Muley-Hassen o en la Córdoba de los Abderramanes (p. 458).

En definitiva, Tetuán resulta para el viajero o visitante vulgar, para el amante de las diversiones, una ciudad aburrida y detestable, porque en ella no hay cafés, ni paseos públicos, ni casinos, ni fondas ni nada que llame la atención ; es completamente distinta a todas las ciudades europeas, ni siquiera se la puede comparar - dice un soldado español - con el más pequeño y mísero de los pueblos de España. Sin embargo, para Alarcón, el mérito y encanto de Tetuán radica precisamente en esa misma desemejanza con las ciudades europeas. Como la ve con ojos de poeta, de artista, la ciudad para él es deliciosa, magnífica, inmejorable y típicamente oriental. Si Tetuán fuera como una de tantas ciudades europeas, la desilusión del poeta habría sido tremenda, como lo justifica él mismo con estas emotivas y enfáticas palabras :

Adiós entonces mis ensueños africanos ! Adiós arte ; adiós poesía ; adiós originalidad ; adiós orientalismo ; adiós todo lo que he venido a buscar en esta tierra ! (p. 326)

y lo que buscaba y soñaba lo encontró con creces. La ciudad fue fiel reflejo de sus sueños de siempre.

#### **4. Inventario de denominaciones**

Alarcón no ha regateado elogio alguno al referirse a Tetuán. La ha llamado de las más diversas y dispares denominaciones, pero casi siempre con tendencia al elogio. La larga lista de denominaciones sobre la ciudad que a continuación exponemos muestra claramente el grado apologístico del poeta :

#### **APELATIVOS Y CALIFICATIVOS**

- La muelle deidad
- Una ciudad soberana
- La bellísima sultana
- La codiciada odalisca
- La sultana del Guad-al-Gelú
- Una ciudad de marfil

Tetuán es Granada

Tetuán es Medina  
 Tetuán es Ispahan  
 Tetuán es la díscola civilización mahometana  
 Tetuán es la ciudad oriental  
 Tetuán es el misterioso albergue de una raza apartada del mundo.  
 Tetuán es la ciudad de mis recuerdos  
     la de mi soñadora fantasía  
     la de mis amores de poeta.

## ADJETIVOS

- Ciudad tan vistosa
- Artísticamente situada
- De tan seductora apariencia
- Con su ambiente fantástico
- Sus vivísimos colores
- Delicioso, magnífico, inmejorable
- La ciudad más bella
- La maravillosa ciudad

Como se nota, el autor expone una variadísima gama de alabanzas de su refinado estilo retórico ; sin embargo, no faltan apelativos y calificativos que lejos de ser ditirámicos y líricos, precen reflejar la realidad desnuda de la ciudad :

- Un nido de moros
- Una ciudad muerta
- Una ciudad osificada
- Un esqueleto
- Una momia
- Un fósil

Pero es una realidad pasajera para el autor, puesto que «muerta», «osificada», «esqueleto», «momia», «fósil», palabras, aparentemente negativas para cualquiera no lo son tanto para Alarcón. Si él define así a la ciudad no es para desprestigiarla, sino para exponerla al lector cómo es en la apariencia ; es como si el autor dejara de verla desde la óptica del poeta para pasar a la del corresponsal objetivo. En todo caso, e insistimos en ello, no apreciamos intención negativa en ello sino todo lo contrario, es decir, una forma original de Alarcón de concebir sus criterios, que a la postre son significativos en cuanto a sus inclinaciones poéticas sobre Tetuán.

## CONCLUSION

El tema de este trabajo, «visión de Tetuán por Alarcón», es quizá el tema más amplio de cuantos componen el **Diario de un testigo de la guerra de Africa**,

no en vano lo mejor del libro - cuantitativa y cualitativamente - está dedicado precisamente a la ciudad marroquí.

Alarcón ve a Tetuán bajos dos prismas distintos : uno real y físico basado en la descripción de la ciudad tal y como es en realidad, con su exuberante naturaleza circundante, su peculiar arquitectura, sus habitantes y costumbres, etc y el otro poético donde la ciudad se transforma en algo fabuloso, fantástico, de ensueño, donde el sueño se sobrepone a la encantadora realidad.

Alarcón, lo narra todo con emoción y entusiasmo llevado siempre por el deseo innato de conocer las cosas como son en su propio ambiente. Su estilo sencillo y detallista adquiere relieves de depurada retórica al hablar de Tetuán tanto real como poéticamente. Sin embargo, en esta última parte es cuando el estilo del autor adquiere más belleza estética, más elegancia y parece de mayor inspiración poética ; entonces brotan con facilidad metáforas, imágenes, bellas comparaciones y demás figuras retóricas. El estilo, en definitiva, gana en emoción y énfasis.

Se puede decir que el **Diario de un testigo de la guerra de Africa** está dividido en dos partes : Tetuán (o Marruecos si apuramos más) y la crónica de guerra propiamente dicha, o sea, arte e historia. Además, es muy difícil escribir de historia cuando el punto de mira de la historia es la obra de arte, o es la literatura. El escribe la crónica de la guerra Porque su deber de periodista así lo exige, pero partiendo siempre del punto de mira literario. Con la entrada en Tetuán, Alarcón parece olvidarse de la guerra, consagrando la mayor parte de su tiempo en admirar, literalizar y poetizar a la ciudad africana, y al mismo tiempo dar a su obra un mayor valor literario. Ahora bien, si la obra poética es universal y perdurable, la obra histórica transita por el tiempo, y Alarcón se encontrará entre las dos posiciones ; pero partiendo de lo temporal logrará con su galanura estético-poética universalizar su obra.

Tetuán pues, será el incentivo, el motivo mayor para que el libro **Diario de un testigo...** gane en belleza literaria. Tetuán será la causa de los momentos de delirio del autor, de sus mayores emociones, entusiasmos y asombros. Tetuán será, probablemente, la ciudad que más impresionó al poeta en toda su vida.

Tetuán, 1 de octubre de 1990



## BIBLIOGRAFIA SELECTA SOBRE TETUAN

- ALARCON, P.A. de, - **Diario de un testigo de la guerra de Africa**, Madrid, Ed. del Centro, 1974, 537 p.
- Bermejo de la Roca, A. - **Marruecos**
- BLAZQUEZ BORES, F., - **Sevilla y Tetuán en la medicina de la España musulmana**  
Tetuán, Imp. Marroquí, 1954
- CARMONA, Alfredo, - **Luna de Tetuán**  
Madrid, Ed. Caro Raggio, 295 p.
- COLA ALBERICH, Julio, - **Etnología del norte africano**  
Tetuán, IMP. Marroquí, 1954.
- DAOUD, Mohamed, - **Síntesis de la historia de Tetuán**  
Tetuán, Imp. Mahdí, 1955, 357 p.
- GARCIA JAEN, A., - **De España y del islam**  
Tetuán, Impr. Marroquí, 1954
- GARCIA FIGUERAS, Tomás, - **Marruecos**  
Tetuán, Imp. Marroquí, 1955
- GIMENEZ CABALLERO, Ernesto, - **Notas marruecas de un soldado**  
Barcelona, Planeta, 1983
- GRAU, J., - «Alarcón, periodista»  
Madrid, **Gaceta de la prensa española**, 1958, N° 114 PP. 25 - 52
- JUARROS ORTEGA, César, - **Laciudad de los ojos bellos Tetuán** - Madrid,  
Mundo Latino-Imprenta Pueyo, 1922, 315 p.
- MORALES OLIVER, Luis, - «La guerra de Africa en P.A. de Alarcón»  
Madrid, **A.I.E.A.**, año XV, N° 54, junio 1960, pp. 7 - 17 - **Africa en la literatura española**  
Madrid, C.S.I.C., 1964
- NÚÑEZ DE ARCE, Gaspar, - **Recuerdos de la guerra de Africa**/Barcelona,  
Ed. Biblioteca Arte y Letras, 1886
- PEREZ GALDOS, Benito, - **Aita Tettauén**  
Madrid, Alianza Editorial, 1979
- RADA Y DELGADO, Juan de dios de la, - **Con motivo de la toma de Tetuán**,  
Madrid, Imprenta J.M. Ducanza
- R'HONI, Ahmed, - **Historia de Tetuán**  
Tetuán, Ed. Marroquí, 1953

**YEBBUR ODDI, Abderrahim, - El gobierno de Tetuán por la familia  
Al-Naqsis. 1597 - 1673**

Tetuán, Imp. Marroquí, 1955

**VALDERRAMA MARTINEZ, F., - El palacio califal de Tetuán (su historia  
y su epigrafía)**

Tetuán, Imp. Marroquí, 1954.

## COMPTES RENDUS SUR CERTAINES CAUSES DE LA GUERRE DE TETOUAN (1859 - 1860)

Jamal AATIF

Au XIX siècle, le Maroc a été soumis à une forte pression de la part de l'imperialisme qui connaissait à l'époque une grande expansion.

L'importance du pays sur le plan géographique lui offre une situation particulièrement intéressante. Point de liaison entre les continents européens et africains, il facilite de manière notable les multiples échanges commerciaux. La situation stratégique de sa part, fait du Maroc une bonne ouverture sur la méditerranée et sur l'océan atlantique.

Ces facteurs ont fait que le pays soit sujet à de fréquentes interventions qui imposent de profondes transformations à l'économie et à la structure sociale marocaines.

Si le pays avait suivi une politique d'isolement (au début du siècle), mise en place par Moulay soulimane, et que l'Europe était en l'occurrence préoccupée par ses propres problèmes ; la nouvelle politique adoptée plus tard par Moulay Abderrahmane à partir de 1822 ouvre une nouvelle ère dans les relations du Maroc avec l'Europe.

A partir de ce moment, les puissances étrangères cherchent par tous les moyens à provoquer le pays pour y étendre leur influence, d'autant plus que les puissances européennes étaient poussées en cela par certaines circonstances.

Parmi ces inconstances, le grand essor démographique qui a multiplié les besoins en céréales, besoins que la production locale n'arrivait guère à satisfaire. A cela s'ajoute la tendance manifeste, souvent génératrice de concurrence entre ces états, à l'expansion coloniale.

L'expédition française en Algérie, en 1830, était en quelque sorte l'évènement qui a donné un nouveau souffle à cette tendance. Vint ensuite, la bataille d'Isly entre la France et le Maroc en 1844, qui donna pratiquement aux autres puissances l'occasion de conquérir le Maroc.

Certes, la faiblesse du Maroc se fait sentir dès lors, car ses forces militaires étaient complètement épuisées, et le pays subissait en même temps de nombreuses crises.



Ces facteurs encourageaient de plus en plus l'Espagne à tenter sa chance en vue d'une intervention militaire, sachant que déjà elle occupait Ceuta et Melilla.

Prétendant que son intervention dans le Maroc est en germe dans l'énoncé de certains conflits survenus à la frontière de Ceuta entre les Espagnols et les Marocains voisins de la ville, elle arrive après une série de pourparlers à déclarer la guerre contre le Maroc. Ce fut la guerre de Tétouan (1859 - 1860).

Le 22 octobre 1859, l'Espagne entre en guerre avec le Maroc. La plupart de ceux qui se sont intéressés à ce sujet voient les causes de la guerre dans l'énoncé des incidents survenus autour de l'enclave de Ceuta, dont les habitants de la tribu de «Angera» se sont rendus coupables au mois d'Août 1859.

Ahmed Naciri écrit à ce propos :

«... A la fin du règne de Moulay Abderrahmane, les chrétiens de Ceuta élevèrent sur la frontière une maison en pierre et en argile, et y placèrent le drapeau de leur roi qu'ils appelèrent la «Corona». Les gens de «Angera» se rendirent auprès d'eux pour les inviter à démolir cette maison, dont la construction était contraire à l'usage, et revenir à l'ancien état de choses en n'établissant que des baraques en bois. Les chrétiens s'y étant refusés, les gens de l'ANGERA s'emparèrent de cette maison, la démolirent, enlevèrent la CORONA, et la souillèrent d'excrements. Ils tuèrent aussi quelques hommes et traquèrent les habitants de Ceuta qu'ils poursuivirent jusqu'aux murs de la ville...»<sup>(1)</sup>

Par ailleurs, il est fort probable que les causes de la guerre de Tétouan ne sont pas à chercher dans les mauvaises relations diplomatiques entre les deux pays. Nous savons que des incidents bien plus graves que ceux de Ceuta se sont produits auparavant sans que soient engagées les hostilités.

L'assassinat du consul d'Espagne (Victor Darmon) à Mazagan par exemple, n'a pas entraîné la guerre. En outre, les présides espagnols étaient fréquemment attaqués par les tribus rifaines durant toute la période d'avant guerre. Néanmoins, on peut considérer que les causes de la guerre étaient nombreuses et compliquées. Pour parvenir à les relater, il serait préférable de les classer en deux sortes : des causes indirectes, et des causes directes.

#### LES CAUSES INDIRECTES :

Pour chercher les causes indirectes, il faut absolument voir l'état général de l'Espagne dans la période considérée. Ainsi, il faut prendre en considération la conjoncture économique, sociale, et politique. L'Espagne, avant le milieu du 19<sup>e</sup> siècle, avait un certain retard dans le domaine économique vis-à-vis des pays européens, notamment la France et l'Angleterre.

Au milieu du 19<sup>e</sup> siècle, des grandes transformations ont été apportées dans

---

(1) Ahmed Naciri, *Al Istiqa* Traduction française dans «Archives marocaines» VI. X, 1907, p. 212.

le pays. Nous soulignons le facteur intéressant qui a joué un rôle particulier dans le changement et l'évolution économique en Espagne. Ce fut la guerre de Crimée, lors de laquelle les puissances achetaient en Espagne des matières premières et des produits alimentaires, en particulier le blé<sup>(2)</sup>.

A ce propos, les récoltes européennes étaient faibles, celles de l'Espagne, sans être excellentes, n'étaient pas trop mauvaises non plus<sup>(3)</sup>.

Cet avantage entraîne directement l'augmentation de la superficie des terres cultivées. Il semble aussi que l'expansion démographique en Espagne eut un rôle non moins considérable pour l'augmentation de la capacité productive qui permettait à l'état les démarches vers l'exportation.

En outre, les conséquences des guerres civiles et coloniales de l'Espagne sont considérées comme des facteurs positifs dans le développement du pays. Car, étant donné qu'elle ont créé un vide dans la formation des capitaux, le gouvernement encourageait les investissements étrangers.

Les capitaux commencèrent à s'installer en Espagne et s'investirent dans les sociétés des chemins de fer, des banques et des sociétés de crédit<sup>(4)</sup>.

Nous remarquons que ces faits constituent une forme d'accumulation primitive sur laquelle peut s'appuyer le développement industriel du pays. Toutefois, la situation économique commence à connaître une certaine amélioration. En 1860, par exemple, le réseau de la voie ferrée comptait 1919 km, alors qu'en 1848, la voie ferrée n'était longue que de 28 km.

Parallèlement, et dans le domaine des mines des «Asturias», la production du bassin houillier passe de 51.000 tonnes en 1850 à 320.000 en 1860. A Linares, la production des mines de plomb saute de 9796 quintaux en 1850 à 24 000 en 1850. Celles des mines de cuivre de Rio Tinto et de mercure d'Almadon doublent entre les années 1850 et 1857<sup>(5)</sup>.

L'industrialisation en Espagne à cette époque se fait sentir aussi dans les domaines de textile et de la sidérurgie. En 1848, le pays produit 23 millions de livres de coton, en 1860 la production est de 60 millions de livres.<sup>(6)</sup>

Quant à l'industrie lourde, elle se concentre dans la région des «Asturias» et du pays basque, au moment où la région de «Catalunia» finance des installations sidérurgiques très importantes entre les années 1840, 1850<sup>(7)</sup>.

Dans l'industrie catalane, les investissements passent de 414 millions de réaux

---

(2) C. Sanchez Albanoz : *España hace un siglo, una economía dual*, Barcelona, 1968 p. 62.

(3) C. Sanchez Alborno, op. cit., p. 62.

(4) M.C. Lemyer. C. Serrano, *La guerre d'Afrique et ses répercussions en Espagne*, Madrid, 1976, p. 20.

(5) M. Tuñon de Lara, *La España del siglo XIX*, Madrid, 1933, p : 105 - 106.

(6) Ibid.

(7) Vicens Vives ; *Cataluña en el siglo XIX*, Barcelona, 1962, p. 86.



en 1842 à un milliard en 1860<sup>(8)</sup>.

A partir de ces données, on suppose, en parlant des causes de la guerre, que l'amélioration économique de l'Espagne à la veille de la guerre, l'encourageait à s'intéresser au Maroc, pour tenir concurrence aux pays de son continent (France, Angleterre) qui projetaient dès lors la pénétration dans le pays.

Les causes de la guerre sont à chercher également dans la situation politique et sociale que connaissait l'Espagne à cette époque.

L'expansion démographique de l'Espagne au XIX<sup>e</sup> siècle et précisément à la veille de la guerre de Tetouan, était importante.

Entre la fin du 18<sup>e</sup> siècle et le milieu du 19<sup>e</sup> siècle, la population espagnole a connu une forte augmentation. (10,5 millions d'habitants en 1797, contre 15,7 millions en 1860)<sup>(9)</sup>.

La majorité de la population travaillait dans l'agriculture, elle représentait 66,7 %<sup>(10)</sup>. Par ailleurs, dans les grands ports méditerranéens et atlantiques, s'était constituée une classe bourgeoise, notamment à Cadix, Séville, Gijón, Bilbao, Valence et Barcelone qui sera le premier port espagnol en 1860 où s'installera une bourgeoisie commerciale et industrielle grâce aux bénéfices du trafic maritime dans l'industrie textile.

On remarque que l'Espagne connut à la fois un développement de la classe bourgeoise à côté d'une vaste population ouvrière qui vivait difficilement. Il est certain que cette dernière classe sociale devait lutter pour améliorer ses conditions de vie et de travail. En outre, la bourgeoisie industrielle accéda au pouvoir représentée par «Madoz», ministre des finances, grâce au soulèvement des ouvriers catalans. Mais cette bourgeoisie ne conserva pas longtemps l'appui populaire. Le 25 Avril 1855, elle imposait une loi qui ordonne la mise en vente des biens communaux, fait qui isole la masse populaire.

En juin 1856, des paysans marchent sur Valladolid et livrent bataille dans les rues plusieurs jours.

Toutefois, la situation intérieure de l'Espagne demeurait fort troublée. C'est pourquoi en 1857, la reine Isabelle congédia «Navarez» qui n'a pas pu aplanir les difficultés du pays. En juin 1858, elle appelait O'Donnell<sup>(11)</sup> pour la présidence du gouvernement.

---

(8) Vicens Vives : op. cit. p. 44.

(9) M.C. Lecuyer. C. Serrano, op. cit. p. 20.

(10) Ibid, p. 29.

(11) Leopoldo O'Donnell, comte de Lucena, puis de Tetouan, était né à Santa Cruz de Tenerife le 12/01/1809. Il mourut à Biarritz le 05/11/1867.

Sa carrière politique fut brillante. Colonel en 1836, Maréchal de camp en 1837. Lieutenant général en 1839. Capitaine général de Cuba en 1844. Sa vie politique commence en 1853. Ministre de la guerre, il devint président du conseil en 1858. Il sera à nouveau président en 1863 et de juin 1856 à juillet 1866.



C'est précisément l'arrivée de ce dernier au pouvoir qui nous intéresse, car cette période a une importance dans le conflit hispano-marocain : il joua un rôle considérable dans la période d'avant-guerre. A son arrivée, la situation générale du pays devait l'obliger à agir de façon à satisfaire l'opinion publique et les besoins des masses populaires.

Dès son arrivée au pouvoir, O'Donnell était convaincu de la nécessité de s'assurer un large appui dans l'opinion publique.

Ainsi, ses démarches ne se font pas attendre. Il fit appel à une politique qui visait l'amélioration de la situation du pays autant au niveau intérieur qu'au niveau extérieur, et par conséquent l'appui populaire ne put lui échapper.

Une large distribution de places lui attache une clientèle administrative. Une politique extérieure active flattant l'orgueil national pourrait lui assurer l'appui national et la reconnaissance de l'armée<sup>(12)</sup>.

Par ailleurs, O'Donnelle manifesta son intention de conquérir le Maroc. On le verra dans la suite des événements ; plus précisément lors du déclenchement de la guerre. Il s'attribua le commandement de l'armée espagnole. Toutefois, s'il bénéficiait à la fois du soutien populaire et de l'armée, il apparaît que son arrivée au pouvoir constitua une des causes non négligeable de la guerre de Tétouan.

Les causes de la guerre ne sont pas à chercher seulement dans la situation intérieure de l'Espagne. Elles sont également nombreuses ailleurs. On essaiera d'en relater quelques unes précises.

On sait que les Musulmans avaient occupé l'Espagne pendant une longue période. Huit siècles d'histoire avaient confondus le destin de l'Espagne et celui du Maghreb. Ces souvenirs et ces contacts interdisaient - comme le précise Jean Louis Miège - aux Espagnols d'envisager toute question marocaine autrement que sous son aspect sentimental ; elle considérait comme un privilège logique de s'introduire de l'autre côté du détroit. Le passé l'y encourageait comme ses ardeurs religieuses.

Effectivement, quand la guerre éclate, la question marocaine vis-à-vis de l'Espagne était posée depuis longtemps. La reine Isabelle la catolica avait écrit elle-même dans son testament la nécessité de conquérir le Maroc et le nord-africain. Et quand il s'agit de la guerre de Tétouan, elle est allée même jusqu'à proposer ses bijoux pour financer l'expédition. Ces raisonnements d'après-elle portaient sur les droits religieux que l'Espagne avait sur le Maroc.

\* \* \*

Les historiens de leur côté n'ont pas hésité à exprimer quelques intentions de leurs écrits.

---

(12) Jean Louis Miège, *Le Maroc et l'Europe : 1830 - 1894*, T : II (l'ouverture), Paris, 1961, p. 354.

Santiago Alonso Valdespino, souligne que l'intervention militaire est un devoir auquel l'Espagne ne peut manquer, d'autant plus que l'occupation de l'Algérie par la France est ressentie comme un affront pour ne pas avoir su employer ses armées dans cette noble entreprise. Il ajoute :

«... Pour le peuple espagnol, il sera plus dégradant de ne pas pouvoir réaliser la civilisation du Maroc, qu'il est humiliant de supporter une garnison anglaise à Gibraltar...»<sup>(13)</sup>.

José Marquez de Prado écrit quant à lui :

«... Si l'on reconnaît l'importance maritime immense de la place de Ceuta et l'immense avenir qu'elle offre à l'Espagne comme base militaire, commerciale et maritime sur le continent africain, il faut donc à tout prix étendre les limites de cette possession, et l'heure est maintenant propice à l'exécution d'un tel projet si intéressant, sans que l'on puisse taxer notre noble nation espagnole d'égoïsme ou de cupidité...»<sup>(14)</sup>.

Il relève de cela que la conquête du Maroc paraissait aux Espagnols de plus en plus un devoir qu'il fallait accomplir.

Ainsi la situation générale du Maroc a une importance dans les causes indirectes de la guerre de Tétouan. On sait que les conséquences de la bataille de l'Isly étaient très lourdes pour le Maroc. Le pays subissait dès lors des crises continues à tous les niveaux. L'armée était défaite et souffrait d'une grande faiblesse. Elle manquait de munitions.

En un seul mot, le Maroc était inférieur à l'Espagne sur le plan militaire. L'Espagne y trouva l'occasion propice pour déclencher la guerre.

Les relations hispano-marocaines pendant la période d'avant-guerre sont à prendre en considération pour connaître les facteurs et événements qui ont préparé le terrain du conflit.

Globalement, les relations entre les deux pays durant le 19<sup>e</sup> siècle furent pacifiques, servies en cela par des relations diplomatiques mises en plan dès le milieu du 18<sup>e</sup> siècle.

Ainsi, toute une série d'actes et traités furent passés, tels que le traité de paix et de commerce signé le 28 Mai 1667 à Madrid qui fut respecté. Puis le traité d'amitié et de commerce signé le 30 Mai 1780 à Arranjuez, et enfin celui de Meknès le 24 Août 1799 qui consolida d'une façon ou d'une autre le processus de relations engagées entre les deux pays pour la première moitié du 19<sup>e</sup> siècle. Ce dernier traitant de l'amitié, du commerce, de la navigation et de la pêche, fut assez bien respecté bilatéralement, du moins pendant les trente années qui suivirent la signature.

(13) Santiago Alonso Valdespino, *La question du Maroc examinée au point de vue espagnol et européen*, traduction Lamartinière, Paris, 1859, p. 52.

(14) José Marquez de Prado ; *Historia de Ceuta*, Madrid, 1859, p. 243.



C'est à partir de 1830 que les relations pacifiques se dégradèrent à la suite de l'occupation de la France en Algérie. La nouvelle emprise française au Maroc suite à la signature de la convention de Lalla Magnia 1845 après la bataille de l'isly, et l'intérêt que les britanniques portaient eux aussi à la situation, qui finira par la signature du traité de 1856 entre le Maroc et l'Angleterre, tous ces faits faisaient craindre aux Espagnols de perdre leur pouvoir dans les présides, (Ceuta, Melilla) et leur influence dans le Maroc.

A cet égard, L'Espagne entreprit plusieurs démarches pour faire concurrence à la France et l'Angleterre. Elle signa avec le Maroc le traité de Larache (1845), occupa les îles zafarines et réussit enfin à signer la convention de 1859 à Tetouan concernant la juridication de Melilla et les mesures nécessaires à la sécurité de ses présides sur la côte africaine.

Ces démarches n'ayant pas abouti, L'Espagne devait agir autrement, sans doute par un conflit armé, à travers la guerre de Tétouan en 1859 - 1860.

### LES CAUSES DIRECTES :

Les causes directes de cette guerre sont celles que citent la majorité des historiens qui traitent ce sujet.

On a vu auparavant que certains incidents sont survenus à la frontière de Ceuta et ont été le point de départ des événements qui ont finalement mené les deux pays au conflit, puis aux combats armés<sup>(15)</sup>.

Les premiers événements sont ceux du 10 Août 1859, lors dequels les Marocains attaquèrent et démolirent les premières constructions espagnoles à la frontière de la ville de Ceuta.

Le gouverneur de Ceuta évoque ces événements dans son communiqué qu'il a adressé au ministère de la défense espagnole le lendemain des attaques effectuées par les Angers.

On extrait de ce communiqué<sup>(16)</sup> que les Marocains ont causé plusieurs dommages au même endroit. Néanmoins, la question fut réglée assez rapidement entre le gouverneur de Ceuta et le Caïd responsable des territoires voisins de Ceuta. Ce dernier vint personnellement à l'endroit précis accompagné de quelques habitants de la région qui remirent tout en ordre<sup>(17)</sup>.

Mais les événements ne se sont pas arrêtés à ce point. Le 12 Août 1853, le Consul général de l'Espagne à Tanger Don Juan Blanco Del Valle écrit au Naïb du Sultan Mohamed El Khatib une lettre dans laquelle elle accuse sévèrement les récentes attaques marocaines et sollicite réparation.

---

(15) voir page 2.

(16) Le premier communiqué du gouverneur de Ceuta adressé au ministre de la guerre le 11 Août 1859.

(17) Extrait du même communiqué.



«... Après avoir ordonné au gouverneur de Ceuta d'arrêter les travaux de construction, j'ai appri que les «Angera» ont attaqué et démoli ces constructions... Il demeure nécessaire et absolument nécessaire que les personnes qui ont participé à ces attaques soient amenés à la ville de Ceuta pour subir les châtimement suprême, cela doit être effectué sous les yeux de l'autorité militaire de S.M. la reine...»<sup>(18)</sup>.

Il ressort de cette lettre que le consul général de l'Espagne parle d'un certain ordre qu'il a donné au gouverneur de Ceuta afin d'arrêter les travaux entrepris à la frontière

L'arrêt de ces travaux, dit-il avait été exigé par Mohamed el Khatib. Ainsi en analysant ces données, on peut tirer certaines conclusions.

1. Soit que le gouvernement marocain avait une attitude opposée aux nouvelles constructions espagnoles, ce qui explique l'intervention de l'Espagne pour arrêter ces chantiers.
2. Soit que les habitants de la tribu «Angera» s'étaient déjà expliqué oralement avec Mohamed el Khatib en lui exprimant leur opposition à ces travaux, mais une réponse définitive ne leur a pas été donnée, ils attaquèrent les constructions.

En outre, on peut émettre une autre supposition à cet égard : or, avant que Juan Blanco ne s'adresse par écrit à El Khatib, il envoya au ministre de l'état à Madrid un telegramme dans lequel on apprend que l'ordre donné au gouverneur de Ceuta n'avait pas pour but de satisfaire la demande d'El Khatib, mais de ne pas compromettre plutôt les pourparlers en cours concernant l'élargissement des territoires de la ville de Melilla.

Un simple extrait du telegramme le prouve nettement ;

«... Si l'Espagne répond avec les armes aux récents événements, cela impliquerait des conséquences plus graves qui toucheront aux pourparlers en cours sur la ville de Melilla qui ne tarderont pas à être achevés. C'est pour cela que j'ai ordonné au gouverneur de Ceuta d'arrêter les travaux...»<sup>(19)</sup>

Quoiqu'il en soit, l'Espagne comme le déclare Juan Blanco, n'était pas prête à laisser passer ces événements sans réagir. Elle demandait la punition des coupables dans la ville de Ceuta, et sous les yeux des Espagnols.

A Mèknes, le sultan Moulay Abderrahmane était très malade et entouré de médecins étrangers. Nous verrons par la suite qu'il ne tardera pas à mourir. Cependant, les choses s'aggravèrent encore, lorsque dans la ville de Ceuta, d'autres incidents survinrent de nouveau.

Un grand nombre de Marocains s'est présenté près de Ceuta. Les assaillants ont enlevé les plaques qui désignaient les frontières, mais les forces espagnoles

(18) Lettre du consul général de l'Espagne. Don Juan Blanco à Mohamed El Khatib le 12 Août 1859.

(19) Telegramme de Juan Blanco à son ministre d'état à Madrid le 12 Août 1859.

les ont obligés à prendre la fuite. Toutefois, il ont réussi à prendre quelques armes déposées dans ces lieux<sup>(20)</sup>. Il est probable que cette dernière attaque - d'après le communiqué - avait pour but, la prise des armes espagnoles pour s'en servir dans leurs futures attaques. Or, les «Angera» ne possédaient pas d'armes officiellement. Le conflit va prendre une tournure plus grave quand ils utiliseront ces armes.

Le 8 Septembre, les «Angera» revinrent vers Ceuta et tiraient sur la ville<sup>(21)</sup>.

Les événements du 8 Septembre 1859 furent les derniers car l'Espagne avait commencé une semaine auparavant à négocier avec le Maroc par l'intermédiaire de son consul général à Tanger.

Ce dernier adressa le 5 Septembre à El Khatib une lettre dont nous tenons à présenter quelques passages.

«... Le gouvernement de S.M. La Reine tient à avoir les indemnités nécessaires, égales à la valeur de ces insultes et satisfaisantes pour la nation qu'elle dirige...»<sup>(22)</sup>.

Evoquant les conditions de l'Espagne, Juan Blanco précise :

1. Que les armes espagnoles soient amenées à leurs place, et que les soldats du sultan viennent saluer le même geste sur le même lieu.
2. Que les habitants voisins de Ceuta, ceux considérés coupables de ces événements soient amenés dans la ville de Ceuta pour subir un châtement suprême sous les yeux des Espagnols.
3. L'Espagne exige une déclaration officielle qui lui autorise toutes sortes de constructions susceptible de garantir la sécurité et la paix de la ville de Ceuta.
4. Il faut prendre toutes les précautions nécessaires pour garantir la paix entre les deux pays.

Par ailleurs, Juan Blanco accordait au Maroc un délai de dix jours pour satisfaire ces conditions<sup>(23)</sup>.

L'attitude de l'Espagne devient cette fois-ci claire. La situation ne peut être réglée sans que soient satisfaites les conditions qu'elle a imposées.

Par conséquent, la situation devint grave. Du côté marocain, une satisfaction totale aux conditions imposées paraissait difficile à réaliser, d'autant plus que ces conditions elles mêmes n'étaient pas d'une simplicité évidente. Le fait de conduire les coupables jusqu'au centre de Ceuta pour qu'il y soient punis sous les yeux des Espagnols était pour le gouvernement marocain un dilemme. Dans le cas où une telle décision serait prise, il fallait évidemment s'attendre à d'autres

(20) Deuxième communiqué du gouverneur de Ceuta envoyé le 22 Août 1859.

(21) Communiqué publié dans le journal officiel espagnol de 9 Septembre 1859.

(22) Lettre du consul d'Espagne à Mohamed El Khatib le 5 Septembre 1859.

(23) Ibid.



mouvements de la part de cette tribu, dont les conséquences seraient lourdes autant pour les Marocains que pour les Espagnols. En plus Juan Blanco fixait dans sa récente lettre un délai de dix jours.

Que devait faire le Maroc face à cette situation délicate ? et comment allait-il répondre aux demandes de l'Espagne ?

Le 9 Septembre, El Khatib répond à Juan Blanco en écrivant :

«... L'Espagne reconnaît l'article 15 du traité de 1799... Le gouverneur de Ceuta doit être, de votre avis et de l'avis de l'Europe le responsable unique de cette crise. Par contre, nous avons adressé vos demandes à notre Sultan et attendons la réponse... Le Sultan se chargera de punir les coupables très sévèrement... Nous vous prions de prolonger le délai fixé...»<sup>(24)</sup>.

Le contenu de la lettre de M. El Khatib ne satisfait pas entièrement les exigences espagnoles. Bien au contraire, El Khatib consacrait une bonne partie de sa lettre au gouverneur de Ceuta qu'il considérait comme l'unique responsable.

On suppose que El Khatib n'est pas clair quand il parle de l'article 15 du traité de 1799. Ce dernier offrait directement à l'Espagne le droit d'infliger un châtiment suprême aux habitants voisins des présides en cas de nécessité.

Une certaine contradiction paraît donc évidente dans la lettre de El Khatib. En outre, lorsqu'il parle de la punition des coupables, il précise que le sultan se chargeait lui-même de les punir, alors que l'Espagne avait exigé que ceux-ci soient amenés à Ceuta pour subir leur châtiment.

Mais le jour même où El Khatib écrivait sa lettre, le sultan Moulay Abderrahmane décéda. C'est pourquoi El Khatib se trouvait dans l'obligation de réécrire à Juan Blanco.

«... Nous vous prions de nous prolonger le délai jusqu'à ce que le fils du sultan accède officiellement au pouvoir...»<sup>(25)</sup>.

Quand El Khatib écrivait cette lettre, il n'y avait pas encore de successeur sur le trône du Maroc. Moulay Mohamed était désigné comme nouveau Sultan à Marrakech, Fès et Meknès. A Tétouan où se trouvait El Khatib, rien n'était encore décidé. Par conséquent ce dernier n'était pas en position de poursuivre les négociations avec l'Espagne.

En outre, l'arrivée d'un nouveau sultan sur le trône du Maroc ne garantissait pas à El Khatib le maintien de son poste de «Naïb» du Sultan à Tétouan. Cependant Juan Blanco répondait affirmativement à sa lettre :

«... Le gouvernement de S.M. la reine ayant envisagé les circonstances particulières que traverse votre pays, vous a prolongé le délai de vingt

---

(24) Lettre de Mohamed El Khatib à Juan Blanco le 9 septembre 1859.

(25) Lettre de El Khatib à Juan Blanco le 9 Septembre 1859.



jours...»<sup>(26)</sup>.

Mohamed El Khatib s'est rendu compte de l'insuffisance du nouveau délai (20 jours) et se trouvait par conséquent dans l'obligation de s'adresser une nouvelle fois au consul général de l'Espagne.

«... Nous supposons que 20 jours ne seront pas suffisants. Le Sultan Sidi Mohamed ne nous a pas encore contacté...»<sup>(27)</sup>.

Par ailleurs, l'idée de faire appel aux armes préoccupait déjà l'esprit du gouvernement espagnol. Or, ce dernier, avant de donner réponse à la demande de El Khatib, a chargé son ministre des affaires étrangères d'adresser une lettre aux ambassadeurs espagnols dans tous les pays européens. Le projet était clair. L'Espagne veut propager l'affaire marocaine à l'échelon européen, d'une part pour justifier son attitude, et d'autre part pour gagner l'accord de l'Europe lorsqu'elle entrera en guerre avec le Maroc.

A ce niveau, le ministre espagnol écrit clairement :

«... L'Espagne n'étant pas l'auteur du conflit, son appel aux armes ne serait qu'un devoir que la nation oblige...»<sup>(28)</sup>

\* \* \*

Mais en même temps que les pourparlers hispano-marocains étaient en vigueur, d'autres négociations s'engageaient entre l'Espagne et l'Angleterre. Le but en était clair. L'Espagne cherchait à avoir l'accord de certains pays européens pour entrer en guerre avec le Maroc. Etant donné que l'Angleterre était le pays le plus concerné, son ministre John Drummond Hay présida le déroulement des négociations.

Les pourparlers furent très longs, mais à partir de quelques archives, nous pourrions présenter un résumé afin de comprendre à quel point le rôle de l'Angleterre était primordial dans la guerre entre le Maroc et l'Espagne.

L'importance stratégique du détroit de Gibraltar, son importance également au niveau maritime et commercial, sa situation géographique non loin de Ceuta et Melilla, tous ces facteurs obligeaient l'Angleterre à contrôler la moindre démarche de la part de l'Espagne à l'égard des territoires marocains.

Au moment même où l'Espagne allait prendre la décision de déclarer la guerre au Maroc, l'Angleterre envoyait sa flotte aux environs de Gibraltar. Elle prétend que son but n'était pas d'empêcher l'Espagne de punir les coupables des événements de Ceuta, mais de protéger le détroit<sup>(29)</sup>.

(26) Lettre de Juan Blanco à El Khatib le 12 Septembre 1859.

(27) Lettre de Juan Blanco à El Khatib le 15 Septembre 1859.

(28) Lettre du ministre des affaires étrangères (espagnole) à ses ambassadeurs dans les pays européens.  
Le 24 Septembre 1859.

(29) Lettre du ministre des affaires étrangères à M. Andre Buchanan (ministre anglais) le 10 Septembre 1859.

L'Espagne évidemment n'acceptait pas une telle démarche avec beaucoup de tranquillité. Elle savait bien que la présence d'une telle force à l'endroit de Gibraltar pouvait gêner facilement ses projets vis-à-vis du Maroc. C'est pourquoi elle n'a pas hésité à entrer en négociation avec l'Angleterre.

Le ministre d'Espagne M. Saturnino Calderon déclare au gouvernement de Londres : «... S.M. La reine catholique de l'Espagne ne tolérerait en aucun cas la moindre intervention étrangère dans les affaires qui concernent son pays...»<sup>(30)</sup>.

La question ayant été claire entre les deux pays, il ne leur restait qu'à se mettre d'accord sur la question marocaine. Cependant, ceci s'avérait plus difficile qu'on l'aurait cru, car l'Angleterre a présenté certaines propositions pour retarder les intentions espagnoles. Le ministre anglais Sir Buchanan disait clairement à M. Saturnino Calderon que «l'Angleterre était prête à jouer le rôle d'intermédiaire en vue de résoudre le problème entre le Maroc et l'Espagne...»<sup>(31)</sup>.

Il est certain que la moindre intervention de l'Angleterre dans cette affaire constituait pour l'Espagne un obstacle qu'il fallait écarter à tout prix.

En réponse à la proposition de l'Angleterre, le gouvernement de Madrid refusait catégoriquement que celle-ci puisse avoir un rôle dans l'affaire<sup>(32)</sup>. Pour arriver à convaincre l'Angleterre de la légitimité de son attitude envers le Maroc, l'Espagne s'appuya sur les graves préjudices qu'elle a subi de la part des tribus marocaines :

«... La piraterie dans les présides du Nord, les attaques des frontières de la ville de Melilla, le traité de paix signé à Tetouan qui n'a pas été respecté et enfin les derniers événements survenus dans la ville de Ceuta...»<sup>(33)</sup>. Elle expliqua que si elle agissait pacifiquement envers le Maroc, cela porterait atteinte à l'honneur du pays.

Il ressort de ces déclarations que l'Espagne voulait écarter l'Angleterre pour pouvoir mettre à exécution ses projets. D'ailleurs M. Saturnino, déclara ouvertement au ministre anglais que l'Espagne ne pourrait pas accepter qu'un autre pays intervienne dans le conflit hispano-marocain.

Quelle a été donc la réaction de l'Angleterre vis-à-vis des déclarations espagnoles. Devait-elle laisser l'Espagne agir seule ?

Dans une lettre qu'il envoya à M. Saturnino, le ministre anglais explique plus fermement que jamais en écrivant : «... Le gouverneur de Ceuta ayant joué le rôle principal dans le conflit avec le Maroc, c'est à lui qu'incombe la responsabilité des événements survenus...» Il ajoute encore : «... Si ces simples

---

(30) Ibid.

(31) Lettre de Sir. Buchanan au ministre espagnol le 11 Septembre 1859.

(32) Lettre de M. Saturnino Calderon à Sir Buchanan le 12 Septembre 1859.

(33) Lettre de m. Saturnino Calderon à S.R. Buchanan le 26 septembre 1859.



événements sont considérés comme une raison suffisante pour occuper les points stratégiques sur la côte marocaine, l'Angleterre de sa part doit lutter pour défendre ses territoire à Gibraltar...»<sup>(34)</sup>

L'Espagne reçut ces déclarations avec beaucoup de crainte, d'autant plus que le ministre anglais exigeait un engagement écrit, dans lequel elle devait préciser le but exact de son intervention au Maroc.

«... Que s'il y aurait une occupation de Tanger, ceci doit être temporaire et ne se prolongerait pas au-delà de la date fixée par un traité de paix entre les deux pays»<sup>(35)</sup>.

Les garanties exigées de la part de l'Angleterre concernaient donc l'expansion territoriale que l'Espagne envisageait au Maroc. Elle craignait plus précisément une présence espagnole à Tanger, dont l'importance stratégique et commerciale est aussi considérable que celle de Gibraltar. Elle voulait donc faire échouer toute tentative européenne de s'installer dans un tel endroit.

Mais l'Espagne ne devait pas avouer ses réelles intentions avant le déclenchement de la guerre, or l'Angleterre aurait employé tous les moyens de défense pour l'empêcher. Et l'on sait la différence entre les deux pays au niveau de l'armement.

Afin de tranquilliser l'Angleterre, l'Espagne essayait de répondre aux exigences de celle-ci en disant que : «... ses intentions ne visent pas une expansion territoriale dans le Maroc...»<sup>(36)</sup>. Par ailleurs, l'Angleterre n'était pas satisfaite de cette réponse. Elle attendait certainement un engagement portant sur des garanties définitives. C'est à partir de ce moment qu'elle commence à menacer clairement l'Espagne en déclarant : «... qu'il est très logique d'utiliser la force au cas où nous ne recevons pas de l'Espagne toute les garanties...»<sup>(37)</sup>.

L'Espagne se trouvait donc dans une situation difficile. Elle devait ainsi choisir entre deux possibilités :

1. Soit elle prenait la décision finale pour combattre le Maroc, dont le résultat est prévisible : elle sortirait gagnante d'une guerre avec un pays vraisemblablement inférieur.
2. Soit elle agissait sans présenter les garanties à l'Angleterre, et le résultat est également prévisible : elle devait affronter l'Angleterre, puissance nettement supérieure.

Par conséquent, elle choisit la solution convenable, celle qui lui permit à la fois d'arrêter le conflit avec l'Angleterre et de pouvoir intervenir au Maroc.

---

(34) Lettre du ministre anglais Sir Buchanan à M. Calderon le 19 Septembre 1859.

(35) Lettre de Sir Buchanan à M. Calderon le 22 septembre 1859.

(36) Lettre de D. Calderon à Sir Buchanan le 6 Octobre 1859.

(37) Lettre de Sir. Buchanan à M. Calderon le 6 octobre 1859.



Elle adressa finalement une lettre à l'Angleterre dans laquelle elle exprima toutes les explications et garanties que cette dernière avait tant attendues.

«... Le gouvernement de S.M. la reine catholique s'engage à n'occuper aucun point du détroit susceptible d'influencer votre marine marchande dans cet endroit. Ceci ne doit être entouré d'aucun sens de doute de votre part...» ... Les intentions de notre gouvernement ne dépassent pas le but de faire régner la paix dans la région de Ceuta...»<sup>(38)</sup>.

Ce fut de cette manière que l'Espagne réussit à régler les multiples problèmes qui la liaient avec l'Angleterre vis-à-vis de la question marocaine.

Dès que cela fut réalisé, le consul général de l'Espagne à Tanger ne s'empêcha pas de déclarer à El Khatib que l'Espagne a décidé de faire appel aux armes, et que cette décision demeure définitive et unique...

---

(38) Lettre de Calderon à Buchanan le 21 octobre 1859.

# DIARIO DE AFRICA, DEL 20 DE AGOSTO DE 1953, AL 10 DE ABRIL DE 1956

Mohamed BOUISSEF REKAB

## PROLOGO

Hay en Marruecos una larga lista de periódicos que sirvió para darle realce a la lucha de la Resistencia en todo el Estado en tiempos del Protectorado, tanto escritos en árabe como en lenguas extranjeras ; como por ejemplo los que aparecían en Rabat : el semanario en francés **Jeune Maghrébin**, o el diario en lengua árabe **Al-Alam** ; en Tánger, se publicaba **Minbar Achaab**, en árabe ; y sobre todo y lo que aquí nos interesa, es el periódico en lengua árabe y que se publicaba en Tetuán : **Al-Umma**.

Se publicaban otros órganos en otras latitudes del territorio nacional, que aquí no nos interesa mencionar, a pesar de su gran importancia en el país, y que reivindicaban la unidad territorial, la independencia de Marruecos, la vuelta al Trono de SM Mohamed V, los derechos inalienables del pueblo marroquí, etc...

Situémonos, pues, en Tetuán, y estudiemos el caso de la prensa.

El diario **Al-Umma**, que era un auténtico portavoz del nacionalismo marroquí y de la Resistencia armada contra el ejército francés, se publicaba en Tetuán en los momentos más difíciles de la historia contemporánea de Marruecos : durante la destitución de SM Mohamed V por parte de Francia y durante su exilio, junto a su augusta Familia, en Madagascar.

Junto a este diario en árabe, había también otro, que aunque fuera el portavoz de las autoridades españolas en la Zona Norte y se publicara en español, sirvió mucho para concienciar a la gente de los acontecimientos que iban fraguándose en la Zona francesa : se trata del **Diario de Africa**.

Los periódicos que se publicaban en lengua francesa en Rabat, Tánger, Casablanca, Fez, etc..., eran producto de nacionalistas marroquíes, por lo que su línea era la misma que la de los de expresión árabe ; mientras que **Diario de Africa**, de expresión española y mantenido por las autoridades españolas, publicaba noticias de gran importancia para los marroquíes de expresión española, en contraposición a los periódicos publicados en la Zona francesa

y que eran portavoces de las autoridades galas, y que se dedicaban a hacer propaganda colonialista.

Por eso nuestra intención es que **Diario de Africa** de Tetuán, que se publicaba en el momento de la destitución de SM el Rey Mohamed V - que en Gloria esté -, y que siguió de cerca su estancia en Córcega y después en Madagascar, y que habló de las acciones de la Resistencia marroquí durante todo el exilio de nuestro llorado monarca, sea considerado un periódico de vanguardia.

**DIARIO DE AFRICA**, del 20 de agosto de 1953, al 10 de abril de 1956

Una de las fechas más señaladas en nuestro país, y que la Historia jamás podrá dejar de lado, es el día 20 de agosto de 1953. Este día marca el punto más alto de la parábola colonialista, que tiene su punto de partida en 1912. A partir de este día, comienzan a fraguarse los cauces de la Independencia marroquí, para finalizar el día 10 de abril de 1956 con la unión de las dos Zonas - la española y la francesa -, bajo el augusto Trono Alauita, independiente y libre de toda tutela extranjera.

Esta unión tendría lugar cuando SM el Rey Mohamed V, que Dios tenga en Su Santo Seno, cortara la cinta que simbólicamente separaba en Arbaua, las dos citadas Zonas.

Entre una y otra fecha, van a pasar un sinfín de acontecimientos que van a mostrar a un Rey y a su pueblo unidos profundamente, tan unidos, que juntos, van a conseguir devolver la Independencia a Marruecos.

En la Zona Norte, donde España hubiera podido impedir que llegaran las noticias de la otra parte, la gente se iba enterando de todo lo que acontecía, gracias - por una parte - a lo que **Diario de Africa** aportaba como noticias de última hora. Este periódico de expresión española, sirvió en gran medida para que la gente del Norte se fuera poniendo al día respecto a la situación en la Zona francesa.

Problemas en Irán : Mossadeq derrocado por el ejército ; Grecia está viviendo momentos de angustia a causa de los terremotos en el mar Jónico, Francia está sumida en un caos laboral : huelga general en el país.

Estas y muchas más noticias del mundo llenaban diariamente las páginas del **Diario de Africa**. Todo marchaba normal - dentro de lo que cabía - bajo el protectorado español, hasta que el día 20 de agosto en su última página, se anunciaba «La situación en el Marruecos francés». Se aclara en el artículo que se «...hará un intento final para disuadir al Bajá de Marrakech, Sidi Tahami El Glaui, de cualquier nueva acción que pudiera emprender.»

Una persona mal informada quedaría a oscuras ante tales palabras. No se explicaba con detenimiento lo que pasaba exactamente. lo que sí se llegaba a vislumbrar era que en la parte que ocupaba Francia, las cosas iban mal. El que estaba al corriente de la simbiosis que siempre existió, simbiosis entre SM



el Rey Mohamed V y los nacionalistas, sabía perfectamente lo que se quería indicar con esta noticia. El día 21 de agosto, y en la Primera Página y a tres columnas, se anunciaba : «Ha sido proclamado Sultán de Marruecos Sidi Mohamed Ben Mulay Arafa».

Para el marroquí de la calle en Tetuán, esta noticia era algo así como decirle que había perdido a uno de sus seres más queridos ; veamos como : Mohammed V era considerado el IMAM DE LOS CREYENTES y el único representante del Marruecos indivisible ; que ahora le digan, sin más explicaciones que «El gobierno francés ha reconocido oficialmente la destitución del Sultán», le parecía como algo que necesitaba más explicaciones. Se anunciaba además que «... no se celebrará la Pascua del Aid El Kebir en Rabat.» : esto mostraba la gravedad del caso.

El 22 de agosto, también en la Primera Página, se anunciaba que la ciudad de Casablanca, principal centro del Movimiento nacionalista «Istiqlal» y donde radicaban en su mayor número los partidarios del Sultán desposeído, «está absolutamente tranquila, lo mismo que el resto del país».

Tranquila Casablanca ?  
Que los partidarios de SM el Rey Mohamed V  
estaban ubicados en Casablanca únicamente ?

Poco a poco, el que siguió las noticias con atención, se fue dando cuenta del descontento general en todo Marruecos por este crimen político de Francia.

Cómo entender pues que hubiera tranquilidad en todo el territorio nacional si «... en todo el país se ha implantado un toque de queda?»

Era natural entender que estas medidas de seguridad francesas, se tomaron por miedo a lo que fuera a hacer el movimiento nacionalista marroquí, que en ningún momento aceptó la separación de SM el Rey Mohamed V de su Trono legítimo.

En el día 23 de agosto, en la página 7, se va a hablar de «... la situación en el Marruecos francés» y se alude a la acción mártir de los nacionalistas marroquíes, pero de tal forma que, a ojos de un lector mal informado de aquella época, aparezcan estas operaciones como algo demencial. En un pequeño inciso, viene una información que dice : «Agente asesinado : Rabat, 22. - A pesar de las precauciones tomadas por la policía y el ejército, un agente de policía que Vigilaba un puente en Casablanca fue asesinado a puñaladas por la espalda. El agresor fue muerto a tiros por varios policías que contemplaron el salvaje asesinato. Otro policía resultó herido en una pierna.» (EFE).

A pesar de la ambigüedad de la noticia y de no querer mostrar a los marroquíes como a gente que defendía su propia tierra, los que daban la noticia los asemejaban a simples salvajes ; esta noticia le muestra al hombre de la calle de Tetuán - y resto de la Zona bajo tutela española -, que los valientes nacionalistas marroquíes estaban luchando por la restitución de SM el Rey Mohamed V en el Trono Alauita.

Por su parte Washington, al principio, no reconoció a nadie que no fuera SM Mohamed V, ya que Estados Unidos mantenía «... relaciones diplomáticas con el Sultán de Marruecos en calidad de Soberano.», y esto es muy importante, ya que de esta forma Sidi Mohamed Ben Yusef, se reconocía tácitamente como el auténtico y legítimo Rey de Marruecos, que tenía poder para tratar de asuntos de Estado.

A partir del 25 de agosto, las informaciones comenzaron a hablar de sabotajes a trenes, encarcelaciones por manifestaciones, de coches apedreados, de ataques a la policía y al ejército franceses. En Tetuán la gente comienza a vivir la angustia de sus hermanos bajo el yugo francés. No importaba que las informaciones vinieran sin explicaciones, sin decir que se trataba de un pueblo amante de su Rey, que deseaba demostrar su inconformismo con los colonialistas que lo destituyeron de su Trono.

El 26 de agosto, un miércoles, España expresa su disconformidad con la actuación de Francia, no son palabras directas, pero al mencionar los «... graves acontecimientos» que tenían lugar en la Zona francesa, el Alto Comisario español, teniente-General García-Valiño, se duele de que Francia no les haya consultado antes de obrar de la forma en que lo hizo.

La prensa tetuaní, de expresión española, a la orden de las autoridades españolas, no podía más que repetir lo que se le ordenaba : se intentaba fortalecer la posición española al denunciar la acción francesa.

Por su parte, el representante legal de SM el Rey Mohamed V, SA el Jalifa Mulay El Hasan Ben El Mehdi Ben Ismail, con soberanía permanente delegada del Rey de Marruecos, mostró su dolor y consternación públicamente por los «... sucesos terribles que han levantado en vilo a todo Marruecos, de un extremo al otro, y cuyo eco ha resonado en toda tierra donde se oiga la voz de la libertad y en cuyo cielo floten las banderas del derecho y de la democracia».

En la Página dos, del periódico del 27 de agosto, hay un comentario muy significativo que en cierta medida explica el descontento español con la acción francesa ; dice : «Que la conmoción de los acontecimientos ha llegado a todos los confines de Marruecos reflejando una tristeza y un pesar tanto por la separación brusca de su soberano como por las víctimas producidas (...) es algo irrefutable».

El lector tetuaní medio, bulle y desea saber más, desea conocer los mínimos detalles de este dramático suceso que estaba empañando toda la nación marroquí de sangre mártir.

La contradicción brillaba en las noticias que el periódico daba y la posición que España quería mostrar : las autoridades españolas se referían a los mártires marroquíes como a terroristas ; una noticia decía : «34 terroristas dentro del palacio del Sultán». La policía ha registrado hoy el palacio del Sultán y ha encontrado a treinta y cuatro terroristas escondidos en los apartamentos de la servidumbre. En Mequinez han sido detenidos ciento diez personas acusadas de haber cometido actos subversivos en los últimos días.



El único acto de violencia registrado en las últimas 24 horas ha sido la explosión de un pequeño artefacto de fabricación casera en Casablanca».

Es de señalar que el periódico repetía las noticias que le llegaban en forma de despachos - firmadas por otras agencias -, pero el hecho de que no diera ninguna aclaración, indicaba su conformidad con lo que se decía.

El drama marroquí ya no se limitaba a Casablanca y Rabat ; los nacionalistas se dejaban notar en todos los rincones del país. Además, el propio Ministro de Asuntos Exteriores francés, Georges Bidault, reconocía un «... agitado protectorado marroquí.» ; donde «... los habitantes se resisten a aceptar los acontecimientos» y donde «... las poblaciones europeas se muestran recelosas.». El tema de Marruecos llega a trascender a nivel internacional, y los países asiáticos y árabes pidieron al Consejo de Seguridad que se reuniera en Sesión especial para estudiar la destitución del Soberano legítimo de Marruecos por parte de las autoridades francesas.

El 29 de agosto se afirmaba que «En las ciudades marroquíes reina la calma. Sigue en vigor el toque de queda, desde las 0 horas 30 mn hasta las 5 horas».

El primero de septiembre de 1953, y cuando se estudiaba en el Consejo de Seguridad si se incluía o no la cuestión de Marruecos, el delegado francés detuvo las discusiones durante media hora por estar entre la delegación de Pakistán Ahmed Balafrech, Secretario General del Partido Nacionalista de Marruecos ; esta información asegura que se demostró que Balafrech había presentado oficialmente sus credenciales como miembro de la delegación pakistaní.

Sobre el territorio nacional, fueron detenidos Abdel-lah ben Abdel-lah, «jefe del «Istiqlal» en Uxda y otros varios afiliados al proscrito partido».

Por otra parte, en Casablanca los incendios se recrudecían y a nivel nacional seguían los sabotajes. Los nacionalistas no cejaban en su empeño de imponerse a los ojos del mundo.

Golpe espectacular en París : dimite François Mitterand, Ministro de Estado para Asuntos Europeos, como protesta por la política de su país seguida en Túnez y Marruecos. Esta noticia la da el **Diario de Africa** en su número 2412 del 4 de septiembre de 1953 ; ofrece asimismo la noticia de que la petición asiático-árabe de estudiar el tema de Marruecos en el Consejo de Seguridad fue rechazada. Votaron a favor : Unión Soviética, Líbano, Pakistán, Chile y China Nacionalista ; votaron en contra : Estados Unidos, Francia, Gran Bretaña, Colombia y Dinamarca ; se abstuvo : Grecia.

Mientras tanto las operaciones armadas seguían sucediéndose en el país. Tánger conoce agitaciones sociales pro-SM el Rey Mohamed V.

Se anuncia que los franceses pensaron llevarse a SM el Rey Mohamed V a otro lugar por considerar que «La isla está demasiado cerca de Marruecos y París teme que los que no han retirado su reconocimiento a Sidi Mohamed Ben Youssef, intenten entrar en contacto con él». Los que no han retirado su



reconocimiento a Sidi Mohamed V, dice la noticia, queda implícito el reconocimiento de que los marroquíes de todas las esferas sociales estaban inquietos y que no reconocían para nada las acciones totalmente ilegales de Francia. Además, el 12 de septiembre se comunicaba que un hombre quiso «asesinar» a Ben Arafa. Cuenta la noticia la Agencia «Reuter», por lo que la palabra «asesino» - cuando se hablaba de un marroquí -, era normal.

Se trataba del mártir Al-lal ben Abdel-lah, que la historia va a perpetuar para siempre jamás como el símbolo de amor y fidelidad al monarca Sidi Mohamed Ben Yussef, Rey Legítimo y único garante de la unidad nacional.

La noticia fue un aliciente más para que el conjunto del reino de Marruecos, siguiera con sus esperanzas de volver a ver a su Rey en el sitio que le correspondía ; el hecho de que se dijera en la noticia de que Allal ben Abdel-lah no fuera más que un «terrorista» aislado, no sirvió para desviar a los marroquíes de la verdad : Marruecos entero, del Sur al Norte, y del Este al Oeste, había tomado conciencia de la injusticia francesa, y se encaminaba a una guerra feroz y sin cuartel contra las autoridades colonialistas.

Sigue a nivel internacional el apoyo moral y político a la posición nacionalista marroquí y contra el crimen francés de alejar a SM el Rey Mohamed V de sus súbditos : Pakistán ataca violentamente a Francia en la ONU ; la delegación gala abandona la sala de actos.

El Gobierno español, por boca de su Alto Comisario en Tetuán, el Teniente-General García-Valiño, interviene oficialmente ante «El tema de Marruecos» y dice que «La destitución y el confinamiento del Sultán de Marruecos obligaba a la consulta y el acuerdo de España», ya que debía tenerse en cuenta que la unidad marroquí no debía ponerse jamás en peligro. Los españoles tomaban esta posición por su sentimiento de odio hacia Francia, que en el momento del reparto de Marruecos, le dieron una franja que frente al resto del territorio ocupado, era una tierra sin mucho valor. Este sentimiento nunca abandonó a los españoles, y con el acontecimiento del 20 de agosto de 1953, hallaron la ocasión para demostrar la ineficacia francesa y su cacareada superioridad moral. Además, los españoles consideraban que el Sultán Mohamed V «... escuchó demasiado las demagogias de un joven partido ; del istiglal, que pedía una independencia para la que Marruecos no está preparado».

No nos queda la menor duda, tanto España como Francia deseaban perpetuar su estancia en Marruecos, y si no llegaron a entenderse, es lo que sirvió en cierta medida para que los nacionalistas del Norte tuvieran las manos libres para ayudar a sus hermanos en la Zona Sur.

Queda obvio que el objetivo de España era mostrar su disconformidad con la acción francesa, pero al mismo tiempo quería demostrar su «cariño» por los marroquíes, a los que consideraba «no estar preparados para asumir sus responsabilidades como personas independientes».

Se intentaba evitar que se infiltraran a la Zona española los levantamientos

del resto de Marruecos : se temía una nueva resistencia como lo fue la de Abdelkrim Jattabi ; es por lo que el 17 de noviembre de 1953, apareció un importante artículo que dice : «España sigue sin reconocer al Sultán impuesto por Francia. París, 16. - Un portavoz del Quai D'orsay dice que : «desgraciadamente, no hay ningún indicio de que España reconozca al nuevo Sultán de Marruecos (...) elevado al Trono por los franceses». «Hasta ahora - agrega - el Gobierno de Madrid no ha cambiado de postura desde la destitución de Mohamed V efectuada el 20 de agosto, considerándola ilegal, y que España debió ser consultada antes de tomarse cualquier medida que afectase al Trono marroquí. El portavoz ha señalado también que en la Zona española de Marruecos las rogativas del viernes siguen haciéndose en nombre de Mohamed V».

Importantísima esta noticia, por cuanto se asegura que el nombre del llorado SM Mohamed V, que Dios tenga en su Santo Seno, seguía sirviendo de Dirigente de los creyentes en Tetuán. Si para Francia era un tema solucionado, para los marroquíes acababa de empezar. La gente de Tetuán seguía siendo fiel a la tradición de sus antepasados : la dinastía Alauita era la legítima, y Mohamed V, su representante en el Trono de Marruecos. Nada ni nadie podía cambiar esta realidad. Se va a ratificar al día siguiente : el 18 de noviembre de 1953. Era el XXVI aniversario de la elevación de SM el Rey Mohamed V al Trono de Marruecos y el **Diario de Africa** publicaba una magnífica foto del llorado monarca con un texto que muestra la consideración del pueblo del Norte para con su legítimo Rey.

Si en el lado francés los mártires eran incontables, en la parte Norte, la gente se afanaba en enviar ayuda tanto material como moral a sus hermanos enfrascados en la lucha armada contra el ejército y la policía franceses.

El 18 de noviembre de 1953 coincidía con el Mawlid An-nabawi Acharif (el Nacimiento del Profeta Mohamed, que la paz sea con El) ; los tetuaníes festejaron ambos grandes acontecimientos con pompa. En un pasaje de un artículo titulado : «La población marroquí celebra con emotiva brillantez el XXVI aniversario de la proclamación del exilado Sultán, Mohamed V» ; el articulista subraya que «... en la mayoría de los establecimientos (...) fueron colocados numerosos retratos de SM el Sultán Mohamed V». Para los habitantes de Tetuán, no había más que una verdad : SM el Rey Mohamed V era para siempre el único Rey del Marruecos unido.

Los secuestros y las detenciones arbitrarias por parte de las autoridades francesas seguían sucediéndose ; por su parte la resistencia marroquí seguía operando en todo el territorio nacional : el 26 de diciembre de 1953 se colocó una bomba en el mercado central de Casablanca que causó la muerte de 19 personas. Las noticias llegaban a Tetuán por medio de varias fuentes, una de ellas era el **Diario de Africa** : ahora se ofrecían las noticias en pequeños artículos, nunca en la Primera Página. Esto indicaba una cierta dejadez por parte de los responsables españoles. Con todo esto, los españoles seguían



intentando mostrar su buena fe, pero el hecho de que supongan que los marroquíes no estaban preparados para auto-gobernarse, dejaba entrever, como lo señalamos más arriba, que únicamente se temía un levantamiento similar al de la Zona francesa y por ello no se reconocía la acción gala en Rabat - entre otras cosas, que para ellos la acción francesa era ilegal.

Dentro de esta línea se permitió la visita a la Zona Norte al Doctor Ahmed Choukairy, Secretario General Adjunto de la Liga Árabe, el 10 de diciembre de 1953.

Después de un largo silencio, el **Diario de Africa**, en su número 2530, del 21 de enero de 1954, va a publicar una nueva postura española, nueva en cuanto a su oficialidad, ante la criminal acción francesa del 20 de agosto de 1953. En un artículo titulado «La trascendencia de un acto», el articulista dice entre otras cosas : «El análisis ecuánime y severo de lo que sucede en la Zona vecina es más elocuente de todo lo que pudiéramos decir por nuestra cuenta. Un Sultán encerrado en su Palacio, protegido por cerrados servicios de seguridad, sin contacto con su pueblo, unas mezquitas vacías, un terrorismo de amplitud insospechada, un estado de inseguridad general en un cuadro exterior de orden, pero de profundo malestar interno ; una angustia por los atentados, por la suerte de los detenidos, por las medidas de represión, por los registros y persecuciones».

Al mencionar el «terrorismo de amplitud insospechada», los españoles están temiendo que el conflicto francés con la resistencia marroquí se propague hasta su Zona ; para España sería algo fatal, ya que su objetivo es seguir en Marruecos. No obstante, los españoles muestran su «... repulsa más enérgica al golpe de fuerza, la expresión del agravio del pueblo marroquí» y añade el articulista «... el reconocimiento a España y a su Caudillo y la confianza plena en la política que viene desarrollando el Alto Comisario Teniente-General García-Valiño». Es evidente que a su posición de repulsa, los españoles añadan siempre su «buen quehacer» en Marruecos ; es evidente, como decimos, que España está intentando dominar el pensamiento del marroquí para atraerlo a su causa.

No es necesario subrayar que los nacionalistas marroquíes del Norte se aprovechaban de las disensiones hispano-francesas para utilizar el Norte como santuario de muchos resistentes que tenían que huir de las garras francesas, sabiendo que las rencillas de España con Francia, servirían para que las autoridades españolas les dieran cobijo. En un editorial del viernes 12 de febrero de 1954, podemos leer : «Siempre que hemos escrito sobre las relaciones hispano-francesas hemos señalado la misma falta del lado francés : incompreensión, desconocimiento...»

Con fecha del 26 de enero de 1954, viene la noticia : «El sultán Sidi Mohamed Ben Yusef, trasladado de Córcega a un nuevo lugar de destierro». Mientras tanto, seguían sucediéndose los ataques contra los bienes de los franceses o de los que los apoyaban.





**Foto publicada con ocasion del segundo aniversario del 20  
de Agosto. (20 - 08 - 55)**

Se publica una nota del Istiqlal : Sede de la ONU, 27. - Los representantes del partido marroquí de la Independencia, «Istiqlal, han facilitado una declaración en la que acusan a Francia de «haber puesto la disputa marroquí en la escena internacional». «Esto-añaden -, prueba que Marruecos es una amenaza para la paz y la seguridad del mundo, como fue manifestado por el bloque árabe-asiático ante las Naciones Unidas».

A todo esto, el diario **Franc Tireur** se extraña de que Francia «... se permite el lujo de tener prisioneros ociales, como en tiempos de la máscara de hierro» Y lo que le interesa al tetuaní es la noticia siguiente : «La Liga Arabe no reconoce a Muley Arafa como Sultán de Marruecos».

La resistencia marroquí no está sola. El apoyo es casi unánime a través de todo el mundo. Francia no cesa en su empeño de seguir con su política de represión, y la respuesta es la violencia : los mártires no dejaban pasar un solo día en que no llevaran a cabo una misión. Se implanta la pena de muerte, y los resistentes comienzan a ser eliminados legalmente. A pesar de ello... en la región de Casablanca continúan diariamente produciéndose atentados». El viernes 5 de marzo de 1954, Ben Arafa vivió un atentado en Marrakech que por poco le cuesta la vida...

Los franceses, dándose cuenta del error cometido, empiezan a mirar el tema con más detenimiento. El 11 de febrero «Una delegación parlamentaria francesa ha pedido hoy al gobierno se dé por Francia un «nuevo trato a Marruecos». El portavoz de dicha delegación, diputado conservador Roland de Moustier, ha dicho que la opresión y los métodos policíacos que se emplean en el Marruecos francés agrandan a diario el foso que hay entre franceses y marroqués».

El Embajador francés en Madrid Jacques Meyrier, es llamado a París para «... evacuar consultas sobre las relaciones hispano-francesas».

Con la llegada a Marruecos del Residente General el Mariscal Juin, el Hombre «duro» que quiso aplicar en nuestro país una política «... planeada por el Gobierno francés», y que criticó duramente en el mes de julio de 1955 a los colonos franceses que se oponían a las reformas francesas, también choca con las actividades de los resistentes marroquíes.

**Diario de Africa** aporta al lector tetuaní de expresión española, las noticias de la realidad existente en la Zona francesa.

El martes 5 de julio de 1955, hay una noticia que muestra hasta qué punto el clima de terror era fuerte en Marruecos, «El tribunal Cherifiano de Casablanca suspende sus funciones. No las reanudará hasta que se pueda administrar justicia sin coacción» ; y en el artículo se explica que el personal temía por su vida «... en vista de las cartas que continuamente recibía de amenazas de muerte». Los sabotajes, ataques a la policía y al ejército franceses, seguían sucediéndose.



**SAR La Princesa Lal-la Amina con su Augusto padre, el  
llorado SM Mohamed V - Que en paz descanse -  
(Publicada el 08 - 09 - 55)**



El 7 de julio de 1955, otra grata noticia para los habitantes de la Zona Norte de Marruecos, «Dimisión de Juin como Consejero Militar para el Norte de Africa. Teme el destronamiento del Sultán Ben Arafa por el Gobierno francés». Las causas ya hablan por sí solas, ya se piensa en la vuelta del Legítimo Rey de Marruecos, SM Mohamed V, para ocupar el Trono de sus augustos antepasados y que le pertenecía ocupar.

Gilbert Grandval, el sustituto de Juin, promete «... que se irán aplicando gradualmente las medidas acordadas para traspasar la administración de manos francesas a las de los marroquíes.» La presión social de los resistentes está cosechando sus frutos y los franceses se están doblegando poco a poco.

La llegada del nuevo Residente es acogida «... en Marruecos con una oleada de agitación». Los atentados aumentaron tanto en Casablanca como en otros puntos de la nación, para demostrar que ningún Residente sería bien acogido y que lo que se pretendía era el retorno a la patria de SM Mohamed V.

El 12 de julio 1955 se aplica un «Toque de queda en Marruecos francés». Introducción de Grandval a una táctica nueva : actuar y no hablar».

Entre tanto, los nacionalistas continuaban sus contactos a través del mundo para explicar los inalienables derechos del pueblo marroquí.

El 15 de julio, sale una noticia importante : «Profunda satisfacción del Istiqlal por la política de España en Marruecos. Se basa en los anhelos del pueblo marroquí, declara Al-lal El Fassi en El Cairo». Por su parte Grandval «... concede libertad a detenidos políticos en el 'Día de la Bastilla'. El Residente promete más perdón si cesan los ataques terroristas». Pero resulta que el 16 de julio de 1955, **Diario de Africa** habla de «Graves disturbios en Casablanca. Saqueo e incendio de comercios marroquíes por manifestantes franceses». El problema marroquí se hacía cada vez menos sostenible ; por lo que, con ansia, los tetuaníes y en general los marroquíes de la Zona Norte se informaban de que en la parte francesa se había declarado un «Estado de guerra en Casablanca. Persiste la violencia entre franceses y marroquíes. 26 muertos, 70 heridos y 150 incendios en las últimas 48 horas». En cuanto a la ciudad de Marrakech, también conoció sangrientos acontecimientos cuando el Residente francés la visitó : «10 muertos y 27 heridos al chocar policía y manifestantes» ; lo mismo que en Mequinez, donde la noticia dice que hubo «Sangrientos disturbios... 7 muertos, y 27 heridos a la llegada de Grandval». En realidad hubo 15 muertos, ya que al día siguiente se anunciaba un «Impresionante entierro de las 15 víctimas marroquíes».

En el senso del Gobierno francés se comienza a hablar de que «El problema dinástico es de exclusiva competencia de Marruecos», y de que «... no puede ser eterno el destierro del Sultán Ben Yusef».

Las acciones de protesta de los marroquíes, con saldos altísimos en vidas humanas, estaba haciendo cundir el pánico entre los franceses - tanto en Marruecos como en la Metrópoli -. La dramática situación vivida, se reflejaba



**Manifestacion femenina en Tetuan con ocasion de la vuelta  
de SM Mohamed V a Rabat. (16 - 11 - 55)**



entre los norteafricanos residentes en París ; miles de ellos comenzaron a manifestarse en la propia capital francesa. A pesar de todo ello, el Primer Ministro francés, Edgard Faure anunció que «Francia no cederá ante la intimidación violenta en Marruecos. Nuestra política de reformas necesita una atmósfera de cooperación que no existe en estos momentos» (6 de agosto de 1955).

Se acercaba el 20 de agosto y Grandval «Pide solemne promesa de arreglo para evitar disturbios el día 20». Ya sabían lo que les esperaba. La posición de «Presencia francesa en Marruecos», aquella tristemente célebre organización que se oponía rotundamente a la concesión de independencia política alguna a los marroquíes, iba encontrándose con una fuerza inquebrantable : la resistencia de un pueblo decidido a liberarse de su yugo.

Mientras tanto, las acciones de los mártires no amainaban.

Por su parte España se siente aún molesta profundamente, ya que reconocía sin paliativos que «... el Sultán Mulay MOhamed no sólo era y es soberano de la Zona francesa, sino también de la Jalifiana» ; este reconocimiento era de agradecer, ya que por lo menos España seguía respetando las Cláusulas del Tratado de Algeciras. Esta posición la volverá a reiterar el jefe del Istiqlal, Al-lal El Fassi en El Cairo : «La solidaridad de los españoles con Marruecos en estos días sombríos nos hace creer en la sinceridad de España, en sus actos y en sus promesas».

Lo que tramaba Francia estaba «Condenado al fracaso» ya que ni los resistentes marroquíes aceptaban las propuestas francesas - cualesquiera que fueran -, ni los franceses querían ver la realidad de frente y aceptar sus errores : los atentados continuaban, y «Las tropas francesas toman posiciones en Marruecos. Vigilancia especial en Casablanca, Marrakech y Fez en previsión de disturbios». Se acercaba el 20 y la preocupación francesa iba creciendo.

El 20 de agosto de 1955 - dos años después del destronamiento de SM Mohamed V -, aparecen en **Diario de Africa** las noticias ocurridas la víspera (19 de agosto) : «Sangrientos desórdenes en Kenifra y Casablanca. 24 muertos y 70 heridos, balance de la violenta jornada. La inquietud ha alcanzado su clímax en la Zona francesa».

Y el 21 de agosto, en su número 3022, un domingo, aparece la siguiente noticia : «Aniversario de sangre en el Marruecos francés. Un centenar de muertos e incalculables heridos marcó el segundo año de exilio del Sultán Ben Yusef».

Y por fin ganaba la valiente resistencia marroquí : «Aix-Les-Bains, centro de la crisis marroquí. Se inició la conferencia gubernamental con líderes políticos del Protectorado».

En el interior del país, dice **Diario de Africa** del 24 de agosto : «Estado de guerra en Marruecos y Argelia. 200.000 soldados y policías franceses persiguen



a los dirigentes rebeldes». Y con esto «... ochocientas mujeres, futuras madres de Marrakech, que han enviado un mensaje a las autoridades de Francia diciendo que hasta en sus entrañas se pide el retorno de Mohammed V, por los hijos que aguardan un Marruecos feliz».

El 25 de agosto se piensa seriamente en una «Sustitución de Ben Arafa por un Consejo de Regencia y traslado de Mohamed V a Francia, la decisión más probable». La victoria no podía estar muy lejos.

Todos los marroquíes recordaban con cariño las palabras que les dirigió SM el Rey Mohamed V desde el exilio en el XXVI aniversario de su entronación : «Con motivo del aniversario de nuestra entronación, fecha en que no dejáis nunca de manifestar vuestra lealtad, vuestra abnegación y vuestro amor, apelamos a vosotros para pedir os que prosigáis la lucha, redobléis vuestra energía, permanecáis fieles a Dios y obréis siempre con vistas a la realización de todas vuestras esperanzas : la libertad, la dignidad y la gloria».

Por ello, todos los marroquíes preferían morir que seguir bajo el yugo y las botas de Francia : gloria a todos los mártires que dieron la vida por un Marruecos independiente, unido y en paz, y que lucharon por el regreso del exilio de la Familia Real, encabezada por SM el Rey Mohamed V, que Dios tenga en su Gloria.

Gilbert Grandval es cesado por París el martes 30 de agosto de 1955. **Diario de Africa** al anunciarlo menciona el nombre del nuevo Residente General, se trataba de «El General Pierre Boyer de la Tour du Moulin, de 59 años de edad, veterano soldado y estadista, que ha sido Residente General en Túnez desde julio de 1954, ha sido nombrado por el Gabinete francés para suceder al dinámico M. Gilbert Grandval como Residente General en el Protectorado de Marruecos, turbado por la agitación».

El ejército francés seguía engrosándose con soldados procedentes de Francia ; y la lucha sin cuartel del pueblo de Marruecos no cesaba : «Boyer de la Tour fue recibido con protestas en Marruecos».

El plan Faure al punto del fracaso. Francia envió al general Georges Catroux a Antsirabe, capital de Madagascar ; «... el motivo de su visita es negociar con Mohamed V las condiciones de su regreso a Francia, después de la reciente conferencia franco-marroquí de Aix-Les-Bains».

**Diario de Africa** anuncia que hubo una «Entrevista secreta de los delegados nacionalistas con Mohamed V en Antsirabe». «Si Bekkaï, Ben Slimane y Al Alaui iniciaron su misión cercados por impenetrable secreto». Esta entrevista tuvo lugar 24 horas después de la del general Catroux y el jefe del Gabinete del Ministerio de Asuntos Exteriores Henri Yrissou.» Por su parte Al-lal El Fassi declaraba en Roma que «El pueblo marroquí no aceptará más solución que el retorno incondicional de su soberano». Y añadía : «Los nacionalistas de Marruecos no aceptarán nunca la idea de un Consejo de Regencia, lo cual excluye la cuestión de la soberanía del pueblo marroquí y de un Sultán legítimo».

Los planes para el «New Deal» se encaminaban hacia un fracaso seguro.

Y por fin se da la noticia tanto esperada : «Ben Yusef volverá al Trono antes de tres meses, afirma L'Aurore.» Por otra parte, los soldados franceses estaban cansados de tanto derramamiento de sangre ; al ser enviado un destacamento nuevo a Marruecos, comenzó a gritar «Marruecos para los marroquíes».

El primer Ministro francés, Edgard Faure suspendió repentinamente la aplicación de «... su plan de paz para Marruecos en vista de la violenta oposición derechista a su política liberal». Esto originó una «Enérgica advertencia nacionalista a París : no proseguirán las negociaciones sin las reformas prometidas».

La Carta del presidente del Consejo de Ministros a Ben Arafa fue retenida, ya que estaba destinada a despejar el camino para que Ben Arafa abandonase el Trono conforme a lo acordado, condición indispensable para una posible solución del pleito marroquí.

El Rif y el Atlas Medio son escenarios de cruentas batallas entre franceses y resistentes marroquíes. Se forma el Consejo de Regencia - que en la práctica no hizo nada absolutamente -. Ben Arafa se va a Tánger y el estado de guerra en Marruecos era virtual. El tema de Marruecos es causa directa de infinitos problemas en el seno del Gobierno francés : van a ser destituidos cuatro miembros de tendencia Gaullista y que eran contrarios a la política marroquí ; Gaston Palewski, Ministro de Coordinación de la Defensa ; El General Pierre Koenig, Ministro de Defensa ; Raymond Triboulet, ministro de ex-Combatientes y Maurice Bayron, Ministro de Territorios de Ultramar.

En la ciudad de Rouen, como si el recuerdo de Juana de Arco se quisiera perpetuar en el espíritu de la gente, unos 500 reclutas se amotinaron «... después de desobedecer a sus oficiales». Los comunistas franceses «... pedían en sus octavillas a las madres, hermanos y novias de los reclutas que impidieran fueran embarcados contra su voluntad para ser enviados al Marruecos francés».

Francia estaba acorralada : problemas en el Gabinete ; problemas sociales ; la gente no quiere saber nada del problema marroquí en Francia ; guerra abierta en Marruecos ; atentados, muertes de ambos lados ; y por si fuera poco, tenía ante sí a unos nacionalistas marroquíes totalmente dispuestos a continuar la lucha si SM el Rey Mohamed V no regresaba a su Trono.

Faure interviene ante la Asamblea francesa y después de asegurar que «... podemos prescindir del Consejo del Trono y no se suscitara ninguna cuestión en este punto pero formar un gobierno marroquí sin la participación de los nacionalistas sería ineficaz». Y de añadir «... ninguna política tiene posibilidad de éxito como no sea lo de actuar clara y prontamente».

El el plano bélico, la guerra abierta en el Rif francés continuaba sin desfallecer. Los franceses, no podían con los resistentes a pesar de su gran



número de hombres armados hasta los dientes. El «Triángulo de la muerte» : Tizi Uzli, Bured y Aknul, permanecerá en la memoria de los franceses como uno de los episodios más difíciles de la etapa de su estancia en Marruecos. España responde a una declaración francesa, hecha el 16 de octubre de 1955, y en la que se estipula que los españoles apoyaban a los resistentes marroquíes en el Rif ; entre otras cosas dice : «Las autoridades francesas no tienen por qué extrañarse de que los españoles no se brinden a colaborar en la represión de la revuelta de la Zona francesa. España cumple sus deberes de buena vecindad que, dicho sea de paso, no cumple Francia ni en el Rif ni en el Pirineo (...) ... otra actitud de parte de las autoridades españolas no podría menos de dañar, además, la excelente amistad que España mantiene, y por encima de todo está dispuesta a conservar, con el pueblo marroquí.» Los españoles respondían así a la nota francesa que aseguraba «... que los disidentes marroquíes han hallado ayuda y refugio en la Zona española de Marruecos.»

Lo importante que debe verse aquí, es que el tema de Marruecos estuvo a punto de crear un grave conflicto entre España y Francia, ya que el 18 de octubre de 1955 aviones franceses hicieron tres incursiones «... sobre territorio fronterizo de la Zona española».

La violencia continuaba en todo el territorio ocupado por Francia : atentados en casi todas las ciudades, diariamente, con un pesado número de víctimas. En este marco, en el que los franceses no sabían qué hacer, **Diario de Africa** anuncia el 23 de octubre de 1955 : «... el regreso a Francia de Mohamed V. Su llegada coincidirá con la festividad del Mulud». El júbilo en todo Marruecos era indescriptible. El primero de noviembre se lee : «Feliz llegada de Mohamed V a Niza. Fue recibido con entusiasmo desbordado por comisiones marroquíes. La princesa Amina lloró emocionada ante el triunfal recibimiento».

Nosotros, ahora, con tantos años por medio, sentimos un nudo en la garganta y una alegría incontenible e incontrolables ganas de seguir leyendo rápido para llegar al final de esta etapa que tanto bien nos ha hecho a todos los marroquíes.

SM el Rey Mohamed V, que Dios tenga en Su Gloria, envió «Un mensaje de esperanza y agradecimiento al pueblo marroquí». Con esto, todos los máximos representantes de Marruecos, comenzaron a enviar telegramas de adhesión : «Sidi Abdelkaleq Torres y Sidi Mohamed Zarioh, en nombre del pueblo de la Zona Jalifiana y en el de los partidos Reformista y Maghreb El Hor, han dirigido a SM Mohamed V, telegramas en los que le expresan su más alta devoción hacia la augusta persona del Sultán de Marruecos.

Al mismo tiempo, han expresado sus deseos de ver pronto a Sidi Mohamed Ben Yussef en el Trono...». «Adhesión de la comunidad israelita al Sultán».

Todos deseaban la Vuelta definitiva de SM Mohamed V, por eso la violencia continuaba al ver que el soberano continuaba en Francia.

Comienza a hablarse de la inminente vuelta de SM Mohamed V a Rabat. Los franceses tuvieron que dar su brazo a torcer : Mohamed V vuelve a su Trono. Francia admite el grave error de su destitución, y anuncia la «llegada de Ben Yussef a Rabat antes del 18 de noviembre. Júbilo indescriptible en el



imperio de Marruecos» ; dice la noticia que llena de gozo a todos los hombres de buena voluntad.

Los acontecimientos comenzaron a correr vertiginosamente hacia una inevitable vuelta a Rabat de SM el Rey Mohamed V. Los preparativos para el Gran Recibimiento, comenzaron a nivel nacional ; SM Mohamed V perdonó a los que pensaron que un Marruecos sin Su Persona era posible.

El tema de Marruecos aún arrastraba tela : «Cese de Boyer de la Tour como Residente General de Francia en Marruecos. Le sustituye M. André Dubois, Prefecto de la Policía de París».

SM Mohamed V recibe al embajador de España en Francia : «Ni yo, ni ningún marroquí ni los hijos de nuestros hijos olvidaremos nunca la ayuda prestada por España a nuestra causa».

Y por fin : «Dicha y honor para Marruecos. Mohamed V ocupa de nuevo su Trono en Rabat. Medio millón de súbditos le recibieron triunfalmente en la capital del reino». Era el 16 de noviembre de 1955. «Grandiosa manifestación de júbilo en Tetuán».

Y por fin el pueblo de Marruecos volvía a escuchar a su Rey : «Estamos aquí como siempre nos habéis conocido : al servicio de nuestro amado país».

Era el milagro de una voluntad colectiva.

El 18 de noviembre de 1955, el Discurso del Trono tiene lugar, como era de costumbre, desde el Trono que correspondía a la augusta persona de SM el Rey Mohamed V. «Me siento feliz al poder anunciar el término del régimen de tutela y de Protectorado y la apertura de una era de libertad e independencia». La alegría no tenía límites en todo el territorio nacional. Los disturbios que más tarde tuvieron lugar vinieron a corroborar los sentimientos de independencia del pueblo marroquí, que ya no quería seguir bajo el yugo francés. Al-lal Ben Abdel-lah y los demás mártires descansan en paz.

El día 2 de marzo de 1956 se firma en París la declaración conjunta por Francia y Marruecos por la que se da efectividad a la de Saint-Cloud del 6 de noviembre de 1955, reconociendo la Independencia de Marruecos. Durante la visita de Mohamed V a Madrid, el soberano dirá : «Estamos convencidos de que España, que supo colocarse al lado de Marruecos en los momentos difíciles, corresponderá a este deseo (independencia) con su caballerosidad y su gallarda nobleza».

Efectivamente, el día 7 de abril de 1956, España reconoce la total y absoluta independencia de Marruecos.

El día 10 de abril de 1956, SM el Rey Mohamed V, en un momento histórico, en Arbaua, corta la cinta situada en la raya de las antiguas fronteras entre ambas Zonas : se acababa de hacer la unión de todo el territorio nacional.

Es el comienzo de una era de paz, estabilidad, amor y desarrollo, que ratifica SM Hassan II, que Dios Glorifique, fiel continuador de su augusto y llorado padre en la línea de la defensa de todos los derechos del pueblo de Marruecos, convirtiéndose en el garante de la integridad territorial de nuestra Nación.

# L'IMAGE DE L'ESPAGNOL ET LE NATIONALISME MAROCAIN DANS LE MAROC KHALIFIEN

ABDELMAJID BENJELLOUN

*«Je fermerai maintenant les yeux, je boucherai mes oreilles  
je détournerai tous mes sens, j'effacerai même de ma pensée  
toutes les images des choses corporelles, ou du moins, parce  
qu'à peine cela se peut-il faire, je les réputerai comme vaines  
et comme fausses...»*

Descartes, méditation troisième

*«Il n'y a pas de concept, si abstrait soit-il, qui n'implique  
quelque image sensorielle, et il n'y a pas d'image, pour si  
concrète qu'elle soit, qu'un mot ne sous-tende et qui ne fasse  
entrer les limites de l'objet dans celles du mot : c'est en ce  
sens que nos expériences les plus individuelles sont déjà  
moulées par la société».*

Henri Wallon. *De l'acte à la pensée*  
Paris - Flammarion

*«On veut toujours que l'imagination soit la faculté de  
former des images. or elle est plutôt la faculté de déformer  
les images fournies par la perception, elle est surtout la faculté  
de nous libérer des images premières, de changer les images».*

Gaston Bachelard - *L'Air et les songes*  
Paris - José Corti

Initialement et pendant des années, mon sujet de Doctorat était : «le rôle de l'imagé de l'Espagnol et le mouvement nationaliste marocain, dans le Maroc dit espagnol (1930 - 1956)»<sup>(1)</sup>. Mais après mûre réflexion, j'ai décidé de changer le titre de ma thèse ainsi : «contribution à l'étude du mouvement

(1) J'ai préparé sous ce titre, en 1972, à l'Institut universitaire de Hautes Etudes Internationales, à Genève, un mémoire de thèse.



nationaliste marocain dans l'ancienne zone nord du Maroc 1930 - 1956»<sup>(2)</sup>. La raison de ce tournant dans mes recherches est due en grande partie à la quasi-impossibilité où je me trouvais d'établir un lien de cause à effet entre une catégorie tangible, voir objective (le mouvement nationaliste dans l'ex-Maroc «espagnol») et une représentation mentale (l'image). Depuis, les années ont passé. C'est pourquoi je décide de reprendre ce vieux thème en essayant de reposer les problèmes y afférents qui me préoccupaient, d'une autre manière. Les développements suivants résultent de cette résolution.

Les habitants de la zone nord marocaine, du temps de la présence espagnole, se faisaient une image de leurs «Protecteurs» et cette image aurait ou non joué un rôle dans l'histoire du mouvement nationaliste de ladite zone. A première vue, cette image était défavorable. Mais était-elle si défavorable que cela ? Alors les questions qui se posent sont les suivantes : Dans le cas où l'image aurait été défavorable, est-ce que les patriotes, du simple fait qu'ils méprisaient les Espagnols, étaient déterminés à être plus audacieux vis-à-vis de ces derniers ?

Les Espagnols nourrissant eux-mêmes des stéréotypes dépréciatifs à l'endroit des autochtones, est-ce que les nationalistes marocains de la zone, auraient par réaction, durci leur attitude à leur endroit ?

Dans le cas où cette image était, au contraire, favorable, les nationalistes ont-ils modulé leur comportement vis-à-vis des autorités espagnoles en fonction de cette donnée ?

L'image, donc, aurait joué, soit un rôle négatif, soit un rôle positif. Mais elle a pu aussi jouer un rôle nul. La problématique du papier étant posée, j'articulerai ma réflexion autour des deux points que voici :

- 1) l'image, notions générales ; l'image de l'Espagnol.
- 2) le rôle de l'image de l'Espagnol dans l'histoire du mouvement nationaliste marocain dans l'ancienne zone nord du Maroc.

## **I - L'IMAGE. NOTIONS GENERALES. L'IMAGE DE L'ESPAGNOL**

La notion d'image, c'est-à-dire la manière dont nous percevons les autres, et particulièrement les étrangers, était à la mode il y a une trentaine d'années. Cependant, l'unanimité était loin de se faire autour de cette notion. Pour illustrer ces différences de conception, je m'efforcerais de ne citer ici que les définitions les plus significatives de l'image, telles qu'elles ont été proposées par certains auteurs, sachant que la littérature est abondante à cet égard.

### **A/ Définition de l'image**

Après avoir exposé brièvement les conceptions à cet égard de Kennet E. Boulding, de Sylvaine Marandon et de Scott, j'essaierai de formuler une définition propre, largement inspirée par les théories de Jean Piaget.

(2) Thèse de Doctorat public, soutenue à la Faculté de Droit de Casablanca, le 3 décembre 1983.



## 1 - Celle de Kennet E. Boulding

Kennet E. Boulding, à qui l'on doit l'une des toutes premières systématisations de «l'image», qu'il a d'ailleurs intégrée à une théorie de la connaissance, propose cette définition : «l'image est élaborée en tant que résultante de toute l'expérience du passé... elle est d'une certaine dimension ou d'une certaine qualité de certitude ou d'incertitude, de probabilité ou d'improbabilité ou d'imprécision»<sup>(3)</sup>. Ainsi pour Boulding, l'image fait partie de notre apprentissage des êtres et des choses. Mais il s'empresse d'ajouter qu'elle peut être plus ou moins erronée ; moyennant quoi elle constitue une connaissance plus ou moins précise.

## 2 - Celle de Sylvaine Marandon

Sylvaine Marandon pose d'emblée : «l'image est tout ce qu'on a dans l'esprit à propos d'un peuple»<sup>(4)</sup>. Ainsi donc il s'agit d'une représentation mentale, ou en d'autres termes, de la perception qu'on se fait des autres, telle qu'on l'a intériorisée. Selon elle, en outre, nos représentations mentales peuvent se catégoriser par des «gradations insensibles»<sup>(5)</sup>, qu'elle résume au nombre de quatre : «deux d'entre elles se fondent sur une base de connaissances pauvres : ce sont les stéréotypes et les préjugés. Ils s'appuient sur des rumeurs, des anecdotes, des «on dit». En bref, des témoignages insuffisants. La réalité est vidée de son contenu réel et complexe, et il n'en subsiste qu'un contour squelettique à la portée des intelligences les plus paresseuses. Loin d'être exhaustive, elle (la pensée par stéréotypes) ne s'attache qu'aux traits saillants, comme une description de passeports»<sup>(6)</sup>.

Après l'énoncé des deux premières catégories, l'on s'attend à ce que les deux autres soient empreintes de ce que l'on appelle en psychologie, le principe de réalité. Eh bien non : «ce n'est pas la justesse ni l'impartialité qui distingueront les deux étapes supérieures ensemble, images et opinions, mais nous semble-t-il la richesse. Le contenu d'une image est sans doute plus vaste, moins spécifique et aussi moins intellectualisé que celui d'une opinion. D'autre part, l'image n'est pas dialectique par nature. L'existence d'une opinion suppose qu'on peut entretenir une ou plusieurs opinions différentes ; l'image par contre, se passe fort bien de contraire...»<sup>(7)</sup>.

Voici une approche intéressante, en ce qu'elle oppose heureusement «image» et «opinion». En ce qui concerne l'image, on n'est pas loin de l'image mentale

(3) «The image is built up as a result of all past experience... the image has a certain dimension or quality of certainty or certainty, probability or improbability or vagueness. the image. Ann Arbor, the University of Michigan press, 1956 ; pp 6 et 10. (Traduction de l'auteur).

(4) *L'image de la France dans l'Angleterre victorienne* - Paris, Armand Colin, 1967 ; p. 125

(5) *Ibid*, p. 125

(6) *Ibid*, p. 126.

(7) *Ibid*, p. 126.

telle qu'elle est étudiée par les psychologues, d'abord classiques, qui la considéraient comme une photographie intérieure de la chose imaginée, et ensuite modernes, qui croient avoir affaire davantage à des objets imaginaires qu'à des images proprement dites<sup>(8)</sup>.

En tout état de cause, l'image reste plus ou moins liée à un objet concret, qu'elle peut certes assujettir à sa fantaisie, mais elle ne saurait se prêter à une quelconque approche abstraite, qui est celle précisément de l'opinion.

### 3 - Celle de Scott

Par ailleurs, selon William A. Scott, l'image fait intervenir d'autres éléments, et notamment l'affectivité et le comportement des hommes, qui font justement de cette image une catégorie agissante ; sans compter son caractère plus ou moins cognitif qui a déjà été souligné plus haut<sup>(9)</sup>. Si d'une part, l'affectivité a été prise en compte par Sylvaine Marandon dans ses développements relatifs à l'image<sup>(10)</sup>, mais à laquelle je n'ai pas fait référence encore ; en revanche, le fait de considérer cette notion d'image comme une catégorie opératoire est nouvelle et pourrait être d'une certaine utilité pour mon papier. J'ai en effet pour tâche de confirmer ou d'infirmer l'hypothèse que l'image de l'Espagnol a été responsable d'un type de comportement particulier des patriotes marocains dans l'exercice de leur patriotisme.

### 4 - Définition de l'image, à la lumière des théories de Jean Piaget

L'énumération ci-dessus des définitions de l'image montre, par delà les différences que j'y ai constatées, que l'image est synonyme du stéréotype, qu'elle fait partie de la connaissance et qu'elle comporte des éléments affectifs. Je ne mettrai pas en question de telles définitions d'autant moins que je les juge valables et pertinentes. Cependant, je voudrais les enrichir par l'apport de Jean Piaget dans le domaine de la théorie de la connaissance, qui bien évidemment s'applique à d'innombrables phénomènes, y compris naturellement l'image, objet de mes préoccupations dans cet article.

(8) Il ne m'appartient pas ici de chercher à savoir qui des deux tendances a raison. Mais je me plais, dans une toute autre perspective, à citer ce vers magnifique de William Carlos Williams : «il advient qu'un fleuve devienne fleuve dans l'esprit» que mon ami, Salah Stetié, le grand Poète libanais, m'a fait découvrir.

(9) «Psychological and social correlates of international image» *International Behaviour : Social-Psychological Analysis* ed. M.C. Kelman. NY, Holt and Rhinehart Wilson, 1966 ; p. 72 cité par Ono Setsuko dans sa thèse soutenue à l'Institut Universitaire de Hautes études internationales, à Genève, sous le titre : *An image of Japan What do the West see through the eyes of Loti and Hearn ?* 1972 ; p. 1

(10) En effet, s'appuyant sur une définition d'Otto Klineberg des stéréotypes («une pensée autistique indépendante de la réalité extérieure», cf «Nouvelles méthodes pour l'étude des stéréotypes. *Bulletin des sciences sociales* (édité par l'UNESCO) vol. III, n° 3, automne 1951), elle indique que le stéréotype «tend vers le préjugé car la forte dose d'affectivité que celui-ci contient dispense de réfléchir ou de s'informer» op. cit. p. 126.



Pour le grand psychologue et épistémologiste suisse, l'intelligence humaine qui est adaptation, se définit par l'équilibre entre ce qu'il appelle l'assimilation et l'accommodation.

Qu'entend-il par ces deux notions ? L'«assimilation» est «l'action de l'organisme sur les objets qui l'entourent en tant que cette action dépend des conduites antérieures portant sur les mêmes objets ou d'autres analogues. En effet, tout rapport entre un être vivant et son milieu présente ce caractère spécifique que le premier, au lieu d'être soumis passivement au second, le modifie en lui imposant une certaine structure propre. C'est ainsi que physiologiquement, l'organisme absorbe des substances et les transforme en fonction de la sienne or, psychologiquement, il n'en va de même, sauf que les modifications dont il s'agit alors ne sont plus d'ordre substantiel mais uniquement fonctionnel, et sont déterminés par le motricité, la perception ou le jeu des actions réelles ou virtuelles (opérations conceptuelles, etc...). **L'assimilation mentale est donc l'incorporation des objets dans les schèmes de la conduite**, ces schèmes n'étant autres que le canevas des actions susceptibles d'être répétées activement.

Réciproquement, le milieu agit sur l'organisme, et l'on peut désigner, conformément à l'usage des biologistes, cette action inverse sous le terme d'«accommodation», étant entendu que l'être vivant ne subit jamais telle quelle la réaction des corps qui l'environnent, mais qu'elle modifie simplement le cycle assimilateur en l'accommodant à eux. Psychologiquement, on retrouve le même processus, en ce sens que la pression des choses aboutit toujours, non pas à une soumission passive, mais à une simple modification de l'action portant sur elles. Cela dit, **on peut alors définir l'adaptation comme un équilibre entre l'assimilation et l'accommodation, ce qui revient donc à dire un équilibre des échanges entre le sujet et les objets**<sup>(11)</sup><sup>(12)</sup>. Je ne crois pas mutiler inconsidérément la pensée du Maître, en réduisant l'assimilation à l'opération par laquelle l'individu ramène à ses propres schèmes de conduite générale, et particulièrement à ses schèmes intellectuels, le monde sensible ou plus simplement tout ce qu'il est en mesure d'appréhender, - soit, physiquement, soit mentalement -, et l'accommodation», à l'opération par laquelle l'individu se plie à l'objet, en modifiant ses mécanismes internes qui lui permettent de l'assimiler.

C'est dire que Jean Piaget a mis au point une théorie opératoire de la connaissance.

Mais cette théorie de la connaissance elle-même, s'enrichit dans l'esprit du Maître, par l'apport de l'image mentale, qui d'ailleurs nous est d'une certaine utilité pour la compréhension de l'image de l'Espagnol dans la zone nord. En

(11) C'est moi qui souligne

(12) La psychologie de l'intelligence. Paris, Armand Colin, 1967 ; p. 14.



effet, pour Piaget, l'image mentale est une « imitation intériorisée »<sup>(13)</sup>, en ce sens que lorsque le sujet imagine un objet, il se le représente intérieurement, au gré d'une imitation pure et simple. Ce qui rejoint la définition classique de l'image mentale que j'ai évoquée plus haut. Mais il ne faut pas se fier aux apparences immédiates des choses, d'autant plus qu'il faut replacer cette approche piagétienne de l'image mentale dans son contexte naturel, à savoir celui de l'adaptation ou de l'intelligence, en tant qu'équilibre entre l'assimilation et l'accommodation. En bref, l'intériorisation de l'objet qui donne lieu à l'image, obéit tout à la fois à l'assimilation et à l'accommodation. C'est dire que la fidélité de l'objet représenté par rapport à l'objet réel dépend du dosage de ces deux opérations.

Ceci étant, il faut ajouter que, selon Piaget, toute action<sup>(14)</sup> humaine a deux facettes indissociables, à savoir une facette cognitive et une facette affective, qui entrent bien évidemment en ligne de conduite dans l'élaboration de l'image mentale, ou de l'image tout court. Dans cet esprit, si l'élément affectif l'emporte, l'assimilation aura le dessus sur l'accommodation ; on aura alors une image déformée par rapport à la réalité.

Si l'accommodation a plus de poids que l'assimilation, l'on aboutira au même résultat, à savoir que les signes extérieurs de l'objet prendront le pas sur nos mécanismes intellectuels. En somme, une image sera à peu près conforme à la réalité, s'il l'on arrive à assurer un équilibre entre l'assimilation et l'accommodation. Ainsi donc, il n'y a pas de différences radicales entre les trois définitions de l'image que j'ai proposées, et la théorie de Piaget de l'intelligence, mais au contraire, les deux conceptions respectives se complètent, à ceci près que l'ensemble des idées relatives à l'image ainsi étudiée, s'enrichit par l'apport de Piaget en matière d'équilibre entre l'assimilation et l'accommodation.

D'où cette définition de l'image, largement inspirée par les travaux du Grand Maître Suisse :

L'image signifiant la manière dont nous percevons les autres - surtout les étrangers - est une représentation mentale de nature aussi bien cognitive qu'affective, où l'« assimilation » et « l'accommodation » entendues au sens piagétien des termes n'atteignent pas à l'équilibre.

Ainsi définie, l'image rappelle les stéréotypes nationaux. Mais la question qu'il faut s'empresser de poser est la suivante : l'individu est-il condamné à déformer l'image réelle des autres peuples ? ou pour reprendre les mots employés dans la définition ci-dessus : l'équilibre entre l'assimilation et l'accommodation est-il irréalisable dans cette espèce de perception ou de représentation mentale des autres ?

---

(13) Jean Piaget et Barbel Inhelder. *L'image mentale chez l'enfant*, Paris P.U.F. 1966 ; p. 4

(14) Le mot « action » ici ne signifie pas uniquement action physique, car selon la psychologie moderne, penser, c'est aussi agir.

A la vérité, entre nous et les autres peuples s'interposent des préjugés qui sont selon les cas accentués par toutes sortes de différends et de conflits. Mais il arrive aussi que les stéréotypes soient favorables et même très favorables. Les relations internationales sont telles qu'elles sont traversées par des courants d'intérêts matériels ou immatériels qui font que les images que les peuples se font les uns des autres sont obscurcies.

Pour échapper à cette fatalité de l'erreur ou plutôt de la déformation dans l'image que nous nous faisons d'autrui, pourrions-nous utiliser la notion de «caractères nationaux» d'un peuple ? mais avant tout chose, qu'entend-on par «caractères nationaux» ? Est-ce-à-dire que l'on est capable d'établir scientifiquement les traits spécifiques d'un peuple ? et à supposer qu'on le soit, est-ce que ce portrait «objectif» d'un peuple en particulier serait-il d'une quelconque utilité, d'autant que ce qui est opératoire, ce n'est pas la connaissance rigoureuse de l'autre, mais l'image qu'on s'en fait ?

Ces développements préliminaires sur l'image étant terminés, il m'importe maintenant de me pencher sur l'image de l'Espagnol, aussi bien au sein du peuple marocain de la zone qu'à celui des patriotes de la même zone.

## 5 - L'image de l'Espagnol

Le peuple marocain dans son ensemble avait dans la première moitié du XX<sup>e</sup> siècle une image défavorable de l'Espagnol. Au sud, on le taxait dérisoirement de «fauché», au nord de «raccommodé»<sup>(15)</sup>. Harris rapporte une anecdote piquante à cet égard : Raissouni, dont les accolytes avaient fait prisonniers des Espagnols, leur lança avec mépris : «je vous ai ordonné de capturer des chrétiens et vous m'avez apporté des Espagnols»<sup>(16)</sup>. Il est vrai qu'une telle interjection traduit un grand mépris à l'égard de ses voisins d'outre-détroit, mais en fait il faut l'attribuer à une vérité très crue : les Espagnols étaient trop pauvres pour pouvoir payer la rançon.

Au cours de mes recherches, je ne voulais pas m'en tenir uniquement à ces deux stéréotypes courants de «fauché» et de «raccommodé», d'autant que je pouvais découvrir d'autres éléments intéressants de l'image. C'est pourquoi j'ai entrepris une tournée dans le Rif, en novembre 1979.

J'ai effectué un sondage, soit directement, soit indirectement - grâce à la diligence de Mr. Lemsittef, alors Directeur de Cabinet du gouverneur de Nador, auprès de près de 300 personnes. Je dois préciser d'emblée que les Rifains que j'ai ainsi approchés n'ont pas compris dans l'ensemble le sens de ma question. Il est vrai aussi, à leur décharge, que je ne réussissais pas moi-même à la centrer sur l'image. Le résultat est que dans la grande majorité des cas, j'obtenais plutôt

(15) A la vérité, j'ai traduit ces deux mots d'arabe marocain dialectal, et surtout le premier, dans un souci d'euphémisme. Quant au second stéréotype, plus en particulier, je l'ai ramassé dans un seul terme, alors qu'il signifie littéralement : «celui dont l'habit porte un raccommodage»

(16) Walter B. Harris. *Morocco that was*. London, Blackwood, 1921 ; p. 246.



des opinions sur le colonialisme espagnol : près de 80 % des gens interrogés ont exprimé à son endroit une opinion défavorable. Le reste était soit mitigé (autour de 13 %), soit favorable (7 %).

- Pour ce qui est des réponses défavorables, voici les remarques les plus significatives que j'ai recueillies : le colonialisme était extrêmement répressif, il se comportait de la même manière que le maître se comporte avec son esclave ou son serviteur. Il était arrogant, sauvage, inhumain insultant haineux, raciste, discriminatoire, mystificateur ; le colonialisme espagnol était le plus dur qui fût. Il ne nous donnait ni l'enseignement ni le pain. Il exploitait nos richesses. A retenir plus en particulier ce propos frappant = le colonialisme espagnol a détruit la solidarité tribale.

- Pour ce qui est des réponses favorables : les Espagnols ne nous faisaient pas de mal, ils ne commettaient jamais de viols.. Les militaires espagnols te laissent moissonner même si tu es un soldat. Les Espagnols ont planté des noix et construit des routes. Ils ont supprimé les guerres qui existaient entre les tribus.

- Pour ce qui est des réponses mitigées : les colonialistes étaient à tour de rôle doux et répressifs. Ils se comportaient bien avec les notables et mal avec les pauvres. L'Espagnol était comme un lion : on ne pouvait qu'avoir peur de lui. Il était le maître, et on se pliait à sa volonté.

Nous avions peur de l'Interventor, mais pas de l'Espagnol pauvre. Après 1927 (date de la fin de la «pacification») il n'y avait plus d'exactions de la part des Espagnols. Le colonialisme n'était pas dur avec ceux qui se tenaient tranquilles.

Mais je m'empresse de préciser que j'ai pu, ça et là parmi ces opinions, déceler une imagerie populaire d'une certaine richesse, à part le «raccommodé», boudniquit en rifain, qui est une image assez répandue : l'infidèle, le mangeur de grenouilles, l'homme qui est aussi pauvre que moi, le chien, le nu, mais aussi le lion - ambivalence oblige-ce qui est intéressant à noter, c'est que un certain nombre de personnes ont renversé ma question : ils m'ont donné l'image que l'Espagnol se faisait d'eux : pour lui ils étaient des ânes (burros) les moros<sup>(17)</sup>, les non civilisés. Ce qui nous amène à une dynamique de l'image qui fait qu'il y a une interaction entre l'image que se fait le marocain de l'Espagnol et vice versa : je le hais, parce qu'il me hait et je le méprise parce qu'il me méprise etc.

Je dois enfin mettre l'accent sur un phénomène très symptomatique que j'ai déjà relevé (superficiellement il est vrai) et qui tient dans cette formule : «l'Espagnol est aussi pauvre que moi ; moyennant quoi il y a une dépréciation

(17) Le «moro» c'est-à-dire le «maure» est le terme extrêmement péjoratif, par lequel les Espagnols désignent l'Arabe en général, et le Marocain en particulier.

Southern et Daniel affirment : «Aujourd'hui encore, dans nos campagnes andalouses, on donne le nom de «maure» à l'enfant qui n'est pas encore baptisé» - *Idea de la Hispanidad*. Madrid, Espasa-Calpe. 1961 - cités par Juan Goytisolo. *Chroniques sarrasines*. Paris, Fayard, 1985 ; p. 9.



parallèle de moi-même et de l'Espagnol, dont on doit comprendre nécessairement que ce dernier n'a pas le droit de se comporter en maître vis-à-vis de moi». Nous retrouverons cette image au sein des patriotes de la zone.

Voici pour l'image - je dirais populaire - de l'Espagnol. Mais qu'en était-il de celle que se faisait le patriote marocain de la zone nord, de son hispanique protecteur ?

Je dois souligner d'emblée que la sociologie m'a appris que l'individu vit en société, et que quelles que soient son degré de conscience et sa culture, il ne peut pas ne pas subir l'influence de son milieu. C'est dire que à priori, il devait faire sienne l'image populaire de l'Espagnol que j'évoquais à l'instant.

Mais pour affirmer mon propos, je dois dépasser ce postulat et essayer de déterminer jusqu'à quel point cette image s'est imposée à lui, à l'instar de toutes les autres contraintes sociales auxquelles il était astreint.

De 1975 à 1982, j'ai effectué des interviews auprès d'un grand nombre de patriotes de la zone, de même que de l'ex-Protectorat français au Maroc. Je dois indiquer d'emblée que je n'ai presque pas recueilli chez eux d'images populaires de l'Espagnol, telles que celles dont je viens de faire état. Peut-être voulaient-ils conserver à nos entretiens un certain niveau de respectabilité. Leurs réponses étaient dans une très large mesure l'expression d'opinions fines et élaborées. Par moments, j'avais le net sentiment que mes interlocuteurs me donnaient un cours circonstancié sur les caractères nationaux de l'Espagnol. Mais nous verrons que le facteur idéologique, c'est-à-dire l'indémontrable, n'était pas en reste, tant s'en faut, dans leurs développements. Je classerai les réponses obtenues auprès des patriotes en deux catégories : défavorables et favorables, tandis que je passerai sous silence les opinions mitigées pour une raison très simple : n'ayant recueilli en fait que des opinions mitigées, j'ai pris soin de n'en relever que ce qui me semblait pertinent soit dans un sens, soit dans un autre, sans avoir à spécifier à chaque fois que dans l'image l'élément favorable l'emportait sur l'élément défavorable, ou vice-versa.

Les Espagnols considéraient les Marocains comme moins que rien et ce ne sont que les circonstances qui les obligèrent à adoucir leur comportement avec eux<sup>(18)</sup>. De plus, il eut cette phrase significative qui mérite d'être rapportée : voici comment les Espagnols se comportaient avec les nationalistes marocains : ils leur serraient la main, d'une main, et de l'autre ils leur plantaient une arme sur le dos en leur disant : «ou tu collabores, ou j'use de mon arme»<sup>(19)</sup>.

Autrement, l'Espagnol représentait pour l'immense majorité de la population le chrétien, l'occupant. C'est-dire qu'il lui renvoyait une image très défavorable. Fkih Daoud se contenta ainsi de se faire l'écho de la «voix populi», mais il

---

(18) Interview du 9 décembre 1975.

(19) *ibid*

est fort probable qu'il partageait avec le peuple cette manière de percevoir l'Espagnol.

Pour sa part, M'Hamed Douiri pense que l'Espagne se considérait en guerre permanente contre le Maroc. Selon lui, le facteur religieux jouait un rôle primordial et qu'on n'était pas loin alors des croisades et de la guerre Sainte<sup>(20)</sup>. Par comparaison avec le Français, l'Espagnol, d'après lui, «plus pauvre, est plus enclin à s'intégrer ou à côtoyer l'indigène, et cela, même si sur le plan religieux, il a un mépris atavique pour les Marocains»<sup>(21)</sup>.

Usant du terme «moro» dont l'Espagnol caractérisait le Marocain, M'hamed Douiri nous donna aussi l'impression qu'il a renversé l'image et qu'il a préféré faire état davantage de l'«idée» que les Espagnols se faisaient de ses compatriotes.

Mohammed El Khatib, quant à lui, estima que l'image de l'Espagnol était nettement plus défavorable que favorable. Il me fit valoir que les Espagnols concurrençaient les Marocains jusque dans les «plus basses besognes»<sup>(22)</sup>, et notamment dans celui d'éboueur. Dans ces conditions poursuivit-il, son compatriote se posait cette question : «ce type peut-il me commander ?»<sup>(23)</sup>.

Certes, mon interlocuteur admit qu'il existait entre les peuples marocain et espagnol des liens émotionnels, mais il s'empessa d'ajouter : «on méprisait l'Espagnol parce qu'il occupait notre pays»<sup>(24)</sup>.

Taïb Bennouna résuma l'image qu'il se faisait des Espagnols, en ces termes : «ils n'étaient pas meilleurs que nous»<sup>(25)</sup>, sachant qu'il y avait parmi eux «des ramasseurs d'ordures, des bergers, des cireurs»<sup>(26)</sup>. Pour illustrer son propos, il nous fit part de cette anecdote : «quand les militaires espagnols marchaient dans la rue, les enfants leur jetaient des ordures»<sup>(27)</sup>. Fkih Tangi et Hassan Ben Abdelwahab me racontèrent cette historiette qui avait semble-t-il du succès au moment de l'entrée des Espagnols dans la zone nord en 1912 - 13 : «avec le colonialisme anglais, tout le monde mange la vache ; avec le colonialisme français, seuls les Français la mangent ; tandis que les Espagnols voyant le Marocain fumer le kif, il viennent tirer une bouffée de son sebsi»<sup>(28)</sup>. Constatant que l'Espagnol n'était pas de condition économique supérieure à la sienne, le Marocain en arrivait ainsi à éprouver du mépris tout à la fois pour soi-même et pour l'Espagnol, selon un parallélisme que j'avais déjà noté au

---

(20) Interview du 21 avril 1976.

(21) Ibid.

(22) Interview du 10 décembre 1975

(23) Ibid

(24) Ibid.

(25) Interview du 9 décembre 1975

(26) Ibid

(27) Ibid

(28) interview du 7 avril 1976;



préalable. Mais il est bien évident que cette auto-dépréciation et cette image défavorable de l'Espagnol n'étaient pas dénuées d'ambivalence, dans la mesure où l'on n'éprouve pas que de l'antipathie pour ceux qui nous ressemblent.

#### a) Témoignages

Hassan Masmoudi m'indiqua qu'il y eut huit siècles de cohabitation arabo-espagnole et que de ce fait, il y eut entre eux une certaine «communauté de sang»<sup>(29)</sup>. Les Espagnols avaient en outre «à ses yeux», le mérite d'être sociables. Mais il rectifia aussitôt son affirmation : «il y avait cependant les impératifs de la politique»<sup>(30)</sup>.

Mohammed Azzimane me fit remarquer que les Espagnols, n'étant pas racistes, avaient quelque chose de la noblesse arabe<sup>(31)</sup>.

Mehdi Bennouna, quant à lui, se faisait une image plus favorable que défavorable de l'Espagnol : «avec eux, il y avait le flux et le reflux, mais en dépit des circonstances nous restions amis, il y avait entre nous de la compréhension»<sup>(32)</sup>. Mekki Naciri, pour sa part, m'affirma : «l'Espagnol est familier, modeste, pas vaniteux, il sait que l'Arabe a dominé l'Espagne. Il n'a pas de complexe de supériorité»<sup>(33)</sup>. Voici en effet une situation unique en son genre dans l'histoire de l'humanité : un pays de l'hémisphère nord occupe un pays du sud, disons un pays du Tiers monde, qui a lui-même, des siècles plus tôt, dominé ce pays du nord. Cet état de fait - objectif - ne pouvait pas ne pas avoir une incidence sur l'image que l'on se faisait de l'Espagnol. Il rehaussait l'opinion que l'on avait de soi-même de même qu'il permettait de voir de haut l'occupant étranger.

Pour me résumer, je rappellerai que le patriote citadin de la zone nord se faisait une image nuancée de l'Espagnol, mais qui reste dans l'ensemble défavorable.

Il va sans dire que je n'ai reproduit dans ce papier que ce qui me semblait digne d'être rapporté, parmi les dizaines d'interviews que j'ai effectuées autour de cette question d'image, et que bien entendu j'ai fait abstraction dans le même entretien de ce qui me paraissait inintéressant. Mais je dois préciser que les réponses que j'ai recueillies sont largement représentatives des opinions exprimées<sup>(34)</sup>.

---

(29) Interview de mars 1976

(30) Ibid

(31) Interview du 4 avril 1976

(32) Interview du 14 février 1976

(33) Interview du 29 novembre 1975.

(34) Contrairement au sondage que j'ai effectué dans le Rif en novembre 1979, les interviews que j'ai menées auprès des nationalistes, sur cette question d'image, ne constituaient pas à proprement parler un sondage d'opinion, n'ayant pas atteint ce qu'on appelle «la loi des grands nombres»;



A la vérité, ce souci de nuance de la part du patriote, ne m'étonne guère car il est presque par définition un intellectuel, qui « mesure ses mots ». Une fois que j'ai établi l'image, je vais m'afforcer de préciser son rôle dans les développements du mouvement nationaliste marocain de la zone nord.

## **II - L'INFLUENCE DE L'IMAGE DE L'ESPAGNOL DANS LES DEVELOPPEMENTS DU MOUVEMENT NATIONALISTE MAROCAIN DE LA ZONE NORD**

La question qui se pose est en clair la suivante : est-ce que l'image de l'Espagnol a été un facteur du nationalisme dans le Maroc Khalifien ? Si oui, a-t-elle joué un rôle d'accélérateur ou de frein pour le mouvement ; ou au contraire a-t-elle été de peu d'incidence sur l'action patriotique de la zone, dans la mesure où les circonstances auraient été d'un plus grand poids ?

La réponse est malaisée car l'histoire du Maroc « espagnol » a vécu sur deux rythmes différents selon que le colonialisme était répressif ou non. Si pour ce qui est de la « période dure », l'explication peut être rondement menée en ce que à la « politique du bâton » des autorités correspondait une image défavorable de l'occupant étranger, ceci expliquant cela ou l'inverse, en revanche, les périodes de conciliation, d'entente et de collaboration - que je nuancerai par la suite - posent quelques problèmes méthodologiques, en ce que l'image de l'Espagnol, défavorable, comme je l'ai indiqué plus haut, allait à contre-courant, en quelque sorte, de l'histoire. Cette constatation première m'amène ainsi à cette problématique : S'il est vrai qu'à la période de répression coloniale, il correspondait une image défavorable de l'Espagnol, quel type d'image était en « vigueur » pendant les périodes de collaboration ? Était-elle favorable ou au contraire défavorable ?

En d'autres termes, l'hypothèse que je dois démontrer est-elle différente de la suivante : dans le cas où l'image aurait été défavorable, même durant ces périodes de conciliation, est-ce que ce phénomène tient précisément au fait que le colonialisme espagnol était toujours égal à lui-même et que même durant les phases de coopération relative, il demeurerait répressif ou tout au moins mystificateur ?

En fait, oui et non ; oui parce que cela revient à ne considérer l'image de l'Espagnol que comme une conséquence de la politique coloniale ; et non dans la mesure où une telle éventualité constitue une sorte de préalable à une autre question : si les patriotes ont eu toutes les raisons - y compris la répression espagnole - de développer une image défavorable, alors quelle action celle-ci a pu avoir sur les développements du mouvement nationaliste ? En d'autres termes, est-ce que cette image défavorable a infléchi dans un sens ou dans un autre les menées patriotiques de la zone ?

### **A/ Quel type d'image était valable pendant les périodes de collaboration ?**

Après la « pacification », qui ne s'est pas déroulée sans exactions, la zone nord

a connu des ères successives d'entente relative entre les autorités coloniales et le mouvement nationaliste, en 1931 - 36, en 1936 - 39 et enfin en 1953 - 56.

Je m'attellerai donc à l'image de l'Espagnol chez le patriote marocain, à ces trois périodes, en évitant autant que je puisse de reprendre ce que j'ai déjà développé dans d'autres écrits<sup>(35)</sup>.

### 1 - L'image de l'Espagnol chez le patriote de la zone, sous la République (1931 - 36)

La proclamation de la République en Espagne suscita au sein des nationalistes de la zone un espoir considérable, dans la mesure où ils croyaient que le vent des réformes qui allait souffler sur la péninsule ne pouvait pas ne pas toucher le protectorat espagnol. Il s'ensuivit une certaine coopération entre les autorités et eux-mêmes, qui était accompagnée par des mesures spectaculaires telles que notamment l'organisation d'élections municipales libres et la nomination de Abdelkhalek Torrès à la tête de l'Administration des Habous. Et à y regarder de plus près, l'on pourrait même déceler dans certains documents l'apparition d'une sorte de «micro-image» favorable de l'Espagnol, à l'instar du «micro-climat»<sup>(36)</sup>.

Mais les patriotes de la zone déchantèrent très vite : les autorités dissolurent les conseils municipaux, A. Torrès dut démissionner de son poste, et qui plus est, les autres réformes qu'ils réclamaient ne furent pas réalisées. Le premier «pro-consulat» de Juan Moles, de janvier 1933 à janvier 1934, fut assez pénible pour les patriotes : dans le brouillon non daté d'une lettre de Mhammed

(35) Ayant en effet consacré de longs commentaires à l'esprit de conciliation relative qui a régné parfois entre les autorités espagnoles et les patriotes dans la zone, d'abord dans ma thèse : *Contribution à l'étude du mouvement nationaliste marocain dans l'ancienne zone nord du Maroc (1930 - 36)* Fac. de Droit de Casablanca 1983, 466 p. et ensuite dans mon ouvrage : *Approches du colonialisme espagnol et du mouvement nationaliste marocain dans l'ex-Maroc Khalifien* - Rabat - Okad, 1988, 290 p., j'ai jugé utile d'éviter des redites fastidieuses, qui tournent au ridicule à force de les reprendre quasi textuellement dans mes modestes articles c'est pourquoi d'ailleurs, je ne ferai état ici que de ce qui illustre l'image de l'Espagnol, durant ces trois périodes.

(36) N'ayant pas l'intention de développer largement cette idée, je me contenterai de me faire l'écho ici de certains éléments de cette image favorable de l'Espagnol, sous la République : Abdelkhalek Torrès, déclara dans sa conférence au Teatro español à Tétouan, le 19 septembre 1935 ce qui suit : «... nous désirons collaborer avec le Gouvernement pour réaliser nos objectifs communs... nous déclarons que notre nationalisme est pacifique... Notre amitié et notre adhésion à l'Espagne sont aujourd'hui les mêmes qu'hier... Nous sommes hispanophiles et nous sommes appelés à être unis à l'avenir...», le leader tétouani fit valoir ce qui suit dans une interview au journal *Al Akhbar* en date du 22 mars 1936...» je suis absolument convaincu que le peuple espagnol est bon et qu'il est l'ami naturel du peuple marocain, avec lequel il entretient de très nombreuses relations et je déplore que ce peuple ne soit pas au courant de la question marocaine et de ses espoirs nationaux...» cf. *Contribution à l'étude du mouvement nationaliste... op. cit.* pp. 109, 110 et 117 Certes, mon sentiment est que Torrès ne fait étalage de ses bonnes dispositions à l'égard de l'Espagne qu'à titre tactique, mais allez faire de l'introspection dans l'esprit des autres !



Bennouna à Chakib Arsalane, je retiens cette phrase : «vers la fin de la période de l'ancien commissaire Moles, on a tenté fortement d'anéantir notre mouvement»<sup>(37)</sup>.

Il convient, en outre, de reproduire ici quelques extraits d'un mémoire sur la situation de la zone au début de 1936, adressé par Abdelkhalek Torrès au Président du Conseil espagnol Azaña : «on méconnaît les droits sacrés du peuple marocain qui ne constitue pour le gouvernement qu'un troupeau d'êtres humains sans opinion, qu'il gouverne par la force... L'impunité des gouvernants est d'usage, elle couvre même les actes les plus barbares et les plus inhumains et elle concerne aussi les autorités indigènes que l'Espagne a choisies parmi les anciens guerriers... les indésirables et même les illettrés.. l'Espagne en signant les traités internationaux relatifs au Maroc, et en s'installant dans ce pays, en tant qu'Etat protecteur, a pris l'engagement de conduire le peuple marocain vers son indépendance, mais les agissements des autorités espagnoles dans ce pays, sont en contradiction formelle avec ledit engagement...»<sup>(38)</sup>.

Il est de fait que l'image de l'Espagnol ne peut découler que d'une manière indirecte et imparfaite de ces documents, mais la simple lecture des griefs dont Torrès fait état, permet de mesurer comment était important le dépit ou la déception des patriotes, à supposer évidemment que l'image qu'ils se faisaient des Espagnols était favorable (ce qui vraisemblablement n'était pas le cas), ou au contraire leur rancune à l'endroit de ces derniers, dans le cas où ils ne se faisaient pas d'eux au départ une haute idée ; ce qui semble plus probable.

## **2 - L'image de l'Espagnol chez les patriotes de la zone, durant la guerre civile espagnole (1936 - 39)**

La guerre civile espagnole, offrit aux patriotes et aux autorités une nouvelle opportunité d'entente, plus étoffée, car cette fois-ci, il y avait une contrepartie marocaine objective : la participation de mercenaires du protectorat dans le conflit. Mais comme sous la République, les nationalistes furent déçus, et peut-être plus amèrement encore.

Ainsi la création du Parti des réformes nationales (PRN) que les nouvelles autorités militaires autorisèrent, fut contrebalancée par l'apparition du Parti de l'Unité marocaine (PUM), selon le vieux principe «diviser pour régner». De même que les Espagnols mirent toutes sortes d'entraves au développement du nationalisme marocain dans la zone, et notamment dans les tribus<sup>(39)</sup>. Il est vrai qu'un certain nombre de réformes furent introduites dans la zone et que certains avantages furent accordés aux patriotes marocains, tels que l'arabisation de l'enseignement officiel, la promotion de l'enseignement libre, l'envoi de groupes d'élèves ou d'étudiants en Egypte et en Espagne, l'autonomie de la

(37) Ibid p. 100.

(38) Ibid p. 115

(39) Ibid p. 157 et s.



justice islamique et des Habous la nomination de Abdelkhalek Torrès au poste de Ministre des Habous etc... Mais il n'en demeure pas moins que les patriotes exprimèrent à plusieurs reprises leur mécontentement ou leur dépit ; et cela soit parce que les réformes n'étaient pas sincèrement appliquées, soit parce qu'ils s'attendaient de la part des Espagnols à plus important, c'est-à-dire à l'indépendance ou tout au moins à l'autonomie de la zone.

#### a) Protestations des patriotes au sujet du caractère inachevé des réformes

- A peine installé dans ses nouvelles fonctions de Ministre des Habous (il a été nommé le 19 décembre 1936), Abdelkhalek Torrès a, pour arracher aux autorités espagnoles une plus grande liberté de manœuvre<sup>(40)</sup>, donné sa démission, en guise de menace, mais ces dernières l'acceptèrent.

- Thami El Ouezzani, rédacteur en chef du journal «Errif», arrêté le 7 novembre 1937 et libéré le lendemain pour avoir publié un violent réquisitoire contre le caïd des Akhmas, fit paraître un article dans son journal le 9 novembre, où il est déclaré que l'attitude des autorités espagnoles à l'égard des marocains a nettement changé et que à la période des promesses a succédé celle de la rigueur et de l'oppression<sup>(41)</sup>.

- Sur ordre des autorités, le local du PRN de Chaouene a été fermé début octobre 1937.

- Un article intitulé «jusqu'à quand tournerons-nous comme l'âne de la noria ?» publié dans le journal «Errif» du 3 mai 1937, critique sévèrement la politique espagnole au Maroc : «le maître européen administre le pays selon son bon plaisir... et quelque soit le régime politique de l'Espagne, les méthodes restent les mêmes»<sup>(42)</sup>.

- Un autre article d'«Errif» du 2 juillet 1937 s'en prend aussi bien aux Français qu'aux Espagnols : «la France méprise et oppresse les Marocains tandis que l'Espagne, occupée par la guerre civile, laisse tout dans l'abandon... Français et Espagnols sont réservés et malintentionnés à notre égard. Qu'ils sachent donc que les libéraux marocains souhaitent l'indépendance et ne veulent d'aucun colonialiste. Les politiciens espagnols se tromperaient s'ils croyaient pouvoir se passer du concours des nationalistes les plus doués et les plus valeureux»<sup>(43)</sup>.

(40) Fkih Daoud m'affirma à cet égard ce qui suit : «en lui attribuant ce poste les Espagnols croyaient pouvoir le lier mais Torrès voulait affirmer sa personnalité... il a voulu imposer sa volonté aux Espagnols mais cela n'est pas possible...

Torrès voulait réaliser des réformes mais les Espagnols ont refusé. «Interview du 25 octobre 1977. Taïb Bennouna est du même avis : «l'autonomie des Habous accordée par les Espagnols était une autonomie de pure forme» Interview du 29 décembre 1977.

(41) Contribution à l'étude du mouvement nationaliste... op. cit. p. 156.

(42) Ibid ... p. 156.

(43) Ibid ... p. 157.

• El Horria du 9 août 1937 reproduit un discours de A. Torrès à Rio Martin, dont j'extrais les passages suivants : «le Gouvernement du Protectorat prétend nous avoir accordé les libertés acquises ; en fait ces libertés restent très limitées. Le protectorat, pour être logique avec lui-même, doit réaliser ses promesses»<sup>(44)</sup>.

• La revue égyptienne «Ettaj Misri» publie la déclaration suivante du Leader tétouani, en date du 11 novembre 1938 : «la zone espagnole jouit d'une certaine liberté inconnue en zone française. Cependant, il ne suffit pas qu'en nous laisse quelques libertés et qu'on réponde à certaines de nos revendications pour que nous soyons automatiquement contents de l'œuvre de l'Espagne. Nous luttons de toutes nos forces pour réaliser la totalité de nos revendications et parvenir à l'autonomie de la zone. Nous ne nous laissons pas leurrer par les promesses, il nous faut la reconnaissance de nos droits, des actes décisifs, des réformes»<sup>(45)</sup>.

#### **b) Promesses espagnoles quant à l'indépendance ou tout au moins à l'autonomie de la zone**

Dans les deux derniers documents, Torrès parle des promesses espagnoles. De quoi s'agit-il ?

Pour prix de la participation de soldats marocains à la guerre civile espagnole aux côtés des Franquistes, Queipo de Llano annonça à Radio-Séville, le 11 octobre 1936 cette nouvelle : «un projet est étudié pour donner à la zone espagnole du Maroc son entière autonomie, l'Espagne se réservant l'intervention militaire pour la défense du pays et certains avantages commerciaux»<sup>(46)</sup>.

En outre, le Général Franco déclara à l'Alcazar de Séville, à une délégation de pèlerins marocains à leur retour des Lieux Saints de l'Islam, en avril-mai 1937, ce qui suit : «En ces moments nouveaux du monde, lorsque surgit un danger pour tous, celui des hommes sans foi, tous les hommes ayant la foi s'unissent pour combattre ceux qui ne l'ont pas. Vous, musulmans, qui faites cette manifestation de foi, êtes ceux qui comprennent le mieux notre lutte... lorsque les rosiers de la paix fleuriront, nous vous donnerons les plus belles roses...»<sup>(47)</sup>.

J'ai toujours compris de ces deux déclarations des Généraux Queipo de Llano et Franco qu'elles ne signifiaient rien d'autre que des promesses d'indépendance

---

(44) Ibid... même page

(45) Ibid p. 153.

(46) Ibid p. 152.

(47) «En estos momentos nuevos del mundo, cuando surge un peligro para todos, que es el peligro de los hombres sin fe, es cuando se unen todos los hombres, con fe para combatir a los que no la tienen. Vosotros, musulmanes, que hacéis esta manifestacion de fe, sois los que mejor comprendéis nuestra lucha.... cuando florezcan los rosales dela paz, nosotros os daremos las mejores rosas» - In Tomas Garcia Figueras. «mystica y poesia del Alzamiento nacional en Marruecos» *Miscelanea de Estudios varios sobre Marruecos* Vol III, Tétouan, Editora Marroqui, 1953 ; p. 258.



ou sont au moins d'autonomie interne à la zone nord. Mais voici que Mohammed Ben Azzouz Haquim vient faire remarquer que les autorités franquistes n'ont jamais rien promis de tel aux Marocains<sup>(48)</sup>.

Cela est une contre-vérité car la déclaration de Queipo de Llano au sujet de l'autonomie que les Franquistes envisageaient ostentatoirement d'accorder à la zone est sans équivoque. Il est vrai que la promesse «fleurie» de Franco est vague, mais les patriotes du nord l'interprétèrent comme une promesse de libération ou tout au moins d'autonomie. Je dispose à cet égard d'une foule de documents qui attestent de cette affirmation mienne, mais je me contenterai de rappeler le discours précité de A. Torrès à Rio Martin, et son interview à la revue égyptienne «Attaj Misri», où le leader tétouani laisse clairement entendre que l'autonomie de la zone était bel et bien promise aux patriotes par les Franquistes, de même que de citer une lettre que Chakib Aarsalane lui adressa en date du 16 novembre 1936 et d'où je retiens les passages significatifs suivants : «... si on se met d'accord avec les nationalistes espagnols sur l'autonomie interne, c'est très bien, et c'est ce que nous avons compris de ta politique avec eux. J'étais d'accord avec toi si ce n'est que j'ai commencé à croire que la politique de Franco au Maroc consiste à geler la situation, en attendant sa victoire sur les Républicains ; après quoi, il reprendrait la politique anti-islamique. Si l'Espagne avait déjà accordé l'autonomie au Rif, on n'aurait pas regretté l'enrôlement de 35 000 Marocains... Je déplore la mort de ces soldats...»<sup>(49)</sup>. Cette lettre de Chakib Aarsalane d'une clairvoyance et d'une précocité rare (la lettre, ne l'oublions pas, date du 16 novembre 1936 soit à peine un mois après la déclaration alléchante de Queipo de Llano) traduit indirectement toute la déception des patriotes du Maroc Khalifien qui se jugeaient trahis par les Franquistes. Ils durent se rendre compte très vite que le sang marocain était vainement versé dans la guerre civile. Et leur désenchantement était d'autant plus grand que leurs espoirs étaient importants. Pourtant des manifestations de compréhension mutuelle ne firent pas défaut durant les premiers mois du conflit<sup>(50)</sup>, où l'on aurait pu croire que l'image de l'Espagnol était en train de se rehausser aux yeux des nationalistes marocains. Mais dans l'ensemble, cette image s'est davantage détériorée à l'issue de la guerre civile, où ces derniers se rendirent compte que les promesses franquistes n'étaient que purs mensonges.

(48) *Al Wataik Al Ouatania* n° 3 - 4 Tétouan, sept - décembre 1988 ; p. 19 (en arabe)

(49) *Approches du colonialisme espagnol et du mouvement nationaliste marocain dans l'ex-Maroc Khalifien*, op. cit. p. 125

(50) à noter à titre d'exemple, la tenue à Tétouan, à partir du 21 octobre 1936, du Congrès de l'«Association des Etudiants musulmans nord africains» (AEMNA), en présence du Khalifa et de Beigbeder et au cours duquel Torrès, Taïb Bennouna et Thani El Ouazzani notamment, prirent la parole pour chanter les mérites de «la politique du gouvernement de Burgos, en opposition avec la politique française d'oppression et de colonialisme...» *Contribution à l'étude du mouvement nationaliste...* op. cit. p. 151.

Il y eut de nombreuses autres opportunités de satisfaction pour les patriotes, mais je les passerai sous silence dans cet article, faute de place.



### c - La collaboration maroco-espagnole en 1953 - 56

Après l'exil de Feu Sa Majesté le Roi Mohammed V par les colonialistes français, les autorités du Protectorat espagnol prirent une attitude manifestement favorable à la cause du Maroc. Non seulement, elles firent savoir qu'elles n'approuvaient pas la déposition du Souverain Légitime, mais elles fermaient les yeux sur les opérations anti-françaises que les résistants ayant fui la zone du Protectorat français menaient à partir du Maroc «espagnol». Donc en bonne logique, les patriotes auraient dû alors se faire une image de l'Espagnol nettement positive ou bienveillante. Or cela ne fut pas le cas car ils étaient bien placés pour connaître la position réelle des autorités espagnoles. Toutefois, ils furent quasiment contraints à une sorte d'alliance tactique avec les autorités espagnoles. Témoin le retour à Tétouan de Torrès, après trois ans d'«exil» à Tanger, la renaissance - autorisée par les Espagnols - du PRN, l'entrée du leader tétouani au gouvernement khalifien, comme ministre des affaires sociales<sup>(51)</sup>. Le Général Garcia Valiño, de par son attitude officiellement pro-marocaine, avait amené tout naturellement le mouvement nationaliste de la zone à une collaboration tout aussi superficielle que ses sentiments affichés de bienveillance à l'égard de la cause marocaine.

Au vrai, le soutien espagnol au Souverain exilé n'était qu'un appui de pure forme d'autant que le gouvernement de Madrid et le Haut-Commissariat à Tétouan ne croyaient pas que Feu Sa Majesté Ben Youssef pût jamais retourner au Maroc. En outre l'attitude des autorités espagnoles à l'égard de la résistance marocaine ne constituait peut-être qu'une sorte de pression sur les Français en vue d'obtenir un meilleur statut au Maroc<sup>(52)</sup>. D'ailleurs le Général Garcia Valiño était sur le point de reconnaître Ben Arafa, dans les jours qui suivirent de peu l'exil de Feu Sa Majesté Mohamed V. Une lettre du Ministre de la Défense espagnole, Antonio Barroso, en date du 7 avril 1957, à Mohammed Baraka, notabilité de Tétouan qui a joué un rôle important en faveur de la cause de son pays en ces années difficiles 1953 - 56, contient les informations précieuses suivantes : «... Autre jour, nous nous sommes réunis avec le Général M. Grandes, le Général Valiño bondit en reconnaissant que c'est grâce à vous... qu'il put éviter à l'Espagne de reconnaître Ben Arafa<sup>(53)</sup>».

De plus, l'attitude des autorités du Protectorat espagnol à la manifestation

(51) Ibid pp 192 et 209.

(52) J'attends que les Archives de l'Ancienne Direction Générale du Maroc et des colonies déposées, à Alcalá de Henares soient ouvertes, pour éclaircir davantage les buts véritables poursuivis par l'Espagne au Maroc, en 1953 - 56. C'est dire que la volonté espagnole d'obtenir un «meilleur statut au Maroc» comme je viens de l'indiquer ne représente pour l'instant qu'une hypothèse à vérifier.

(53) «... El otro día hemos reunido con el... general M. Grandes, General Valiño... Saltó Valiño reconociendo que Gracias a Vd., pudo evitar al reconocimiento de España a Arafa» - (traduction de l'auteur) - Contribution à l'étude du mouvement nationaliste marocain. op.cit... p. 197.

de la Hípica, le 21 janvier 1954, est des plus troubles, ces dernières ayant très vraisemblablement ce jour-là voulu couronner le khalifa comme roi d'une zone nord séparée du sud<sup>(54)</sup>.

Par ailleurs, je dispose de quelques éléments documentaires qui attestent que l'Espagne nourrissait en 1955 - 56 des ambitions sécessionnistes dans la zone. Sentant le danger, A. Torrès démissionna de son poste, de concert d'ailleurs avec Abdallah Guennoun qui avait pris en même temps que lui le portefeuille de la justice. Le Leader tétouani et le Patriarche tangérois durent d'ailleurs fuir à Tanger pour ne pas se compromettre avec les Espagnols. Le retour d'exil du Souverain légitime et la reconnaissance de l'indépendance du Maroc surprirent les Espagnols, qui étaient très loin de croire à de telles éventualités<sup>(55)</sup>..

Les événements sanglants de Tétouan, de Larache et d'El Ksar El Kébir, les 4 et 5 mars 1956<sup>(56)</sup> sont là pour démasquer, s'il en est besoin, la véritable attitude de l'Espagne quant à la crise marocaine.

Moyennant quoi, l'Espagne perdit le capital de sympathie qu'elle avait gagné auprès du peuple marocain dans son ensemble, en liaison avec l'attitude ostensiblement favorable à la cause du Maroc qu'elle prit en ces années 1953 - 56. Le machiavélisme et l'esprit de mystification des autorités coloniales de Tétouan et de Madrid ne pouvaient que détériorer encore plus l'image de l'Espagnol chez les patriotes de la zone.

Une fois que j'ai montré que l'image de l'Espagnol chez les patriotes de la zone nord, est restée défavorable, même durant les périodes de conciliation relative ayant existé entre les colonialistes et les nationalistes, je me dois de voir dans quelle mesure cette image a infléchi le nationalisme dans le Maroc Khalifien.

**B/ Est-ce que l'image défavorable de l'Espagnol a infléchi dans un sens ou dans un autre l'action patriotique marocaine dans la zone nord ?**

Il serait nécessaire, avant d'essayer de répondre à cet question de rappeler que je n'ai réussi en fait à enregistrer auprès des patriotes de la zone nord qu'une opinion de l'Espagnol très fortement intellectualisée, et sans commune mesure avec l'image telle que je l'ai définie plus haut, et qui est infiniment plus proche de stéréotype que de l'opinion, largement réfléchie.

J'aurais pu insister auprès des nationalistes de la zone que j'ai approchés, afin de cerner davantage l'image - stéréotype qu'ils se faisaient de l'Espagnol, durant l'histoire du Protectorat. Mais peut être en fin de compte était-il pour

---

(54) *Ibid* p. 199 et s.

(55) *Ibid* p. 447 et s.

(56) Des manifestations de joie dans ces trois villes, à la suite de l'annonce de la proclamation de l'indépendance du Maroc, furent réprimées dans le sang par les autorités espagnoles.



moi plus préférable de recueillir une «image-opinion» qu'une image «stéréotype», et cela pour les raisons que je vais essayer de simplifier comme suit : avec l'image pure, l'on se place carrément dans l'infinitésimal et l'impondérable, avec tout ce que cela comporte comme difficultés méthodologiques. En effet, comment établir la distinction entre les actions nationalistes dues à l'influence du stéréotype et celles qui en sont indépendantes d'autant que ce stéréotype - à supposer qu'il ait en un rôle - n'est pas le seul facteur du patriotisme ? Il est bien évident que ce vaste mouvement social ayant nom nationalisme avait des motivations autrement puissantes (religieuses, économiques, politiques voire existentielles).

Comment isoler l'image et comment établir un lien de cause à effet entre elle et l'action nationaliste, telles sont donc les deux problèmes qui se posent au chercheur, et qui participent éminemment de ce qu'on appelle «l'explication dans les sciences humaines». Tout au plus réussira-t-on à dresser des corrélations de type qualitatif. C'est pourquoi, il valait mieux dès le départ se rabattre sur l'image-opinion, qui, elle, semble à priori plus malléable et plus commode, pour l'analyse.

**1 - «l'image-opinion» de l'Espagnol a-t-elle constitué une catégorie opératoire dans l'histoire du mouvement nationaliste de la zone nord marocain ?**

Si l'on écarte la période où a prévalu une sorte de coopération entre les colonialistes espagnols et les patriotes marocains de la zone, soit de 1931 à 1939, et de 1953 à 1956, pour définir celle où le Maroc khalifien a vécu sous un colonialisme dur, on obtient une longue séquence d'un seul tenant de 1939 à 1952. L'image de l'Espagnol, étant alors défavorable par définition, l'on pourrait partir de l'hypothèse que celle-ci aurait incité les nationalistes marocains à un durcissement voire à une radicalisation de leur position à l'endroit de l'occupant étranger ; d'ailleurs, j'ai même noté chez eux certaines velléités révolutionnaires, vers les années 1947 - 51. Je pourrais ainsi reprendre l'histoire du Protectorat ou du nationalisme marocain, de 1939 à 52, de façon à dresser un parallèle entre «l'image - opinion» et l'action patriotique. Cependant, encore une fois, je me trouve confronté à la nécessité d'isoler cette image, afin de mieux en mesurer la portée ou l'incidence. Mais celle-ci - quoique plus facilement individualisable que le stéréotype, sachant que ce dernier serait nettement plus actif dans l'inconscient de l'individu que dans le champ de sa conscience - est noyée parmi les éléments psychologiques, mentaux, intellectuels, affectifs etc... qui déterminent l'action politique nationaliste. L'«image-opinion» fait ainsi partie intégrante, et de manière indissoluble ou irréductible de cette structure cognitive et affective qui porte le nom de nationalisme ; et le fait que cette «image opinion» de l'Espagnol soit défavorable ne fait qu'entretenir une sorte de tautologie, en ce qu'elle fait justement partie du nationalisme.

D'un autre côté, si l'on devait poser nécessairement le problème du lien nécessaire entre cette image et le patriotisme, l'on arriverait de manière presque



grotesque à admettre toutes choses étant égales par ailleurs, que le nationalisme n'aurait été possible que si l'image de l'Espagnol avait été défavorable. Cela revient à supposer, a contrario, et à titre purement d'hypothèse, qu'il était possible qu'un patriote pût se faire une image ou une opinion favorable de la puissance étrangère qui subjugue son pays ; ce qui est peut-être tout aussi grotesque. Mais à la vérité, ces deux extrêmes peuvent très bien cohabiter dans le patriotisme, selon le mécanisme de l'ambivalence.

## CONCLUSION

Dans ce modeste papier, je me suis efforcé de définir l'image de l'Espagnol chez le patriote marocain de la zone, et je suis parvenu à l'idée que cette image était quasiment assimilable à l'opinion, alors que j'étais parti du principe que l'image était apparentée plutôt au stéréotype. J'ai mis en évidence dans l'élaboration de l'image de l'Espagnol deux idées qui mériteraient peut-être d'être soulignées. La première a trait à l'interaction qui existait entre l'image de l'Espagnol chez les Marocains et l'image du Marocain chez les Espagnols. Et la deuxième concerne le caractère dialectique de l'image-opinion, qui à l'inverse du stéréotype, rigide par essence, permettait aux patriotes de la zone d'avoir un point de vue nuancé sur l'Espagnol, qui pouvait refléter une image à la fois favorable et défavorable, et ce conformément à la thèse de Sylvaine Marandon. Puis j'ai cherché à identifier le rôle que cette «image-opinion» a pu jouer dans les développements du mouvement nationaliste marocain de la zone nord.

Je suis arrivé à la conclusion qu'elle fait partie intégrante du nationalisme et que, en tant que telle, elle a sûrement eu une incidence dans l'action patriotique. Mais j'ai fait observer qu'il était difficile de l'évaluer. L'idéal, bien évidemment, aurait été d'individualiser tous les facteurs du nationalisme, afin de pouvoir les comparer à l'effet de l'«image-opinion» de l'Espagnol qui aurait pu ainsi être cerné. Mais l'entreprise est quasiment impossible pour des raisons qui tiennent à la nature même des sciences sociales, qui rend extrêmement délicate l'explication. Cependant, il reste indéniable que cette opinion, défavorable, de l'Espagnol, devait aussi refléter ou traduire toutes les autres motivations du patriotisme. Etant en effet intellectualisée a comme je l'ai déjà souligné, cette image incarnait finalement l'attitude elle-même du patriote face au colonisateur, avec tout ce que cela comportait comme griefs, comme rancunes et comme manichéisme, à la base de toute action de ce type.



## L'IMPORTANCE DE CEUTA DANS LE RESEAU DU COMMERCE MEDITERRANEEN (XII<sup>e</sup> - XIII<sup>e</sup> SIECLES)

CHERIF Mohamed

Comme tous les ports, Ceuta se trouvait à la croisée des chemins de terre et d'eau<sup>(1)</sup>. Vers l'intérieur, l'itinéraire le plus fréquenté était celui de Ceuta - Fès (ou Fès - Ceuta) en passant par Tanger, Azila, Bašra et Qurt. Au XI<sup>e</sup> et XII<sup>e</sup> siècles, la liaison de l'intérieur avec le littoral méditerranéen se précise : le premier itinéraire était doublé par un deuxième qui partait directement de Ceuta à Fès via Zaġġān ? (Ouazzan ?) sans passer par Azila. Al Idrissī assigne une durée de sept journées à la première route et de huit journées à la seconde<sup>(2)</sup>. C'est par ces deux itinéraires que passait l'essentiel de la production de Marrakech<sup>(3)</sup> Fès<sup>(4)</sup> et de l'intérieur du Maroc vers Ceuta et la côte méditerranéenne en général.

Ainsi, Ceuta jouait le rôle de débouché principal de la région intérieure, riche et industrielle. C'était le principal débouché d'autant plus que les autres ports méditerranéens tels que Badis, Ghassassa, Melilla ou Meza ma - n'ont jamais pu atteindre - vu leur position géographique - l'importance de Ceuta et contrebalancer son attraction commerciale devenue très traditionnelle. C'était par Ceuta que passaient les itinéraires commerciaux qui unissaient Fès aux Baléares<sup>(5)</sup>. L'importance de l'axe Fès-Ceuta ne semble pas avoir diminué malgré la forte concurrence de l'axe Fès-Tlemcen via Taza. En revanche, il connaîtra une certaine diminution de son rôle au fur et à mesure de l'accroissement du nombre des routes vers le littoral Atlantique et d'importance que prendra cette façade à partir de l'époque Almohade, et surtout la zone comprise entre Salé et Safi (Fadala, Anfa, Mazagan). Ce changement n'affecta pratiquement pas la vie commerciale de Ceuta. Ses navires et ses marchands

(1) Cf. Braudel : *Médit.* I. 291

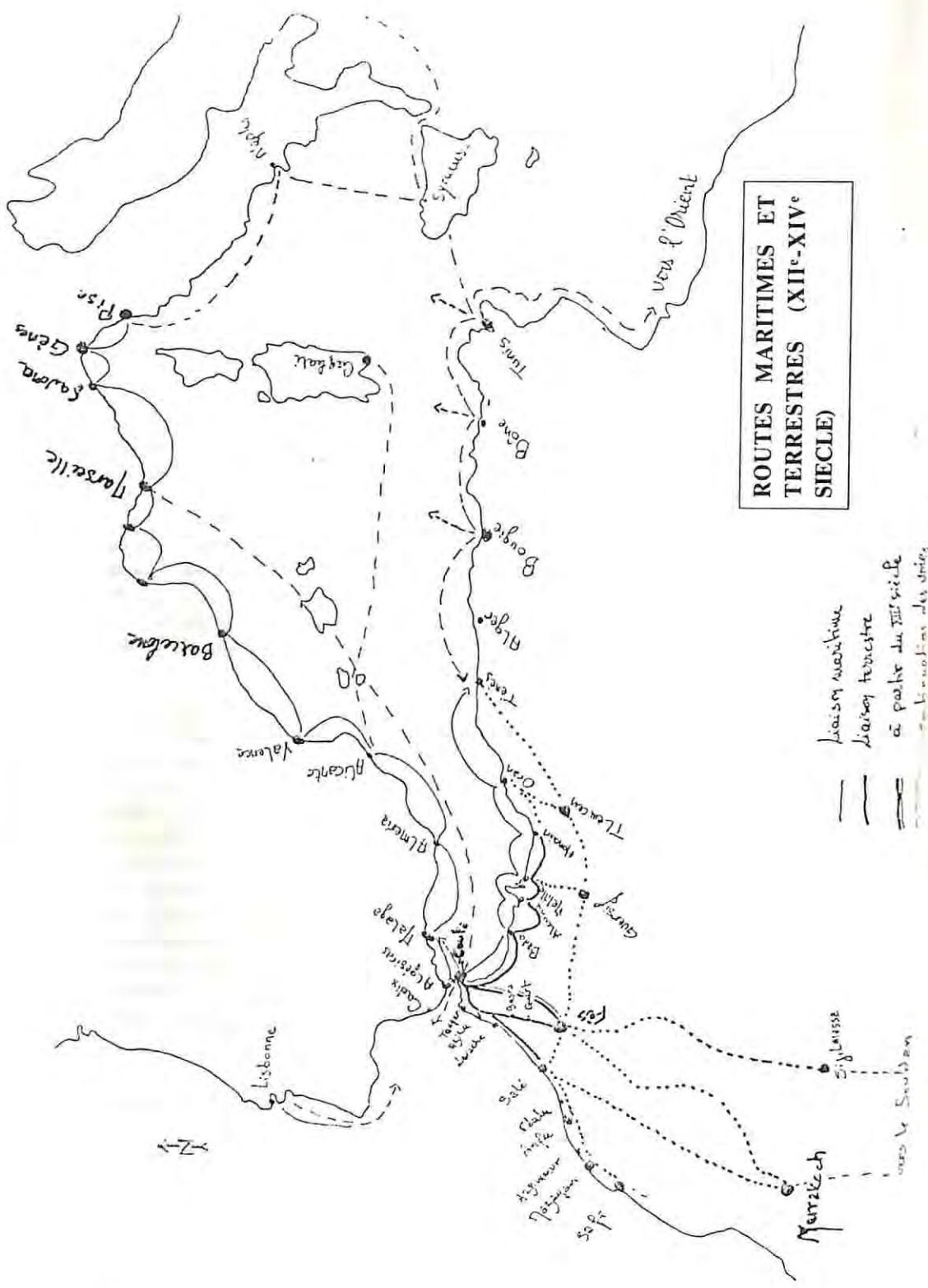
(2) Idrissī : 79 - 171 / 90 - 204, cf. Vanacher C. : *Géographie économique*, Annal ESC, XXVIII. 1973 (Les Cartes)

(3) Cf. Deverdun G. *Marrakech* I, 137.

(4) Cf. Roger le Tourneau : *Fez in The age of the Marinids*. Oklahoma 1961. Tr. arabe par Nicolas Ziyada, beyrouth 1967 p. 159.

(5) Dufourcq : *E.C.M.* 164





**ROUTES MARITIMES ET  
TERRESTRES (XII<sup>e</sup>-XIV<sup>e</sup>  
SIECLE)**

- liaison maritime
- liaison terrestre
- à partir du XII<sup>e</sup> siècle
- continuation des voies

étaient habitués depuis longtemps à aller chercher leurs marchandises sur les côtes Atlantiques avec lesquelles ils avaient instauré des relations commerciales de bonne heure. Au X<sup>e</sup> siècle, Ibn Ḥawqal nous fait savoir que les habitants de Baṣra naviguent sur la rivière Ṣafṣad et s'en servent pour transporter leurs marchandises - essentiellement le coton et le blé - à l'embouchure d'où ils tournent vers la mer méditerranéenne pour se rendre où ils le désirent<sup>(6)</sup>. Au XII<sup>e</sup> siècle, les céréales des plaines Atlantiques du sud d'Oum rbi' étaient acheminées par voie maritime jusqu'à Ceuta où elles trouvent un marché achalandé. Une *fatwa* est très caractéristique à ce sujet. Une cargaison de blé et d'orge fut confiée à Sufyan b. Ya'qūb à Mazagan pour l'amener à Ceuta. Arrivant à Ceuta la cargaison fut vendue à un meilleur prix sans le consentement de son propriétaire qui ne rejoignit que plus tard Sufyan<sup>(7)</sup>. Au XII<sup>e</sup> siècle ces liaisons étaient toujours aussi fortes. Ibn Sa'id est affirmatif : «c'est de Mazagan qu'on embarque du blé pour Ceuta et ailleurs<sup>(8)</sup>».

En fait, le cabotage entre Ceuta et les villes atlantiques était aussi actif qu'ininterrompu. Il était pratiqué par les musulmans aussi bien que par les commerçants chrétiens, bien que le passage du Détroit vers l'Atlantique ait été risqué à cause de fréquents brouillards, de courants très forts, de récifs et de changement de régime dans les courants et les vents<sup>(9)</sup>. Quoique la liaison entre Ceuta et l'Atlantique s'effectuait parfois par voie de terre<sup>(10)</sup>, le cabotage resta le plus utilisé. D'ailleurs, les navires chrétiens qui se rendaient ou venaient de l'Atlantique faisaient escale plus ou moins obligatoirement à Ceuta<sup>(11)</sup>.

Avec les bourgades et la façade méditerranéenne de l'Est, Ceuta était reliée par une double route : maritime et terrestre. La route maritime était la plus fréquentée grâce à un cabotage très actif auquel recouraient marchands, soufis ou simples voyageurs<sup>(12)</sup>. Le relief très accidenté de cette zone a largement avantagé la liaison maritime entre Ceuta, Badis, Melilla...

Avec la côte Andalouse, la liaison était aussi facile et constante depuis longtemps d'autant plus que le Détroit était plutôt un pont qu'une barrière entre les deux continents. Point de passage très traditionnel, la traversée pouvait, d'une des deux rives à l'autre, avec un vent favorable, s'effectuer en trois heures à peine<sup>(13)</sup>.

Enfin, très avantageusement située pour le commerce dans le bassin occidental de la Méditerranée, la ville de Ceuta jouait le rôle d'un point d'aboutissement

(6) Ibn Ḥawqal : *configuration* I 76 repris par Idrīssī : 202 Ibn 'Idārī : Bayān I, 103.

(7) Maḍāhib : fol 29<sup>th</sup> cf. Tādīlī : p. 198 (relations maritimes entre Salé et Ceuta)

(8) Ibn Sa'id : Kitāb al Gaḡrāfiya, 137

(9) Braudel : Médit. I. 107

(10) Cf. Al Ḥadramī : aṣ Ṣalṣal al 'aḍb : p. 43.

(11) Cf. Cenival : Description de la Côte d'Afrique p. 19

(12) Cf. par exemple Maḡṣad p. 95 - 103 sur le Cabotage en Méditerranée cf. Braudel : Médit. I 94 - 99.

(13) Lévi-Provençal : Hist. Esp. Mus. III 324. Tamerlan voulait savoir où se situe Ceuta dans le Maghreb : Ibn Ḥaldūn répondit... «sur le Détroit... c'est de là qu'on embarque pour l'Andalousie», cf. Voyage 321.



et de départ d'une ligne essentielle de navigation et de commerce méditerranéens. Elle n'était pas seulement «l'escale des navires venant d'Espagne»<sup>(14)</sup>, mais elle pouvait être le terminus d'un triple trajet : Gênes, la France, l'Espagne, et le point de départ (ou d'arrivée) pour un voyage longeant la côte septentrionale d'Afrique vers l'Orient. Des documents d'Archives Européennes nous montrent bien ce rôle de Ceuta dans le réseau de la navigation méditerranéenne. Un document de Savona<sup>(15)</sup> nous fait savoir qu'un trajet effectué depuis Gênes était le suivant : départ de Gênes (juin ou juillet 1201), Marseille, Ceuta, Oran, Bougie, Tunis, Messine (arrivée en mars ou avril 1202), Alexandrie - Ceuta de là le navire devait regagner à nouveau Alexandrie. Ce document nous montre parfaitement le rôle de Ceuta comme terminus. Le navire fait deux fois le trajet Ceuta-Alexandrie. Un autre document nous le confirme nettement : de 1200 à 1203, le navire a fait le trajet Marseille, Alexandrie, Marseille, Ceuta, Marseille Savona, Alexandrie, Savona, trafic triangulaire : à Ceuta est porté du coton, on y achète de la cire, des cuirs et des peaux qu'on porte à Marseille ou à Alexandrie d'où du poivre ou de l'alun est réexporté sur Marseille ou sur Ceuta même<sup>(16)</sup>. D'autres exemples aussi caractéristiques nous sont donnés par des documents génois. En été 1253 un navire fait le voyage Gênes - Ceuta via Malaga. Dans cette dernière ville le patron du navire demande des nouvelles à propos de la sécurité à Ceuta avant d'y embarquer pour hiverner. L'hiver passé à Ceuta, les marchands auront à décider s'ils souhaitent continuer leur voyage pour Bougie et Tunis avant de retourner à Gênes<sup>(17)</sup>. Un marchand Génois reçoit une commande de 13 livres «*quas porto constantinoplam et inde Alexandriam vel setam (Ceuta), et nullo alio itinere mutado lanuan deber venire*»<sup>(18)</sup>. Plusieurs autres documents nous montrent comment les marchands chrétiens faisaient escale à Ceuta, réalisant ventes et achats, avant de se rendre sur la côte Atlantique marocaine compléter la cargaison. De là, ils retournent à Ceuta avant d'entreprendre un voyage vers les autres villes maghrébines, italiennes, ou vers l'Orient<sup>(19)</sup>.

Ce double rôle du port de Ceuta comme débouché principal de la production de l'intérieur du Maroc - sur la façade méditerranéenne, et comme terminus et point de départ d'une importante route commerciale méditerranéenne explique - en partie - l'importance des relations commerciales de la ville avec le monde Méditerranéen. Piraterie sur mer, brigandage sur terre, les deux dangers majeurs qui entravaient le commerce sebtî n'étaient pas cependant insurmontables<sup>(20)</sup>.

(14) Lopez : *facteurs* : 187.

(15) Bautier : *relations*... 409

(16) Ibid : 410.

(17) Byrne : *Genoese shipping* : 44 - 45

(18) C. Posac Mon : *relaciones* : p. 165 (acte d'Oberto scriba 23 sept. 1186)

(19) Krueger H. *The wares of exchange*... p. 70 idem : *Genoese Trade with Northwest Africa*... pp. 382 - 392 - 394.

(20) Musnad p. 429. Le sultan Abū Ḥassan le Mérinide avait aménagé les routes qui mènent de Fès à Marrakech, à Tlemcen et à Ceuta, en installant des tentes sur chaque étape de douze mils où se tenaient des gardiens attirés, et où on vendait les vivres pour voyageurs et leurs montures.



## OUVRAGES CITES

- Braudel (F.) : La Méditerranée et le monde méditerranéen... A. Colin Paris, 1985.
- Bautier (R.M.) : Les relations commerciales entre l'Europe et l'Afrique du Nord et l'équilibre méditerranéen du XII<sup>e</sup> au XIV<sup>e</sup> s. Bulletin philologique et historique, 1953 - 54.
- Byrne (W.) : Genoese shipping in the XII<sup>th</sup> and XIII<sup>th</sup> Centuries Cambridge (Mss.) 1930.
- Posac Mon (M.) : Relaciones entre Genova y Ceuta durante el Siglo XII, Tetuan, VI, 1958.
- Lopez (R.S.) : Le facteur économique dans la politique africaine des Papes. Revue historique t. 198, 1947.
- Dufourcq (Ch. E.) : L'Espagne Catalane et le Maghreb aux XIII<sup>e</sup> et XIV<sup>e</sup> s. PUF 1966 (E.C.M.)  
La question de Ceuta au XIII<sup>e</sup> S. Hespéris XLII, 1955.
- Le Tourneau (R.) : Fez in the age of the Merinids. Tr. arabe, Beyrouth 1967.
- Deverdun (G.) : Marrakech des origines à 1912. t I, Rabat, 1959.
- Vanacker (C.) : Géographie économique de l'Afrique du Nord... Annales E.S.C. 28 (1963).
- Lévi-Provençal (E.) : Histoire de l'Espagne Musulmane, t 3 Paris 1950 - 53.
- Krueger (M.C.) : Genoese trade with North west Africa in the twelfth century. in SPECULUM, 8 (1933 : The wares of exchange in the Genoese African trafic of the Twelfth Century in Speculum 12 (1937).
- Ibn Hawqal : Surat al arḍ tr. fr. par J.H. Kramers et G. Wiet, Paris, 1964
- Ibn Idari : Kitāb al Bayān al Maḡrib... t I, Leiden 1948-51
- Ibn Sa'īd : K. al ḡagrāfiya : Beyrouth. 1970
- Ibn Marzuq : al Musnad... éd. M.J. Viguera, Alger, 1981.
- Ibn Ḥaldūn : voyage tr. fr. A. Cheddadi, Paris 1980.
- Badisi (Abdel Haqq) : Al Maqṣad as Ṣarīf... éd S. A'ARAB Rabat, 1971.
- Fernandes valentin : Description de la côte d'Afrique de Ceuta au Sénégal. tr. fr. par P. de Céonival et Th. Monod. Paris 1938.
- Hadrami (Abou Abd Allah Mohamed al :) : as Salsal al 'abd... Majallat Ma'had al Maḥfūfāt al 'Arabiya (1964)
- Tadili (Abi Yahya Yusuf) at Tasawwuf... éd. A. Faure Rabat 1958.
- 'Iyad (Mohamed ben) : Madahib al hukkam... Mss. B.R. n° 4042.